كلمات روحية للحياة

القمص لوقا سيداروس

الكتاب: كلمات روحية للحياة
المؤلف: القمص لوقا سيداروس
الطبعة:
الناشر:
المطبعة:

مقدمـــة

بِاسِمِ الآبِ والابنِ واَلرُوح القَدَس إِلَهُ وَاحِدُ آمِين

خبز كل يـوم

تعودنا أن ندرس كلمة الله ونتغذى عليها كل يوم. وكمثل المن النازل من السماء الذى عال به الرب الشعب أربعين سنة، هى مدة غربتهم، حتى وصلوا إلى أرض الميعاد، هكذا تكون كلمة الله تُشبع وتُغنى الساعين نحو الوطن الأفضل.

وهى كما كان المن – جديدة متجددة كل صباح. ويلتقط الواحد منها ما يكفيه لسعى يوم بيوم. ولا يكفى ما التقطه بالأمس لمواجهة احتياجات اليوم.

وأيضاً كما اختبر الآباء الأولون كيف يأكلون الكلمة.. إذ أعطاهم الرب هذه النعمة كما فعل حزقيال وإرميا وداود وغيرهم. اختبروا مذاقة الكلمة وحلاوتها، وأيضاً مُرَّها فى الباطن وتبكيتها الشديد. ثم طعمها الذى كالعسل حلاوة.

وفى عهد النعمة قال القديس بولس الرسول لتلميذه تيموثاوس مشجعاً إياه على اللهج فى ناموس الرب، أن يواظب على القراءة والدرس.. يأكل الكلمة ويُعلِّمها ويستأمن أُناس أكفاء يعطيهم مما تحصَّل عليه من النعمة بواسطة الإنجيل ليُعلِّموا آخرين أيضاً.

لذلك وجدنا أن نشجع شعبنا على القراءة اليومية والدرس الروحى العميق لكلمة الله، بدون فلسفة أو جدل.. لكى تتحول الكلمة إلى طعام روحى وخبز كل يوم، الذى لا يستغنى عنه السائر فى الطريق. ويتبع التأمل الروحى العميق للكلمة تطبيقها فى الحياة اليومية إذ تكون النفس قد تشبعت بروح الإنجيل وتأدبت بكلام الحياة الأبدية، فلم تعد تصدر عنها أفعال إلا المضبوطة بفعل الكلمة. لأن الأعمال هى الترجمة الحقيقية للإيمان.. «لأَنَّ الإِيمَانَ بِدُونِ أَعْمَال مَيِّتٌ» (يع ٢ : ٢٠).

لذلك نحن نقدم عينة تصلح أن تكون بداية لتدريب النفس على الانحياز لكلمة الله والتلمذة للإنجيل، بعيداً عن فلسفة الكلام وحكمة العقل البشرى، ومماحكات الكلام.. فنحن نؤمن أن الإنجيل هو الحياة.

فالكلمة فعلاً «حَيَّةٌ وَفَعَّالَةٌ وَأَمْضَى مِنْ كُلِّ سَيْفٍ ذِي حَدَّيْنِ» (عب ٤ : ١٢). وليبارك المسيح إلهنا فى كل كلمة لمنفعتنا وخلاص نفوسنا.

القمص لوقا سيداروس (استشهاد القديس أبى سيفين – ديسمبر ٢٠١٩)

لَسْتُ أُرِيدُ أَنْ تَجْهَلُوا

١- «فَإِنِّي لَسْتُ أُرِيدُ أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنْ تَجْهَلُوا أَنَّ آبَاءَنَا جَمِيعَهُمْ كَانُوا تَحْتَ السَّحَابَةِ، وَجَمِيعَهُمُ اجْتَازُوا فِي الْبَحْرِ، وَجَمِيعَهُمُ اعْتَمَدُوا لِمُوسَى فِي السَّحَابَةِ وَفِي الْبَحْرِ» (١كو ١٠ : ١).

٢- «وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الْمَوَاهِبِ الرُّوحِيَّةِ أَيُّهَا الإِخْوَةُ، فَلَسْتُ أُرِيدُ أَنْ تَجْهَلُوا» (١كو ١٢ : ١).

٣ - «لاَ أُرِيدُ أَنْ تَجْهَلُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ مِنْ جِهَةِ الرَّاقِدِينَ، لِكَيْ لاَ تَحْزَنُوا كَالْبَاقِينَ الَّذِينَ لاَ رَجَاءَ لَهُمْ» (١تس ٤ : ١٣).

٤ - «فَإِنِّي لَسْتُ أُرِيدُ أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنْ تَجْهَلُوا هذَا السِّرَّ، لِئَلاَّ تَكُونُوا عِنْدَ أَنْفُسِكُمْ حُكَمَاءَ. أَنَّ الْقَسَاوَةَ قَدْ حَصَلَتْ جُزْئِيًّا لإِسْرَائِيلَ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ مِلْؤُ الأُمَمِ» (رو ١١ : ٢٥).

٥ - «لَسْتُ أُرِيدُ أَنْ تَجْهَلُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنَّنِي مِرَارًا كَثِيرَةً قَصَدْتُ أَنْ آتِيَ إِلَيْكُمْ، وَمُنِعْتُ حَتَّى الآنَ، لِيَكُونَ لِي ثَمَرٌ فِيكُمْ» (رو ١ : ١٣).

أولاً: حذر القديس بولس الأخوة من الجهل بهذه الأمور الخمسة. وحذر أيضاً من نتائج هذا الجهل بهذه الأمور. فالواجب يُحتّم على كل إنسان مسيحى أن يكون على علم واستنارة، ويمحو الجهل بالتعليم والتبصُّر فى هذه الأمور، ومن دراسة روحية جادة لكلمة الله وتقليد الآباء الذين علمونا وسلمونا.

حذر القديس بولس فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس، الأصحاح العاشر، من الجهل بالمكتوب فى الكتب المقدسة فى العهد القديم «لأَنَّ كُلَّ مَا سَبَقَ فَكُتِبَ كُتِبَ لأَجْلِ تَعْلِيمِنَا»، (رو ١٥ : ٤)، وكذلك بطرس الرسول «لأَنَّهُ لَمْ تَأْتِ نُبُوَّةٌ قَطُّ بِمَشِيئَةِ إِنْسَانٍ، بَلْ تَكَلَّمَ أُنَاسُ اللهِ الْقِدِّيسُونَ مَسُوقِينَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ» (٢بط ١ : ٢١).

وكل الأحداث فى كل الأزمنة ومعاملات الله، وتدبيره من أجل الخلاص، كل هذا مُتَضمَّن فى المكتوب. وكل مواعيد الله وكل رموز الخلاص وكل فكر الله تحويه الكتب المقدسة.

فماذا إذا جهل الإنسان كل ذلك؟ يكون كأنه يُهمل الخلاص الذى تنبأ عنه الآباء والأنبياء، وكشفوا للمؤمن كنوز العهد القديم، وأسهبوا فى التأمل فى الأحداث والأشخاص مثل: إبراهيم وإسحق ويعقوب وداود.. وتركوا تراثهم الذى تعتز به الكنيسة محفوظاً فى خزائنها إلى يوم مجئ الرب.

فماذا إذا كان أحد يجهل كل هذا؟ ويكفى أن نقرأ مطلع الرسالة إلى أهل رومية: «بُولُسُ، عَبْدٌ لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، الْمَدْعُوُّ رَسُولاً، الْمُفْرَزُ لإِنْجِيلِ اللهِ، الَّذِي سَبَقَ فَوَعَدَ بِهِ بِأَنْبِيَائِهِ فِي الْكُتُبِ الْمُقَدَّسَةِ، عَنِ

ابْنِهِ. الَّذِي صَارَ مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ مِنْ جِهَةِ الْجَسَدِ...» أو ما كتبه الإنجيليون عن عمل الخلاص الذى صنعه الرب بتجسده وخدمته وصلبه وقيامته، وكيف كرروا القول «كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ... لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ فِي الأَنْبِيَاءِ».

ليكن هذا الدرس نافعاً لحياتنا وخلاص أنفسنا. لذلك يجب أن ندرس العهد القديم، ليس مجرد دراسة عقلانية أو تحليل ودراسة شخصيات أو تاريخ أناس وأحداث. بل لاستلهام الروح وإدراك الكتب المقدسة التى تُحَكِّم الإنسان للخلاص كقول الرسول.

والعينة التى اختارها الرسول بولس فى هذه الآيات، هى عمل الله العظيم فى خلاص شعبه من العبودية القاسية فى أرض مصر. فلما سلَّط القديس بولس نور وجه يسوع على القديم، لمع ببريق يخطف الأبصار. فلما أنار على الظل انكشف العمل الإلهى من وراء الدهور، فالسحابة التى ظللت على الشعب العابر البحر الأحمر، مع سور الماء من اليمين واليسار، كانت بمثابة المعمودية المقدسة التى فصلت بين العبودية والحرية، وبين أرض الغربة وأرض الميعاد.

جميعهم اعتمدوا لموسى. وجميعهم أكلوا طعاماً، هو المن.. ولكن تحت نور وجه يسوع، عرفنا أن المن كان طعاماً روحياً نازلاً من السماء.. وفى شخص المسيح يسوع تجسد المعنى الروحى فى كماله المطلق، عندما قال الرب: «آبَاؤُكُمْ أَكَلُوا الْمَنَّ فِي الْبَرِّيَّةِ وَمَاتُوا... أنا هُوَ الْخُبْزُ (المن) النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ، لِكَيْ يَأْكُلَ مِنْهُ الإِنْسَانُ وَلاَ يَمُوتَ» (يو ٦ : ٤٨ – ٥١).. هو المن الحقيقى وخبز الحياة.

«وَجَمِيعَهُمْ شَرِبُوا... مِنْ صَخْرَةٍ رُوحِيَّةٍ تَابِعَتِهِمْ، وَالصَّخْرَةُ كَانَتِ الْمَسِيحَ» (١كو ١٠ : ٤). بالطبع لم يدرك أحد هذا المعنى أو الحق المخفى فى الظل، كما قيل «شِبْهَ السَّمَاوِيَّاتِ وَظِلَّهَا» (عب ٨ : ٥). ولكن عندما تكلم القديس بالروح بحسب درايته بسر المسيح، أنار التدبير الإلهى الذى يعجز البشر عن إدراكه.

على هذا النحو قرأت الكنيسة العهد القديم، وسار آباء الكنيسة العظام: مثل القديس كيرلس الكبير، والقديس اثناسيوس الرسولى، وآباء البرية العظام: أنطونيوس ومكاريوس، ساروا على نفس الدرب.

ثانياً: أما من جهة الراقدين بالرب، فكان الأمر مختلطاً على المؤمنين فى البداية، وكانوا فى احتياج إلى المعرفة الحقيقية المستمدة من الإيمان بالمسيح، فقد كانوا فى لهفة الانتظار لمجئ المسيح الثانى وظهوره المخوف والمملوء مجداً، حتى أنهم كانوا يتوقعونه كل يوم.

وقد كتب لهم الرسول «أَنَّهُ لاَ يَأْتِي إِنْ لَمْ يَأْتِ الارْتِدَادُ أَوَّلاً» (٢تس ٢ : ٣). وكانوا يتساءلون فيما بينهم: ماذا عن النفوس التى رقدت فى أيامهم قبل مجئ الرب؟ فأراد أن يوضح لهم حقيقة الأمر، لكى لا

يحزنوا على الذين رقدوا فى الرب، حزن غير المؤمنين الذين ليس لهم رجاء القيامة. وهكذا شرح لهم أنهم أعضاء جسد المسيح، وهم الآن ينتظرون مجد ظهوره، وفى مجيئه الثانى سيُحضرهم الرب معه، فهم وإن سبقونا ولكنهم فى المسيح يحيون وعلى رجاء القيامة رقدوا.

ومن جهة القيامة، فإن قيامة ربنا يسوع من الأموات وكسره شوكة الموت، هى الركيزة التى نتمسك بها. فإن كان المسيح قد قام من الأموات بقوة واقتدار، فإن الراقدين فى يسوع سيقومون بقيامته.

وقد كتب القديس بولس لأهل رومية عن روح القيامة، الذى نلناه قائلاً: «وَإِنْ كَانَ رُوحُ الَّذِي أَقَامَ يَسُوعَ مِنَ الأَمْوَاتِ سَاكِنًا فِيكُمْ، فَالَّذِي أَقَامَ الْمَسِيحَ مِنَ الأَمْوَاتِ سَيُحْيِي أَجْسَادَكُمُ الْمَائِتَةَ أَيْضًا بِرُوحِهِ السَّاكِنِ فِيكُمْ» (٨ : ١١). هكذا نبّه القديس بولس المؤمنين أن لا يجهلوا هذا الأمر. لأن بدون هذا الرجاء، يصير الإنسان فى رعبة الموت وفقدان الأمل، ويحسب أن الموت هو النهاية الأسيفة، ويحزن ولا عزاء.

ثالثاً: أما من جهة أن لا يجهلوا «أَنَّ الْقَسَاوَةَ قَدْ حَصَلَتْ جُزْئِيًّا لإِسْرَائِيلَ» (رو ١١ : ٢٥)، فقد كان الذين آمنوا بالمسيح من الوثنيين بدأوا فى الافتخار، وشعروا بأنهم أفضل.. فهم قبلوا الإيمان بالمسيح وأطاعوه وأحبوه وقبلوا نعمة التبنى.. الخ. فأراد القديس بولس أن يحذرهم ويكشف لهم الحق.. أن القساوة من اليهود التى يرونها الآن، هى جزئية محصورة فى الزمن. وقد أوضح لهم الخطة الإلهية لخلاص اليهود والأمم كليهما، وقد أوضح ذلك كثيراً بالشرح.. أن اليهود «لَهُمُ الْعُهُودُ وَالاشْتِرَاعُ... وَمِنْهُمُ الْمَسِيحُ حَسَبَ الْجَسَدِ» (رو ٩ : ٤ ، ٥).

فإن كانت قد قُطعت بعض الأغصان من الزيتونة الأصلية، لسبب عدم الإيمان، و«أَنْتَ (يقصد المسيحى الذى كان وثنياً) قَدْ قُطِعْتَ مِنَ الزَّيْتُونَةِ الْبَرِّيَّةِ، وَطُعِّمْتَ بِخِلاَفِ الطَّبِيعَةِ فِي زَيْتُونَةٍ جَيِّدَةٍ (الزيتونة الأصلية)... فَلاَ تَفْتَخِرْ عَلَى الأَغْصَانِ» (رو ١١ : ١٧ – ٢٨). هم لسبب عدم الإيمان قُطعوا وأنت بالإيمان ثَبَتّ، وهم إن لم يثبتوا فى عدم الإيمان فإنهم يُطعّمون.

الأمر إذن ينحصر فى الثبات فى الكرمة الحقيقية.. «كُلُّ غُصْنٍ يَأْتِي بِثَمَرٍ يُنَقِّيهِ لِيَأْتِيَ بِثَمَرٍ أَكْثَرَ» (يو ١٥ : ٢).. وكل غصن لا يأتى بثمر يُقطع. إذن الجهل بهذا الأمر جعلهم يصيرون حكماء عند أنفسهم، ويقنعون بأفكار ليست من الله، تدفعهم إلى الكبرياء. وهذا ضد روح المسيح.

رابعاً: «أَمَّا مِنْ جِهَةِ الْمَوَاهِبِ الرُّوحِيَّةِ... فَلَسْتُ أُرِيدُ أَنْ تَجْهَلُوا. أَنَّكُمْ كُنْتُمْ أُمَمًا مُنْقَادِينَ إِلَى الأَوْثَانِ الْبُكْمِ، كَمَا كُنْتُمْ تُسَاقُونَ» (١كو ١٢ : ١ ، ٢).

فالأمر جد خطير، فقد انبهر هؤلاء المؤمنون الجدد بالآيات والعجائب والتكلم بالألسنة، وقد شغلهم هذا الأمر حتى صاروا يتسابقون، فيمن هو الأعظم، ومن يتكلم بألسنة أكثر من الآخر، حتى صارت اجتماعاتهم كغوغاء من كثرة المتكلمين بألسنة، وكان بعضهم على حق من جهة هذه الموهبة، أما كثيرون فكانوا مُدّعين، وقد طغى عليهم إنسانهم العتيق مع بقايا عبادات الأوثان.

وقد سمع القديس بولس عن البعض من مُدّعى التكلم بالألسنة إنه يقول «يَسُوعُ أَنَاثِيمَا» (١كو ١٢ : ٣)، ويبدو من الحديث أنهم لم يكونوا على معرفة بقوة اللغة، بل كانوا ينطقون بلا فهم. لذلك حذرهم القديس بولس وأرادهم أن لا يجهلوا من جهة المواهب. وأوضح بالروح وبالتفصيل أن المواهب ليست للافتخار أو التباهى والرجوع إلى الذات.

ولكن المواهب الحقيقية يعطيها الروح القدس للكنيسة لبنيان المؤمنين.. وأن الموهبة الحقيقية تُعطى للإنسان ليس لأجل ذاته، ولكن الروح يقسِّم لكل واحد كما يشاء. وأن الكنيسة هى جسد واحد، وأننا أعضاء فى الجسد الواحد، وإن كُرِّم أحد الأعضاء فللباقين، ولا يستغنى الجسد عن أقل أعضائه، ولا يقل عضو فى الجسد لباقى الأعضاء: «لاَ حَاجَةَ لِي إِلَيْكِ» (١كو ١٢ : ٢١)، ولا يفتخر أحد بما نال من المواهب من الروح القدس كأنه الأفضل.

فالعين وإن كانت وظيفتها الإبصار، والأذن للسمع.. فما تقوم به العين يختلف عما تؤديه الأذن. ولكن بالنهاية كلها موضوعة فى الجسد بانسجام للخدمة وللتآلف.. فليس أحد يحيا لنفسه ولكن حياته فى الجسد وبالجسد وللجسد. فلا يتصور أحد أن العين قائمة بمفردها بعيداً عن الجسد، فهى فى هذه الحالة كعضو منفصل عن الجسد تصير بلا قيمة وبلا منفعة.

هكذا شرح الرسول على ضوء ذلك طبيعة الكنيسة كجسد المسيح، وأن المؤمنين وإن كانوا أفراداً ولكنهم بالأكثر أعضاء فى الجسد الواحد يحيون بالروح الواحد. فالحياة تسرى فى جميع الأعضاء، وهذه الحياة هى بالروح القدس الكائن فى جميع المؤمنين وبلا تفريق. فإن اختلفت المواهب لكن الروح واحد وهو المصدر الوحيد.

خامساً: وأخيراً صحح الرسول كل هذه المفاهيم من جهة المواهب فى الكنيسة، ثم وجههم إلى ما هو أعظم من كل المواهب، وهو تكميل المحبة المسيحية لأنه إن كان أحد قد حاز كل الإيمان حتى ينقل الجبال وليس له محبة فهو ليس بشئ.

إلى آخر ما كتبه للكنيسة مؤكداً أن المحبة هى العصب، وهى الرباط الذى به تقوم الكنيسة. وتوّج حديثه الملهم بأن الإيمان سيبطل، أما المحبة فلا تسقط أبداً.

وفى كل أجيال الكنيسة شغل هذا الأمر الكثيرين واستهوى الكثيرين من جهة المواهب والمعجزات، وانجرف فى هذا التيار كل من جهل كلام القديس بولس. أما من استنارت عقولهم بالكلام الإلهى فقد ثبتوا فى المحبة ومارسوها مدى الحياة، وفاقت حياتهم حتى أصحاب المعجزات.

+ أما عن التدبير الإلهى فى خدمة الرسول وحركته وأسفاره والأماكن التى يقصدها ومدة وجوده فيها. فلا يتخيل أحد أنه مُنقاد بمقاصد بشرية أو خطة إنسانية، فمادام هو رسول يسوع المسيح، ومنقاد بالروح القدس فحيثما أرسله الروح يذهب وحيثما وجهه يتجه. فمرات منعه الروح أن يتكلم، ومرات أخرى قال له الروح: «لاَ تَخَفْ، بَلْ تَكَلَّمْ وَلاَ تَسْكُتْ، لأَنَّ لِي شَعْبًا كَثِيرًا فِي هذِهِ الْمَدِينَةِ» (أع ١٨ : ٩ ، ١٠). ومرات قصد أن يذهب إلى مكان، ولكنه أُعيق عن رغبته، لأن الروح كان له تدبير آخر وقصد آخر من جهة الرسول نفسه ومن جهة المخدومين أيضاً.

لذلك أوضح الرسول هذا الأمر قائلاً: «لَسْتُ أُرِيدُ أَنْ تَجْهَلُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنَّنِي مِرَارًا كَثِيرَةً قَصَدْتُ أَنْ آتِيَ إِلَيْكُمْ» (رو ١ ١٣)، ولكن كان فى تدبير الروح أن غياب الرسول عنهم فى تلك الفترات، قد يثمر الروح فيهم أكثر، إذ يعمل فيهم باجتهاد فى حفظ وصايا الرب، وممارسة الأعمال الروحية. وكأنّ الروح كان بالنسبة لهم كأم تعلم ابنها المشى وبينما لا يريد الابن أن يترك يد أمه وينتصب واقفاً، ولكنها لمنفعته تتركه وأحياناً يسقط ويبكى، ولكن هذا التخلى الوقتى يصير بالنهاية للمنفعة.

وهذا الإدراك عند المؤمنين يجعلهم ينمون فى النعمة والقامة، وإن كان يفطمهم من حضور القديس بولس إلى حين. والجهل بهذه الحقيقة الإلهية يربك المؤمنين ويجعلهم فى حيرة، وربما تعلقهم يصير كشبه مرض، أو كطفل لا يريد أن ينسلخ من الطفولة إلى طور الرجولة فى الروح.

فى الختام نقول: ما أفدح الخسارة التى تصيب المؤمن والكنيسة من الجهل! وتأتى الكلمات الخمس كأنها بوق إنذار لجميع الكنائس، وطبعاً تنطبق على كل أنواع الجهل.. لأنه قيل: «قَدْ هَلَكَ شَعْبِي مِنْ عَدَمِ الْمَعْرِفَةِ» (هو ٤ : ٦). وليست المعرفة العقلانية التى شاعت فى هذه الأيام الأخيرة، بل الجهل الروحى فى التوصل إلى الحق والتمتع به.

انظر كمّ الجهل بعمل الروح فى الأسرار.. تأمل وتعجب! وانظر كمّ الجهل فيما يُمارس من عبادات ورغم الحضور الكثير والمتواتر ولكن اسأل عن الممارسات ومدى الثمر.. سيصيبك الدهش!

كنت أزور كثيراً من البيوت وأدفع الإنجيل إلى رب البيت ليقرأ.. وقد قابلت كثيراً من المفارقات فالبعض عنده حاسة تذوق الإنجيل والانفعال به والخضوع له.. بينما وجدت كثيرين كأنهم لا يعرفون

القراءة رغم علمهم، وكأن الإنجيل طلاسم لا تُفهم، فيقرأ الإنسان ولا يعى. وقد يبدو هذا جلياً من الذين يقرأون الفصول الكنسية فى القداس الإلهى.

عموماً، نرجو أن ينير الروح ذهننا ويمحو جهلنا وضعف معرفتنا.

قال ربنا يسوع هذا القول الإلهى ليرفع عنا ثقل ونير الهم.

أولاً: لأنه مهتم بمستقبلنا، ليس للغد فقط، بل بمستقبلنا الأبدى، فإن كان الأمر كذلك وقد وضعنا الغد فى يده، فما أسعده غد! كثيراً ما نضع أمراً يخصنا فى عهدة إنسان كبير أو حكيم أو صاحب سلطان من أى نوع. ونطمئن أن هذا الموضوع صار فى عنايته ونحن نثق فيه.. فكم بالأولى إذا سمعنا أن أبانا السماوى مهتم بنا ويرعى حياتنا بعنايته الفائقة.

لقد عرَّفنا الرب يسوع على الآب، وقال: «مَتَى صَلَّيْتُمْ فَقُولُوا أَبَانَا» (لو ١١ : ٢)، وقال: «الآبَ نَفْسَهُ يُحِبُّكُمْ» (يو ١٦ : ٢٧)، ومن جهة الاحتياجات قال: «لأَنَّ أَبَاكُمْ يَعْلَمُ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلُوهُ» (مت ٦ : ٨).. وقال: «فَإِنْ كُنْتُمْ وَأَنْتُمْ أَشْرَارٌ (وأنتم أباء) تَعْرِفُونَ أَنْ تُعْطُوا أَوْلاَدَكُمْ عَطَايَا جَيِّدَةً، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ أَبُوكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ» (مت ٧ : ١١). ولكشف الأمر بأكثر عمق قال: «حَتَّى شُعُورُ رُؤُوسِكُمْ جَمِيعُهَا مُحْصَاةٌ» (مت ١٠ : ٣٠). وليس فى الأمر تشبيه ولا مغالاة، فقول المسيح هو الحق كل الحق.

فتفكر يا أخى أن عناية الآب السماوى تشمل حياتك، الأمور الكبيرة والصغيرة معاً.. حتى شعر رأسك معدود، واحدة منه لا تسقط بدون إذن أبيك.

أتذكر لما أصيب أبونا بيشوى كامل بمرض السرطان وبدأ العلاج الكيماوى، تساقط شعر رأسه ولحيته، فلما رأى أنچيل زوجته منزعجة، قال لها: ألا تعلمين أن كل شعرة سقطت بإذن الآب.

ثانياً: الغد بالنسبة لأى إنسان مجهول.. قال الرسول يعقوب: «أَنْتُمُ الَّذِينَ لاَ تَعْرِفُونَ أَمْرَ الْغَدِ» (يع ٤ : ١٤). فماذا ينفع إن كان الإنسان (يعول) الهم من جهة الغد؟ هل يغير هذا شيئاً؟

أما أبونا السماوى فهو غير الزمنى ليس عنده ماض ولا مستقبل، بل الكل مكشوف ومعروف، ليس شئ مخفياً أو مجهولاً. قال الحكيم: «الْغَمُّ (الهم) فِي قَلْبِ الرَّجُلِ يُحْنِيهِ» (أم ١٢ : ٢٥) وهذا حق. الإنسان (عوّال) الهموم، كثير الأوجاع وكثير الأمراض، ليس من جهة الجسد فقط، بل الهموم تجعل نفسه فى اضطراب وخوف وتوجس، تُرى ماذا يخبئ الزمن.

وهذا ضد الثقة والإيمان فى الله مدبر أمورنا. إن حياة الاتكال على الله مريحة، تملأ النفس سلاماً وطمأنينة «أَلْقِ عَلَى الرَّبِّ هَمَّكَ فَهُوَ يَعُولُكَ» (مز ٥٥ : ٢٢)، «وَمَنْ مِنْكُمْ إِذَا اهْتَمَّ يَقْدِرُ أَنْ يَزِيدَ عَلَى قَامَتِهِ ذِرَاعًا وَاحِدَةً؟» (مت ٦ : ٢٧).

قال لنا ربنا: «اُنْظُرُوا إِلَى طُيُورِ السَّمَاءِ: إِنَّهَا لاَ تَزْرَعُ وَلاَ تَحْصُدُ وَلاَ تَجْمَعُ إِلَى مَخَازِنَ، وَأَبُوكُمُ السَّمَاوِيُّ يَقُوتُهَا... تَأَمَّلُوا زَنَابِقَ الْحَقْلِ كَيْفَ تَنْمُو... إِنَّهُ وَلاَ سُلَيْمَانُ فِي كُلِّ مَجْدِهِ كَانَ يَلْبَسُ كَوَاحِدَةٍ مِنْهَا» (مت ٦ : ٢٦ – ٣٠).

لنا فى حياة آبائنا القديسين الذين ألقوا رجاءهم بالتمام على الله، أعظم دروس الإيمان والثقة بالله والاتكال عليه وحده. لقد عال الذين سكنوا الجبال والمغائر وشقوق الأرض. واعتنى بالذين ساحوا (طافوا) جائلين فى جلود غنم وجلود مِعزى، مكروبين ومُذلين.. وفى الواقع «لَمْ يَكُنِ الْعَالَمُ مُسْتَحِقًّا لَهُمْ» (عب ١١ : ٣٨).

ثالثاً: قد تتوقع بحسب فكرك أنك ستواجه مشاكل أو أموراً صعبة أو أشياء مخيفة.. وتظل مهموماً قلقاً وقد تأتى الأمور على غير توقع.

كنت أقرأ فى سفر التكوين عن يعقوب أب الآباء، لما ترك خاله لابان وقصد أن يرجع.. وكان الخوف كل الخوف من أخيه عيسو. لقد صارت قطيعة بينهما أكثر من عشرين عاماً.. وقتها هرب يعقوب من وجه عيسو لأن عيسو كان مفتكراً أن يقتله. وقد ملك الخوف على يعقوب وصار يتفكر عسى ماذا سيحدث، وصار مهموماً وطار نومه.. وصارعه إنسان حتى الفجر. ولما اقترب من المكان قال: استرضى وجه أخى بالهدية.. فعمل قطعان صغيرة من الغنم والبقر.. وجعلها تسير أمامه وأوصى الغلمان أن يقولوا: هذه هدية لعيسو. وكان عيسو قد جهز نفسه للقاء أخيه، ومعه أربعمائة رجل، وهذا ألقى الرعب بالأكثر فى قلب يعقوب. ثم من كثرة الخوف أيضاً رتب بمكر أملاكه وأسرته.. جاعلاً الخادمات وأولادهن أولاً.. ثم ليئة وأولادها.. وأخيراً راحيل وابنها.. وكأنه يقول إن أصابه الشر.. فأبقى المحبوبة آخر الكل.

ولكن للعجب العجاب كانت كل هذه التهيؤات وهذا الهم القاتل مجرد نتاج الفكر البشرى، الذى إذا سلّم الإنسان نفسه له يتزايد، لأن الفكر الردئ لا يقف عند حد.

ولك أن تتخيل كيف قابل عيسو يعقوب بالأحضان والبكاء والكرم والشهامة. وقد نسى الإساءة وغلَّب الحب والأخوَّة، وتبددت مخاوف يعقوب، وحسب كل ما عاناه من الهّم فى حساب الخسارة، وبقيت عنده بقية من ظل الخوف، فطلب من أخيه أن يرحل واعتذر له أنه يريد أن يسوق على مهل، لئلا يكد الأملاك، ثم إذ وصل لم يسكن فى كنعان بل عبر الأردن إلى سكوت ثم إلى شكيم.

بقى أن ندرك الفرق الهائل بين الهموم والاهتمام: فالاهتمام بالأمور يظهر الروح المسيحية فى العناية والتدبير، ويبرهن على الأمانة فى العمل الموكل به إلينا، لكى نعمله بدقة وأمانة واخلاص، وهو ضد التواكل والكسل واللامبالاة.

فالإنسان المسيحى السالك بالتدقيق هو كثير الاهتمام، كثير العمل، دقيق فى كل طرقه طالب أن يرضى الرب فى كل شئ، وبحسب مسئوليته التى من الله يتدبر الأمور بالحكمة.

أما أن (يعول) الإنسان الهم ويصير مهموماً، مضطرباً وخائفاً ومتشائماً من المستقبل.. فنجده دائماً قد فقد حتى الابتسامة والفرح.. ويُصاب بالكآبة ولا يتوقع الخير. وهذا كله ضد الإيمان وضد الرجاء بالرب وضد الاتكال عليه.

قال المرنم: «إِذَا سِرْتُ فِي وَادِي ظِلِّ الْمَوْتِ لاَ أَخَافُ شَرًّا، لأَنَّكَ أَنْتَ مَعِي» (مز ٢٣ : ٤)، وقال: «وَلَوِ انْقَلَبَتِ الْجِبَالُ إِلَى قَلْبِ الْبِحَارِ... فَفِي ذلِكَ أَنَا مُطْمَئِنٌّ» (مز ٤٦ : ٢ ، ٢٧ : ٣). وقال عن الرجل الخائف الرب إنه «لاَ يَخْشَى مِنْ خَبَرِ سُوءٍ. قَلْبُهُ ثَابِتٌ مُتَّكِلاً عَلَى الرَّبِّ» (مز ١١٢ : ٧)، وقال: إن «الْمُتَوَكِّلُ عَلَى الرَّبِّ فَالرَّحْمَةُ تُحِيطُ بِهِ» (مز ٣٢ : ١٠).

يا أخى ضع كلمات الرب يسوع أمامك كل يوم.. يكفى اليوم.. يكفى أن نقدس اليوم ونعمل اليوم، قال الرب فى المثل: «يَا ابْنِي، اذْهَبِ الْيَوْمَ اعْمَلْ فِي كَرْمِي» (مت ٢٨ : ٢١).

وهذا المنهج الإلهى مريح للنفس، يطرد عنها الهموم، إذ تتسلم اليوم جديداً فى كل صباح تشكره وتعمل لحسابه على قدر المستطاع. أما الغد فهو مضمون بضمان إلهى أنه فى تدبير الرب الصالح، الذى وهو مخبأ عنا ولكنه فى يد الآب، كمثل ما يخفى الأب يده عن الابن ويقول له: خمن ماذا فى يدى وماذا أخبئ لك. بكل تأكيد ما يخفيه الآب هو أفضل وأعظم مما نظن أو نفتكر.

أُدَرِّبُ نَفْسِي

يقول القديس يعقوب الرسول فى رسالته: «إِنَّ كُلَّ طَبْعٍ لِلْوُحُوشِ وَالطُّيُورِ وَالزَّحَّافَاتِ وَالْبَحْرِيَّاتِ يُذَلَّلُ، وَقَدْ تَذَلَّلَ لِلطَّبْعِ الْبَشَرِيِّ» (٣ : ٧) وذلك عندما تكلم عن اللسان وكيف أنه لا يقدر «أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَنْ يُذَلِّلَهُ».

فإن كان الأمر كذلك مع طباع الخلائق غير الناطقة فكيف يستقيم الأمر مع الإنسان الذى يفوق ويتفوق على الخليقة؟ والمتأمل يرى فعلاً أن الإنسان صاحب السلطان على الخليقة، قد أخضع ودرب وذلل طباع الوحوش والطيور وخلافه.. وبالتدريب والتمرين طوّع الطباع المتوحشة وصيّرها تخضع وتطيع.

والذى نراه فى هذا المجال فى العالم كله، يفوق حد التصور ويصل بالإنسان إلى العجب والدهشة: كيف يكون هذا؟! فأنت ترى فى السيرك كيف تدربت الأسود والنمور والأفيال وهى تقوم بالعروض المذهلة التى تخالف طباعها الشرسة والمفترسة.. كيف صارت مستأنسة هكذا؟ وأيضاً فى عالم البحار والكائنات البحرية كيف طوّع الإنسان هذه الكائنات وأصبحت تقدم عروضاً وألعاباً غاية فى الإعجاز.

هذا ما كتبه القديس يعقوب، وهذا ما نراه ونسمعه حولنا كل يوم وفى كل مكان.

+ نعود إذن إلى الطبع البشرى وما هو مزروع فينا من غرائز فى جسم بشريتنا، وما تربّى فينا من عادات وطباع، منها ما هو موروث، وما هو مكتسب من التعليم فى المدارس ومن أعراف المجتمع وعاداته وتقاليده. ونقول إن كثيراً من هذه الطباع يخص الطبيعة البشرية الساقطة، والذى نُعبّر عنه بإنساننا العتيق. فطباع مثل: الطمع والعنف والغضب والمراوغة والخبث وحب الذات والشراسة وعدم النزاهة وحب الانتقام والتشفّى. وباقى الطباع الردية التى يصعب حصرها.

والسؤال: هل هذه الطباع ممكن أن تتغير، وهل ممكن أن تُذلل. وهل من وسيلة لتدريبها؟

+ والحقيقة الإيمانية أننا حصلنا بالنعمة على الخليقة الجديدة «إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ» (٢كو ٥ : ١٧).. وهذه الخليقة والإنسان الجديد ليست فكراً ولكن فعل ولادة «مَوْلُودِينَ ثَانِيَةً، لاَ مِنْ زَرْعٍ يَفْنَى، بَلْ مِمَّا لاَ يَفْنَى» (١بط ١ : ٢٣) والإنسان الجديد المولود من الله، قال عنه القديس يوحنا: « كُلُّ مَنْ هُوَ مَوْلُودٌ مِنَ اللهِ لاَ يَفْعَلُ خَطِيَّةً، لأَنَّ زَرْعَهُ (زرع الله) يَثْبُتُ فِيهِ، وَلاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُخْطِئَ لأَنَّهُ مَوْلُودٌ مِنَ اللهِ» (١يو ٣ : ٩).

وهذه الطبيعة الجديدة والميلاد الثانى والخليقة الجديدة لإنساننا الداخلى، بها صرنا أولاد الله. فالآن ندرك أننا بإنساننا الجديد وخلقتنا التى نلناها بالنعمة، وتجديد الروح القدس بولادتنا من الماء والروح، صرنا

مخلوقين ثانية على شبه المسيح ومثاله كرأس الخليقة الجديدة. وأننا بحسب الجسد ورثنا الطبيعة البشرية بكل قصورها وعيوبها. وأصبح الأمر بالنسبة لنا واضح غاية الوضوح.. وهو إما أن يسلك الإنسان بروحه ووعيه المسيحى ويعيش بحسب الروح ويثمر لله ثمر الروح. وإما أن يسلك بحسب طبيعته البشرية، ويحيا بالجسد وللجسد وبحسب مفاهيم العالم «إِنْ عِشْتُمْ حَسَبَ الْجَسَدِ فَسَتَمُوتُونَ، وَلكِنْ إِنْ كُنْتُمْ بِالرُّوحِ تُمِيتُونَ أَعْمَالَ الْجَسَدِ فَسَتَحْيَوْنَ» (رو ٨ : ١٣)، «مَنْ يَزْرَعُ لِجَسَدِهِ فَمِنَ الْجَسَدِ يَحْصُدُ فَسَادًا، وَمَنْ يَزْرَعُ لِلرُّوحِ فَمِنَ الرُّوحِ يَحْصُدُ حَيَاةً أَبَدِيَّةً» (غل ٦ : ٨). «وَأَعْمَالُ الْجَسَدِ ظَاهِرَةٌ، الَّتِي هِيَ: زِنىً عَهَارَةٌ نَجَاسَةٌ دَعَارَةٌ... » (غل ٥ : ١٩ – ٢١)، «وَأَمَّا ثَمَرُ الرُّوحِ فَهُوَ: مَحَبَّةٌ فَرَحٌ سَلاَمٌ، طُولُ أَنَاةٍ لُطْفٌ صَلاَحٌ، إِيمَانٌ، وَدَاعَةٌ تَعَفُّفٌ» (غل ٥ : ٢١ ، ٢٢).

والصراع إذن قائم بين كياننا وإنساننا الجديد وطبيعة جسدنا العتيقة. والإنسان الروحى مدعو أن يعيش بالروح ويسلك بالروح.. وعليه إذن أن يدرب نفسه ويُخضع جسده بتداريب روحية. وكما قلنا سابقاً إن كانت طباع الوحوش تُذلل، فبالأولى يستطيع الإنسان بالنعمة أن يُدرب نفسه ويقمع شهواته ويضبط غرائزه، بل يستأسرها لعمل الخير والفضيلة والبذل والحب، ويستعمل جسده كآلات بر وصلاح.

على أننا نرى هذه الوحوش الكاسرة قد أُخضعت بالتدريب المتواصل والمستمر وبدون هوادة أو مهادنة.. وإلا إذا ما غُفل عن تدريبها عادت إلى طبعها الأول. فالحال إذن أن الطباع التى للوحوش لم تمت ولكنها تدربت لتكون على شكل أفضل، وقد اختفى منها ما هو وحشى ومخيف.

قال أحد الآباء فى هذا المجال – وهو يحيا حياة النسك الكثير والصوم المتواصل – : «نحن غير قاتلين أجسادنا بل قاتلين شهواتنا». فالأمر إذن يكمن فى المواظبة بدون إهمال لتدريب النفس وتهذيبها لتخضع للروح وتتعلم الخضوع والطاعة فيما تتدرب عليه. وأى غفلة أو إهمال فى التدريب سرعان ما تظهر قبح الطبائع القديمة حتى لو كانت قد أُخضعت لسنين. «الْجَسَدَ يَشْتَهِي ضِدَّ الرُّوحِ وَالرُّوحُ ضِدَّ الْجَسَدِ، وَهذَانِ يُقَاوِمُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ » (غل ٥ : ٧).

+ الإنسان الطبيعى بدون المسيح خاضع عنوة لناموس الجسد ومستعبد، حتى إذا أراد أن يفعل الخير يجد الشر ماثلا أمامه، ويجد نفسه مغلوباً على أمره ويقول: «وَيْحِي أَنَا الإِنْسَانُ الشَّقِيُّ مَنْ يُنْقِذُنِي مِنْ جَسَدِ هذَا الْمَوْتِ؟» (رو ٧ : ٢٤).

أما فى المسيح فقد خلق فينا ناموس روح الحياة فى المسيح، وصار فينا روح الله يرشدنا ويهدينا إلى جميع الحق «وهُوَ الْعَامِلُ فِيكُمْ أَنْ تُرِيدُوا وَأَنْ تَعْمَلُوا مِنْ أَجْلِ الْمَسَرَّةِ» (فى ٢ : ١٣). هذا الناموس

الإلهى يثمر فينا ثمر الحياة الأبدية. فعمل النعمة يغلب كل عوار الطبيعة ويداوى جراحاته،ا ويجعل الإنسان يحيا حياة القيامة والنصرة والشكر للذى أعطانا الغلبة.

+ أما من جهة التدريب فهو يلذ لأولاد الله أن يُميتوا أعضائهم التى على الأرض ويقولوا مع الرسول: «أَقْمَعُ جَسَدِي وَأَسْتَعْبِدُهُ» (١كو ٩ : ٢٧) وأُدرب نفسى كل يوم لكى يكون لى ضمير صالح. وقد أتقن الآباء القديسون فى كل عصور الكنيسة فنون التأديب، عندما كبرت أرواحهم المؤازرة بنعمة الروح القدس وسيطرت على الحياة برمتها، فى الكلام والصمت معاً، والتصرف والسلوك فى المعاملات مع الناس، فى أعمال المحبة والاتضاع، وكل الفضائل المسيحية.

وبالصلاة المستديمة وتهذيب النفس بالصوم وأعمال التوبة، فى الحزن على الخطايا وتبكيت النفس حتى على الهفوات، والتدريب على ضبط النفس وضبط العين واللسان وجميع الحواس.

وكان إذ اتقنوا التدريب وواظبوا على السهر على خلاص النفس، أن تحلَّت حياتهم بأجمل الفضائل، وظهروا كأنهم أناس سماويون أو كأن طبيعتهم مختلفة وأخلاقهم وسلوكهم ليس من هذا العالم. والواقع أنهم كانوا كسائر البشر، ولكنهم اختلفوا جداً عندما أخضعوا إنسانهم الخارجى لأرواحهم، فصاروا بالتداريب وعمل النعمة فعلاً مختلفين.

والحياة الروحية ليست قصراً على من سكنوا الجبال والبرارى. ولا التداريب الروحية صارت وقفاً على النساك، بل هى حياة المسيحى أينما وُجد، وفى أى ظروف يعيش. وكل واحد على قدر طاقته.

وفى النهاية إذ يكون الإنسان تدرب «أَنْ يكُونَ مُكْتَفِيًا بِمَا فِيهِ.. يعْرِفُ أَنْ يجُوعَ، وَأَنْ يسْتَفْضِلَ، فِي كُلِّ شَيْءٍ وَفِي جَمِيعِ الأَشْيَاءِ قَدْ تَدَرَّب أَنْ يشْبَعَ وَأَنْ يجُوعَ، وَأَنْ يسْتَفْضِلَ وَأَنْ ينْقُصَ» (فى ٤ : ١١ ، ١٢)، يقدر بالنعمة أن يصرخ بصوت الغلبة: «أَسْتَطِيعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ الَّذِي يُقَوِّينِي» (فى ٤ : ١٣).

احتمى فيك وأستتر بسترك، واِجعل باب بيتك مفتوحاً أمامى ودعوتك للعرس قائمة فى وعيى مُتجددة كل يوم، فأسلك بحسب الدعوة التى دُعيت إليها. ولا أخيب من البلوغ إلى ملكوتك أنا وكل أخوتى أعضاء جسدك المدعوين إلى وليمتك الأبدية. آمين.

مثَل حبة الخردل

«وَقَالَ: بِمَاذَا نُشَبِّهُ مَلَكُوتَ اللهِ؟ أَوْ بِأَيِّ مَثَل نُمَثِّلُهُ؟ مِثْلُ حَبَّةِ خَرْدَل، مَتَى زُرِعَتْ فِي الأَرْضِ فَهِيَ أَصْغَرُ جَمِيعِ الْبُذُورِ الَّتِي عَلَى الأَرْضِ. وَلكِنْ مَتَى زُرِعَتْ تَطْلُعُ وَتَصِيرُ أَكْبَرَ جَمِيعِ الْبُقُولِ، وَتَصْنَعُ أَغْصَانًا كَبِيرَةً، حَتَّى تَسْتَطِيعَ طُيُورُ السَّمَاءِ أَنْ تَتَآوَى تَحْتَ ظِلِّهَا» (مر ٤ : ٣٠ –٣٣).

~~~~~~~~~

هكذا يا مخلصى أعلنت سر ملكوتك فى كلمات بسيطة ليدركها أولادك البسطاء، فالأمر يا سيدى ليس فلسفة كلام، فملكوتك ليس كلاماً ولا خيالاً، بل هو حق كل الحق. وحبة الخردل الصغيرة تُلقيها أنت بذاتك فى القلب. ولكن فيها سر الحياة، سر الخلود. وأنا أؤمن يا سيدى أن زرعك الإلهى كائن فى داخلى. وقد نبهت رسك الأطهار قائلاً: «لَوْ كَانَ لَكُمْ إِيمَانٌ مِثْلُ حَبَّةِ خَرْدَل لَكُنْتُمْ تَقُولُونَ لِهذَا الْجَبَلِ: انْتَقِلْ... فَيَنْتَقِلُ» (مت ١٧ : ٢٠).

ليس الأمر يخص نقل الجبال، وإن كان هذا قد حصل فعلاً بقوتك فى ساعة ضيقة أولادك الذين وقع عليهم الاضطهاد.. ليس عسيراً عليك يا إلهى أن تنقل الجبال، فأنت خالق الجبال. لكن على ما يبدو لعبدك أنك توّجه ذهنى إلى أن الإيمان يقدر على المستحيل، لاسيما فيما يواجه عبدك من تجارب وحروب أو ما يبدو عائقاً أمام نمو عبدك.

فالإيمان بك يجعل الجبل سهلاً ويُزيل العوائق.. أتوسل إليك بحق حبك الحانى أن تجعل هذه البذرة تنمو فى قلبى.. فى أعماقى.

+ يا سيدى الرب.. ما أكثر ما شبَّهت ملكوتك ببذور النبات، تسقط على الأرض وتُدفن وتموت فيها، ثم تحيا، وتنبت، وتعطى أثمارها.. وفى الواقع فإن تعليمك يا مخلصى مُنصبّ دائماً على كون البذرة هذه تحوى سر الحياة الأرضية، فهى والحال كذلك تصير أصدق تعبير عن سر الحياة الدائمة الذى هو ملكوتك الأبدى.

إن سر الحياة الأرضية، لم يصل إليه علم العلماء، ولا فهم الفهماء بعد. إن كل ما يعرفه العلماء هو مظاهر الحياة. أما ماهية الحياة، فهذا أمر يفوق مستوى الإدراك البشرى، إذ أن الحياة مستمدة منك يا إلهى الحى الأبدى الأزلى، الذى يُدرَك ولا يُدرَك كماله، كما يقول أحد أولادك.
~~~~~~~~~

فمظاهر الحياة فى الكائن الحىّ مدركة بالحواس: كالتنفس، والحركة، والنمو والتكاثر والتغذية، إلى آخر هذه الظواهر التى لا تخطئها حواس الإنسان مهما كان بسيطاً فى إدراكه. وهذا ما يميز الكائن الحى من الميت. أما إدراك الحياة ذاتها، فكيف يُدرك غير المحسوس بالحواس؟

+ إن اختيارك يا سيدى فى هذا المثل، لِحّبة الخردل، ووصفها بأنها أصغر جميع البذور، ولكن فيها يكمن سر الحياة، فقط هيئ لها تربة صالحة، وتعهدها بسقى الماء، وأعطها وقتاً للنمو، ثم تأملها.. إنها أعجوبة وآية باهرة، حيث تصير أكبر من جميع البقول وتصنع أغصاناً كبيرة. وهذا هو صميم عملك فى امتداد ملكوتك.

والاعتبار الأول الذى تنبَّه ذهنى إليه فى هذا المثل، أن الحبة صغيرة متناهية فى الصغر، فهل من هذا الصغر يمكن أن تخرج شجرة كبيرة؟! إن ملكوتك يبدأ داخل القلب كبذرة صغيرة، كحبة خردل. وأن ملكوتك داخل العالم يبدأ كبذرة صغيرة كحبة خردل. ماذا كان الرسل بالنسبة لحقل العالم المتسع، المترامى الأطراف يا سيدى؟ لقد كانوا قلة صغيرة جداً، اثنى عشر تلميذاً، وسبعين رسولاً. ما هؤلاء بالنسبة لملايين البشر، هل تستطيع حبة الخردل هذه أن تنمو، أن تخرج أغصاناً، أن تصير شجرة كبيرة تأوى إليها طيور السماء؟

لقد حوت سر الحياة الأبدية، الحياة هى المسيح، لقد حمل التلاميذ سر حياة المسيح فيهم، وسر الحياة يتحدى كل معوقات الطبيعة وكل ظلمة الأرض وبرودتها المائتة.. أتوسل إليك أن تستودع قلبى سر الحياة هذه!

إمكانيات الرسل كانت ضئيلة، لا علم ولا معرفة علمية، ولا صيت ولا اسم، ولا مركز ولا سُمعة، ولا أموال، ولا مقتنيات، ولا كيس ولا مزود، ولا حتى عصا للطريق، ولا ثوبين.. حقاً كانوا كحبة خردل، صغيرة، صغيرة فى كل شئ. ولكن هذه الحبة، إذ روتها دماء الشهداء، وعرق النسَّاك، ودموع التائبين، نمت بسرعة أذهلت العالم وصارت فروع أغصانها تظلل المسكونة، إذ تعهدتها يا واهب الحياة، إذ وضعت حياتك فيها واستودعتها روح الحياة، نبتت ونمت وأخرجت أغصانها.

ملكوتك يا إلهى، ليس بالقوة ولا بالقدرة، هو كخميرة صغيرة ولكن حية، هو قطيع صغير ولكن راعيه الحنون قائم يرعاه والآب سُرَّ أن يعطيه الملكوت.

لا أخاف إذا وجدت نفسى كحبة الخردل، صغير فى وسط العالم، أو فى وسط المجتمع، أو حتى فى وسط أهل بيتى.

إن الإنسان الأمين لإلهه يبدو كحبة خردل فى وسط بذور الشر المنتفخة والمتضخمة بالكذب. الشاب الطاهر يبدو كحبة خردل صغيرة فى وسط بذور النجاسة المنتشرة فى كل مكان. الشابة العفيفة تبدو كحبة الخردل الصغيرة فى مواجهة تيارات التسيب والانحلال.

اجعل روحك فى داخلى يطمئن قلبى.. إن سر الحياة فيك، فلا يستهين أحد بك، أنا قوى بحياة إلهى فيَّ، سر الدم الإلهى يسرى فى أعماقى، إنه سر الحياة التى لا تموت ولا يقوى عليها الموت.

لقد قلت لرسلك الأطهار، مشجعاً حياتهم فى الإيمان: «لَوْ كَانَ لَكُمْ إِيمَانٌ مِثْلُ حَبَّةِ خَرْدَل لَكُنْتُمْ تَقُولُونَ لِهذَا الْجَبَلِ: انْتَقِلْ... فَيَنْتَقِلُ».

إن حبة الخردل صلبة جداً، فى صغرها المتناهى. تحمل أيضاً صفات الإيمان الصلب الذى لا يلين، إيمان الأقباط نقل الجبل فعلاً، وهى معجزة لا ينساها الأقباط مهما مضى عليها من زمن، فهى حدثت فى أيام البابا أبرام بن زرعة، وحُكم المعز لدين الله الفاطمى، حدثت فى وضح النهار وقدام جماهير المصريين، انتقل الجبل وسار بقوة الإيمان، المشبَّه بحبة الخردل.. إيمان لم تنل منه التجارب ولا الاضطهادات، ولا شكوى عدو الخير.. بل زادته التجارب صلابة وقوة، وصقلته المحن والضيقات.. فهل تسند إيمانى بك وتوطد رجائى فيك.

ولكن هذه البذرة يا مخلصى، لابد أن تسقط فى الأرض وتموت، كقولك عن ذاتك وصليبك «إِنْ لَمْ تَقَعْ حَبَّةُ الْحِنْطَةِ فِي الأَرْضِ وَتَمُتْ فَهِيَ تَبْقَى وَحْدَهَا. وَلكِنْ إِنْ مَاتَتْ تَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ» (يو ١٢ : ٢٤).. هكذا قلته يا مخلصى الصالح عن موتك المحيى. لابد أن تعانى بذرة الملكوت فى القلب، ما تعانيه البذرة، حبة الخردل فى تراب الأرض، لابد أن تصارع حتى الموت فى مواجهة عوامل الفناء والموت والتحلل.. تموت لتنمو، تُدفن لتقوم، تتحلل لتصير أعظم.. تفنى فى باطن الأرض لترتفع إلى السماء.. سر عجيب!!

والسؤال الذى يتبادر إلى ذهنى، من أين هذه الفروع العظيمة، الكبيرة؟ من تلك البذرة المتناهية فى الصغر. من أين أتت الحياة المزهرة التى للقديسين حتى صاروا عظماء ممجدين فى كل العالم؟ من حبة الخردل الصغيرة فى القلب، من بذل الحياة والفناء من أجل ملكوت الله. فلما كمُل البذل وإنكار الذات وحمل الصليب، أخرجت شجرة الملكوت أغصانها وصارت تملأ الدنيا كلها. وصارت حبة الخردل سبب راحة وخلاص لطيور السماء، صارت مسكناً لألوف، وعشاً تضع فيها أفراخها للإكثار وملجأ من السيل والحر، ووطناً للغريب.

متى يُستعلن ملكوت الله، ينمو ممتداً حتى يُظلل على الكثيرين؟ إن حبة الخردل تبدو بلا فائدة وبلا قيمة حتى تتحول إلى شجرة عظيمة. أى لا تصير لذاتها أو قائمة بذاتها بل تصبح وتعيش للآخرين.

علِّمنى الخروج من ذاتى وإنكار ذاتى، بل وبذل ذاتى. هكذا سيظل ملكوتك يا إلهى محصوراً فىَّ إلى أن يُستعلن خادماً للآخرين، يأوى إليه طيور السماء..

– أغصان حب ورحمة تظلل الضعفاء.. أغصان اتضاع ومسكنة تحمل الأثمار. ومن ثقل الأثمار تراها متجهة إلى أسفل..

– أغصان قداسة تفيح رائحتها، تملأ المسكونة من رائحة المسيح الزكية..أغصان زيتون الروح الجدد المتجددين، محيطين بمائدة المذبح.

– أغصان خشبة الصليب، وحمل الصليب، وحب الصليب..

أتوسل إليك أن تصير حبة الخردل التى ألقيتها فى أرضى.. فى قلبى، واستودعتها سر حياتك الخاصة، فصارت كائنة من أقاصى المسكونة إلى أقصاها. وها أنا أطلب فى الصلاة أن تحفظها بسلام.

+ قلت يا سيدى عن حبة الحنطة «إِنْ لَمْ تَمُتْ فَهِيَ تَبْقَى وَحْدَهَا».. إن قشرتها الصغيرة تجدها فى حجمها الصغير، فلابد أن تنحل هذه القشرة، وتتكسر وتفنى فى تراب الأرض، لتعطى فرصة للجنين الحى ليشق طريقه، مثل قشرة البيضة محيطة بالفرخ الحى، لابد أن تتهشم ليخرج هو إلى الحياة. القشرة الخارجية هى الذات التى أحرص عليها، والمظهر الخارجى، وحياة إنسانى الخارجى، إنسان الجسد والتراب.

إنكار الذات والتفريط فيها، وجحد مشيئتها وصلب الجسد مع الأعضاء.. و«مِنْ أَجْلِكَ نُمَاتُ كُلَّ النَّهَارِ» (رو ٨ : ٣٦).. كل هذا تعبير عن خلع العتيق ليفسح مكاناً للجديد.

+ إن النمو والزيادة، هما قانون حياة الروح وملكوتك يا إلهى. فحبة الخردل، لا تبقى دوماً محجوزة داخل قشرتها الصغيرة، هذا مستحيل.. فما أن تبدأ رحلة نموها حتى تحطم كل مقاييس الصغر.

ملكوتك زيادة، لا تعرف النقصان، يفاجأ العالم بها وإذ هى شجرة كبيرة.. نمّينى فى النعمة، وفى معرفة ربى يسوع المسيح.. اجعلنى أنمو كل يوم، دع بذرة الملكوت تنمو داخل قلبى كل يوم.

+ الكنيسة هى ملكوتك يا إلهى على الأرض، وهى الملجأ والظل، ومكان الاحتماء «العُصْفورُ وجَدَ لهُ بَيْتاً واليَمامَةُ عُشّاً لِتضَعَ فيهِ أفْراخَها، مَذابِحكَ يا رَبُّ إلَه القُوّاتِ مَلِكى وإلَهى. طوبَى لِكلِّ السُّكانِ فى بَيْتِكَ» (مز ٨٣ أجبية).

الصليب صار كحبة الخردل، عندما زُرع فى الأرض، وارتوى بدم المسيح، صار شجرة أبدية، تحت ظله تشتهى النفوس أن تبيت وتستريح. وطيور السماء المُحلِّقة فى الروحيات لا تجد راحتها سوى فى الصليب يا إلهى.. كل من آوى إلى أغصان الصليب يكون قد دخل لكى يحتمى تحت جناحى المسيح.

والآن.. هل وصلت إلىَّ كلمة الملكوت؟ هل وجدت فى قلبى مكاناً تختبئ فيه؟ هل وجدت فيه رطوبة وليونة وسقى ماء الروح؟ هل وجدت أيضاً عمق أرض حتى تفسح لها مكاناً تعمل فيه جذورها لتتأصل؟

إن وجد كل هذا فكلمة الملكوت سوف يستعلن وجودها لا محالة. سوف تظهر أغصانها ويمتد الملكوت فىَّ وبى. ولكن أنا أعلم أن ساق النبات وأوراقه يظهر فى مرحلة أولى، بينما الأثمار هى آخر مراحله.

فأطلب إليك وأتوسل أن تتأصل فىَّ كلمة الملكوت، لكى أُثمر لك يا إلهى ومخلصى.

«وَقَالَ: هكَذَا مَلَكُوتُ اللهِ: كَأَنَّ إِنْسَانًا يُلْقِي الْبِذَارَ عَلَى الأَرْضِ، وَيَنَامُ وَيَقُومُ لَيْلاً وَنَهَارًا، وَالْبِذَارُ يَطْلُعُ وَيَنْمُو، وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ كَيْفَ، لأَنَّ الأَرْضَ مِنْ ذَاتِهَا تَأْتِي بِثَمَرٍ. أَوَّلاً نَبَاتًا، ثُمَّ سُنْبُلاً، ثُمَّ قَمْحًا مَلآنَ فِي السُّنْبُلِ. وَأَمَّا مَتَى أَدْرَكَ الثَّمَرَ، فَلِلْوَقْتِ يُرْسِلُ الْمِنْجَلَ لأَنَّ الْحَصَادَ قَدْ حَضَرَ» (مر ٤ : ٢٦ – ٢٩).

~~~~~~~~~~

بذار ملكوت الله يُلقيها الإنسان – يسوع المسيح – ، هو الزارع الزرع الجيد، فى الأرض – التى هى الإنسان المأخوذ من تراب الأرض – وإذ تضرب البذرة الحيَّة، بذرة الحياة الأبدية، جذورها فى قلب الإنسان وتتمكن منه، تنمو، وتنمو كل يوم إلى حياة أبدية.

هذا النمو هو استمرار الحياة بروح المسيح، روح القيامة، وهو نمو مضطرد وتجديد مستمر. ولكن ما يؤكد عليه الرب أن النمو يبدو واضحاً جلياً كل يوم، ولكن كيف ينمو النبات هذا ما لا يمكن أن تسجله بالملاحظة، أنت تنام وتقوم والنبات ينمو من يوم إلى يوم، إنه سر الحياة.

كثيرون حاولوا رصد نمو الملكوت الأبدى فى حياتهم فى القلب والعقل، ففشلوا وصاروا فى سَجس الضمير، أو وصلوا إلى عقلانيات وتأويلات فلسفية ليس لها شبع.

النمو هو عمل الروح، وامتداد الروح، وانتشار الملكوت «مَنْ عَرَفَ (قاس) فِكْرَ الرَّبِّ؟ أَوْ مَنْ صَارَ لَهُ مُشِيرًا؟» (رو ١١ : ٣٤)، ليس بالكيل، «وَلاَ بِالْقُدْرَةِ وَلاَ بِالْقُوَّةِ، بَلْ بِرُوحِي قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ» (زك ٤ : ٦).

الإيمان ينمو، والمحبة تنمو، وروح الصلاح وعمل مسرة الله ينمو، الاتضاع ينمو، والرجاء ينمو. كل فضيلة تنمو.

كيف ينمو ملكوت الله؟

أعط مكاناً، خبئ بذار الملكوت فى القلب فلا تخطفها طيور السماء، تعهدها بالسهر وسقى الروح. أما من جهة كمال النمو وبلوغ الثمر، فيحتاج الأمر إلى الصبر. للزرع وقت وللحصاد وقت. الزرع ينمو قليلاً قليلاً.. كقول الرسول: «انْمُوا فِي النِّعْمَةِ» (٢بط ٣ : ١٨)، وأيضاً «نَنْمُو فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَى ذَاكَ الَّذِي هُوَ الرَّأْسُ الْمَسِيحُ» (أف ٤ : ١٥)، وأيضاً تنمو «إِلَى قِيَاسِ قَامَةِ مِلْءِ الْمَسِيحِ» (أف ٤ : ١٣).
~~~~~~~~~~

لذلك نقول إن عدم النمو فى حياتنا فى المسيح ينذر بالخطر. قال المرنم: «لِكُلِّ كَمَال (تمام) رَأَيْتُ حَدًّا (منتهى)، أَمَّا وَصِيَّتُكَ فَوَاسِعَةٌ جِدًّا» (مز ١١٩ : ٩٦). فأنت تبدأ فى تنفيذ الوصية وتنمو وتنمو ولا نهاية للنمو لأنك قاصد الحياة الأبدية التى لا نهاية لها.

تبتدئ بعمل المحبة وتحيا فيها، تحب الرب إلهك وتحب قريبك وتدرب نفسك كل يوم وتنمو فى المحبة وممارستها الفائقة. وكلما تقدمت تحسب ذاتك أنك لم تبلغ بعد إلى الكمال فتسعى و«تَنْسَى مَا هُوَ وَرَاءُ وَتَمْتَدُّ إِلَى مَا هُوَ قُدَّامُ» (فى ٣ : ١٣). هكذا كل وصايا الرب وجميع الفضائل المسيحية. إنها زرع ملكوت الله فى القلب.. تنمو وتمتد تكبر وتُكثر.

+ الساعين فى الطريق لا يستعجلون الثمر.. سيحصل فى حينه كقول الرسول: «لاَ نَفْشَلْ فِي عَمَلِ الْخَيْرِ لأَنَّنَا سَنَحْصُدُ فِي وَقْتِهِ إِنْ كُنَّا لاَ نَكِلُّ» (غل ٦ : ٩).

نحتاج إلى صبر كثير حتى ينضج الإنسان من جهة معرفته بملكوت الله وإدراكه لمشيئة الله وتدبيره من جهة خلاصنا.

لذلك امتلأت سير الآباء القديسين بالصبر فى الجهادات والسهر والدموع وتكميل التوبة وأعمال النسك وكثرة الفضائل. وفى نهاية سيرتهم تكاثرت ثمار الملكوت كشهادة حية كقول الرب فى هذا المثل.

مثل وكيل الظـلم

«وَقَالَ أَيْضًا لِتَلاَمِيذِهِ: كَانَ إِنْسَانٌ غَنِيٌّ لَهُ وَكِيلٌ، فَوُشِيَ بِهِ إِلَيْهِ بِأَنَّهُ يُبَذِّرُ أَمْوَالَهُ. فَدَعَاهُ وَقَالَ لَهُ: مَا هذَا الَّذِي أَسْمَعُ عَنْكَ؟ أَعْطِ حِسَابَ وَكَالَتِكَ لأَنَّكَ لاَ تَقْدِرُ أَنْ تَكُونَ وَكِيلاً بَعْدُ. فَقَالَ الْوَكِيلُ فِي نَفْسِهِ: مَاذَا أَفْعَلُ؟ لأَنَّ سَيِّدِي يَأْخُذُ مِنِّي الْوَكَالَةَ. لَسْتُ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْقُبَ، وَأَسْتَحِي أَنْ أَسْتَعْطِيَ. قَدْ عَلِمْتُ مَاذَا أَفْعَلُ، حَتَّى إِذَا عُزِلْتُ عَنِ الْوَكَالَةِ يَقْبَلُونِي فِي بُيُوتِهِمْ. فَدَعَا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ مَدْيُونِي سَيِّدِهِ، وَقَالَ لِلأَوَّلِ: كَمْ عَلَيْكَ لِسَيِّدِي؟ فَقَالَ: مِئَةُ بَثِّ زَيْتٍ. فَقَالَ لَهُ: خُذْ صَكَّكَ وَاجْلِسْ عَاجِلاً وَاكْتُبْ خَمْسِينَ. ثُمَّ قَالَ لآخَرَ: وَأَنْتَ كَمْ عَلَيْكَ؟ فَقَالَ: مِئَةُ كُرِّ قَمْحٍ. فَقَالَ لَهُ: خُذْ صَكَّكَ وَاكْتُبْ ثَمَانِينَ. فَمَدَحَ السَّيِّدُ وَكِيلَ الظُّلْمِ إِذْ بِحِكْمَةٍ فَعَلَ، لأَنَّ أَبْنَاءَ هذَا الدَّهْرِ أَحْكَمُ مِنْ أَبْنَاءِ النُّورِ فِي جِيلِهِمْ» (لو ١٦ : ١ – ٨).

~~~~~~~~~~

يا إلهى الصالح، كُلَّىَ الخير، أنت إئتمنت عبدك ووكلته على أموالك، بل جعلت الإنسان وكيلاً على الخليقة كلها. وأخضعت كل شئ تحت قدميه.

فصار الإنسان بنعمتك وكيلاً لله.. لأنك يا مخلصى جبلتنى على مثالك وكتبت فىَّ صورة سلطانك.

فصار لى بك سلطان.. هو فى الواقع سلطانك أنت مالك الكل والمُنعم على الكل. وقد قسَّمت بحسب حكمتك وتدبيرك الإلهى لكل واحد ممن وكلتهم، حدود ما قسمته له، ليكون وكيلاً عليه.

فهل يا مخلصى تصرّفت (أنا) كما يُرضى ربوبيتك وصلاحك؟

وهل كنت أميناً كوكيل لك؟ لأنه «يُسْأَلُ فِي الْوُكَلاَءِ لِكَيْ يُوجَدَ الإِنْسَانُ (أن يكون الوكيل) أَمِينًا» (١كو ٤ : ٢).

الأمانة يا مخلصى هى الصفة الرئيسية التى يجب أن تتوفر فيمن يُختار للوكالة.. وبالأكثر إن كانت وكالة أسرارك الإلهية.

ألم يضع الروح بفم عبدك بولس شروطاً، هذا عددها للكاهن كم يجب أن يكون كوكيل لله؟ إن كان فى الإيمان، أو طهارة السيرة، أو الحلم، أو عدم محبة المال، أو البعد عن العنف، أو «أَنْ تَكُونَ لَهُ شَهَادَةٌ حَسَنَةٌ مِنَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَارِجٍ» (١تى ٣ : ١ – ٧).

هكذا يكون الوكيل المختار للوكالة لكى يؤتمن على خدمة قطيعك.. إنى أرتعب حين أتفكر فى جسامة الوكالة التى ائتمنت عليها كهنتك وخدامك!!
~~~~~~~~~~

صار جسدك فى يد الكاهن كل يوم.. هو مؤتمن أن يوزعه لمن يكون له استحقاق!! وهذا يُرعبنى يا سيدى، إن كان الأمر معى يسير على غير ذلك من عدم التدقيق أو عدم التمييز.

وهل يستحق إنسان كائناً من كان أن يصير على هذه الوكالة.. لقد وكَّلت الكهنة على غفران الخطايا وقبول اعتراف الخطاة، لكى يغفروا الخطايا على الأرض وأنت بفمك الإلهى قلت: «مَنْ غَفَرْتُمْ خَطَايَاهُ تُغْفَرُ لَهُ، وَمَنْ أَمْسَكْتُمْ خَطَايَاهُ أُمْسِكَتْ» (يو ٢٠ : ٢٣).

«كَانَ إِنْسَانٌ غَنِيٌّ وَكَانَ يَلْبَسُ الأَرْجُوانَ وَالْبَزَّ وَهُوَ يَتَنَعَّمُ كُلَّ يَوْمٍ مُتَرَفِّهًا. وَكَانَ مِسْكِينٌ اسْمُهُ لِعَازَرُ، الَّذِي طُرِحَ عِنْدَ بَابِهِ مَضْرُوبًا بِالْقُرُوحِ... » (لو ١٦ : ٢٠ – ٣١).

~~~~~~~~~

المثل صارخ بالمفارقات العجيبة سواء على الأرض أم فى السماء،

ففى الأرض شتان بين ذاك الذى عاش فى الجسد وللجسد ومسرات الجسد وغِنى المأكل والملبس، وما يتبع الغِنى من غرور وخطايا ونسيان تام للروح أو حاجات الروح، ونسيان كامل لحقيقة أن الحياة على الأرض لا تدوم وأن الأيام سريعاً ما تمر ويأتى الإنسان إلى النهاية المحتومة.

وبين الآخر، الفقير البائس المطروح عند الباب، بلا طعام ولا لباس، وجسده مضروب بالقروح، وليس له إنسان يُضمِّد جراحات الجسد أو النفس. وقد صار عادماً لكل شئ حتى ضروريات الجسد.

والمفارقة فى السماء أكثر وأشد: فالحياة فى الأحضان الأبوية حيث النعيم الدائم والفرح الذى لا يشوبه كدر. لا ألم ولا حزن ولا بكاء ولا تذكار للشر، بل تنعم وشبع أبدى بالرب ومجد لا يوصف. ولا توجد كلمات تُعبِّر عن الغبطة فى ذلك النعيم الدائم.

وعلى العكس فى مكان العذاب، حيث وجع القلب وعذاب الضمير وحيث «النَّارِ الَّتِي لاَ تُطْفَأُ والدُودُ الذى لاَ يَمُوتُ... هُنَاكَ يَكُونُ الْبُكَاءُ وَصَرِيرُ الأَسْنَانِ» (مر ٩ : ٤٤، لو ١٣ : ٢٨).

+ يا سيدى الرب.. أغنينى بغِنى كلمتك لأنها تُنير فى داخلى الطريق إلى الحياة الأبدية، وتكشف لى غوامض كثيرة فما يختص بحياتى الأبدية وميراثى فى السماء وحضن إبراهيم.. اجعلنى فى هذه أتفكر يا سيدى. وما كتبه الروح بموسى والأنبياء، اجعله فى داخلى يُهدينى إلى طريق الاستقامة. وبالأكثر كثيراً جداً ما عملته أنت يا إله موسى والأنبياء من جهة خلاص الأبرار، ومن جهة المساكين الذين سيُحرمون من مجد ملكوتك وراحتك.

لذلك أتوسل إليك يا سيدى أن تجعل كلماتك فى هذا المثل تقودنى لمزيد من النور الذى يرشدنى للحياة التى ترضيك فأبتعد عن كل ما يُفسد علىَّ الحياة فيك ومعك وبك.
~~~~~~~~~

أنت يا سيدى جعلت الحياتين أمام عينىَّ.. حياة الغِنى والترف ولبس الحرير وكل ما يختص بتدليل الجسد وراحته، ومن ناحية أخرى حياة المسكين المُعدم، صاحب الجسد المضروب بالقروح والمُلقى عادماً كل شئ وفى حالة العوز المُضنى والجوع والفاقة حتى ملء البطن من الفتات.

وعندما تنتهى أيام الأرض، وهى لابد أن تنتهى بهذا أو ذاك، فماذا يكون المصير يا سيدى؟ لقد استوفى الغنى خيراته على الأرض فلم يتبقَّ له خير ولا عزاء بعد. لقد طاب له عزاء الأرض والجسد فأسلم نفسه لمطالب الأرض وأفنى أيامه كلها فى الجسد. وانتهى به الجسد إلى التراب وأحدرته شهوات الجسد إلى الجحيم. قال إبراهيم خليلك عندما ناداه الغنى «يَا أَبِي إِبْرَاهِيمَ... فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ...اذْكُرْ أَنَّكَ اسْتَوْفَيْتَ خَيْرَاتِكَ فِي حَيَاتِكَ».. لقد طلبت راحة الأرض وفقط، فماذا لك بالراحة الأبدية؟! لقد كرهت أن تتعب فى الأرض، فها أنت تتعب فى السماء.. لقد كرهت الدموع على الأرض وسلَّمت نفسك للضحك والملذات، فها أنت تبكى حيث لا ينفع البكاء.

+ يا سيدى اِكشف عينىَّ فأرى قصدك الإلهى لأن كلامك يُنير الخفايا ويكشف الأسرار.. ماذا تقصد يا رب وماذا تريد أن تعلِّمنى فأتعلم؟

الغنى اللابس الأرجوان والبز وهو يتنعم كل يوم مترفهاً، هذه كانت حياته وكل سيرته.. اِنحصر فى الغِنى والترف والتنعم، ولبس الحرير والأكل والشرب.. كانت هذه هى سيرته.

دائرة مغلقة تدور حول الجسد وملذات الجسد ومسرات الدنيا. ولم تقُل يا سيدى ما يتبع هذه الحياة الجسدية من خطايا وانحراف لأن ما هو ثمر الجسد يا سيدى؟ أليس هذا هو قول رسولك: «لأَنَّهُ إِنْ عِشْتُمْ حَسَبَ الْجَسَدِ فَسَتَمُوتُونَ، وَلكِنْ إِنْ كُنْتُمْ بِالرُّوحِ تُمِيتُونَ أَعْمَالَ الْجَسَدِ فَسَتَحْيَوْنَ» (رو ٨ : ١٣).

يا حُزنى يا سيدى.. فإن الانحصار فى الجسد والحياة به وفيه وحده قد صارت حياة كثيرين جداً.. كل الفكر وكل القلب والاهتمام صار للجسد. فأين مكانك أنت يا سيدى من الحياة؟!

+ أشكرك يا مخلصى الصالح لأنك أنرت أمامى الطريق بكلامك الحى المحيى ولأنك علَّمت عبدك وكشفت عينىَّ لأتبصر فى حياتى الأبدية. قلت يا سيدى عن الغنىّ إنه «اسْتَوْفَيْ خَيْرَاتُه فِي حَيَاتُه».. أنا أعلم يا سيدى أن الغِنى فى ذاته من أموال وأملاك ومقتنيات ليس خطية ، هذه نِعم تُغدقها بحسب مسرتك، إنما العيب يوجد فى انحراف الإرادة واِنغماس الإنسان فى مسرات وشهوات الجسد.

+ من جهة موت الجسد فهو أمر محقق، فأى إنسان يحيا ولا يرى الموت؟ فإن كان غنياً أو فقيراً فعند الموت يتساوى كلاهما.

فالغنى مات ودُفن.. ولعازر مات وحملته الملائكة.. الغنى رفع عينيه وإذا هو مُعذَّب فى الجحيم.. ولعازر فتح عينيه وإذا هو يتنعم فى أحضان إبراهيم.

فالفرق واضح يا سيدى ولا وجه للمقارنة.. من جهة الخارج فتمييز الغنى عن الفقير المُعدم واضح، ومن جهة الداخل الذى لا يُرى، فالفرق بينهما كان أكثر مما يتصوره الإنسان. لقد فصلهما الغِنى فى الأرض وفرَّق بينهما، أما فى الروح فمصير أبدى مختلف صارا فيه على طرفى نقيض.

مَثَـل عُرس ابن الملك

«وَجَعَلَ يَسُوعُ يُكَلِّمُهُمْ أَيْضًا بِأَمْثَالٍ قَائِلًا: يُشْبِهُ مَلَكُوتُ ٱلسَّمَاوَاتِ إِنْسَانًا مَلِكًا صَنَعَ عُرْسًا لِٱبْنِهِ، وَأَرْسَلَ عَبِيدَهُ لِيَدْعُوا ٱلْمَدْعُوِّينَ إِلَى ٱلْعُرْسِ، فَلَمْ يُرِيدُوا أَنْ يَأْتُوا. فَأَرْسَلَ أَيْضًا عَبِيدًا آخَرِينَ قَائِلًا: قُولُوا لِلْمَدْعُوِّينَ: هُوَذَا غَدَائِي أَعْدَدْتُهُ. ثِيرَانِي وَمُسَمَّنَاتِي قَدْ ذُبِحَتْ، وَكُلُّ شَيْءٍ مُعَدٌّ. تَعَالَوْا إِلَى ٱلْعُرْسِ! وَلَكِنَّهُمْ تَهَاوَنُوا وَمَضَوْا، وَاحِدٌ إِلَى حَقْلِهِ، وَآخَرُ إِلَى تِجَارَتِهِ، وَٱلْبَاقُونَ أَمْسَكُوا عَبِيدَهُ وَشَتَمُوهُمْ وَقَتَلُوهُمْ. فَلَمَّا سَمِعَ ٱلْمَلِكُ غَضِبَ، وَأَرْسَلَ جُنُودَهُ وَأَهْلَكَ أُولَئِكَ ٱلْقَاتِلِينَ وَأَحْرَقَ مَدِينَتَهُمْ. ثُمَّ قَالَ لِعَبِيدِهِ: أَمَّا ٱلْعُرْسُ فَمُسْتَعَدٌّ، وَأَمَّا ٱلْمَدْعُوُّونَ فَلَمْ يَكُونُوا مُسْتَحِقِّينَ. فَٱذْهَبُوا إِلَى مَفَارِقِ ٱلطُّرُقِ، وَكُلُّ مَنْ وَجَدْتُمُوهُ فَٱدْعُوهُ إِلَى ٱلْعُرْسِ. فَخَرَجَ أُولَئِكَ ٱلْعَبِيدُ إِلَى ٱلطُّرُقِ، وَجَمَعُوا كُلَّ ٱلَّذِينَ وَجَدُوهُمْ أَشْرَارًا وَصَالِحِينَ. فَٱمْتَلَأَ ٱلْعُرْسُ مِنَ ٱلْمُتَّكِئِينَ. فَلَمَّا دَخَلَ ٱلْمَلِكُ لِيَنْظُرَ ٱلْمُتَّكِئِينَ، رَأَى هُنَاكَ إِنْسَانًا لَمْ يَكُنْ لَابِسًا لِبَاسَ ٱلْعُرْسِ. فَقَالَ لَهُ: يا صَاحِبُ، كَيْفَ دَخَلْتَ إِلَى هُنَا وَلَيْسَ عَلَيْكَ لِبَاسُ ٱلْعُرْسِ؟ فَسَكَتَ. حِينَئِذٍ قَالَ ٱلْمَلِكُ لِلْخُدَّامِ: ٱرْبُطُوا رِجْلَيْهِ وَيَدَيْهِ، وَخُذُوهُ وَٱطْرَحُوهُ فِي ٱلظُّلْمَةِ ٱلْخَارِجِيَّةِ. هُنَاكَ يَكُونُ ٱلْبُكَاءُ وَصَرِيرُ ٱلْأَسْنَانِ. لِأَنَّ كَثِيرِينَ يُدْعَوْنَ وَقَلِيلِينَ يُنْتَخَبُونَ» (مت ٢٢ : ١ – ١٤).

~~~~~~~~~

ملكوتك يا إلهى الذى أعددته لمختاريك ودعوت إليه أحباءك، هو عُرس حقيقى وفرح لا يُنطق به. هو حفل أبدى، حيث العريس الحقيقى هو ابن الآب، بالحق والمحبة.. حين تزف عروسك الحقيقية التى اقتنيتها لنفسك وبذلت ذاتك لأجلها.. أورشليم السمائية كما رآها عبدك يوحنا «نَازِلَةً مِنَ السَّمَاءِ مُهَيَّأَةً كَعَرُوسٍ مُزَيَّنَةٍ لِرَجُلِهَا (للعريس السماوى)» (رؤ ٢١ : ٢).

ما أبهاه من فرح.. ما لا يخطر على بال الناس.. فرح لا يُعبَّر عنه بلغة بشرية.

أنت قدست كل شئ، وهيأت الكل قبل كون العالم لنعيم أولادك وشركة الحياة الأبدية.. وأرسلت عبيدك الأنبياء ينادون المدعوين كى يلبّوا دعوة حبك يا سيدى.

يا حسرتى، حينما أسمع أن البعض توانى عن الدعوة التى دُعى إليها، يجوز فى نفسى شعور بالأسى كلما أتذكر التوانى والكسل والإهمال وعدم المبالاة بدعوة حبك وشركة أسرار فرحك.

ماذا كان يدور فى خُلدى فى تلك الأوقات؟.. أهو عدم إدراك حقيقى للدعوة؟..أم هو انشغال بالباطل؟.. أم هى أعذار واهية بلا مبرر؟.. أم هى طبيعتى الترابية متمسكة بالأرضيات غير ناظرة إلى فوق؟!!
~~~~~~~~~

حين أفكر فيمن اعتذر بأنه اشترى بقراً، وهو ماض ليمتحنها بعد أن اشتراها، أو من ارتبط بزواج جسدانى فكبَّله برباط الجسد، لا يقدر أن يتحلل منه أو يتحرك إلى السماويات، إلى فوق.

كلما جال بخاطرى هؤلاء وأولئك أرجع إلى نفسى الشقية التى كثيراً ما كان هذا هو حالها.. الآن يا سيدى كلمات هذا المثل توقظ ضميرى وتعيد إلى سمعى نداء قديسيك "هلموا إلى العرس".

نعم يا سيدى.. «الرُّوحُ وَالْعَرُوسُ (الكنيسة) يَقُولاَنِ: تَعَالَ» (رؤ ٢٢ : ١٧).. أحضانك فتحتها على الصليب للقبول بالمحبة الأبدية.. من يدخل إليك يدخل إلى الفرح الأبدى.. صليبك هو ذبيحة الحب، والعشاء فى السماء هو «عَشَاءِ الْخَرُوفِ القَائِمٌ كَأَنَّهُ مَذْبُوحٌ... لأَنَّكَ ذُبِحْتَ وَاشْتَرَيْتَنَا للهِ» أبيك وأقمتنا فيك (رؤ ٥ : ٦، ٩ و ١٩ : ٩).

أتوسل إليك يا سيدى.. ألا تحرم نفسى من دسم مائدة فرحك التى أخذت عربونها هنا على الأرض باشتراكى فى ذبيحة القداس إلى أن يكمل الفرح بالدخول الحقيقى إلى السماويات عينها.

+ لا يعرف هذا الفرح إلا الذى يدخل إليه يا سيدى، حين يسمع صوتك الإلهى يقول له شخصياً: «اُدْخُلْ إِلَى فَرَحِ سَيِّدِكَ» (مت ٢٥ : ٢٣).

أدخلنى إلى الفرح، وعزِّى نفسى فى غربة هذا العالم التى يشوبها الكدر دائماً.. أدخلنى إلى داخل ولا تطرحنى خارجاً.. أدخلنى كدخول العذارى إلى الخدر السمائى حيث عريس نفسى.

خارجاً ظلمة ومرارة نفس.. بكاء وصرير أسنان..

دعنى أحتمى فيك يا سيدى.. وحين تضمنى ذراعيك أكون داخل الفرح الحقيقى وأمان وسلام النفس.

+ الذين حرموا أنفسهم من حبك، وفرح بيتك، بانحراف إرادتهم، كمن رفضوك ملكاً عليهم. وأهانوا رسلك واحتقروا كلمات دعوة حبك.. هؤلاء قال الملك إنهم غير مستحقين ولا مستأهلين للكرامة.. فأحرق مدينتهم وحكم عليهم بحسب عدله أنهم لا يذوقون عشاءه ولا يرون مجد الفرح بل صار نصيبهم فى الخزى، إذ جلبوه على أنفسهم جزاء انحراف إرادتهم.

+ أما العرس فمُعدّ وأما المدعوين فلم يكونوا مستحقين.. والآن ماذا يا سيدى.. إن قلبى وعقلى يتوه حين أسمع أمرك لعبيدك أن ينادوا مناداة الكرم الإلهى للذين فى الطرقات عابرى السبيل، بل وللذين قضوا العمر عند الأسوار (السياجات)، كمن ليس لهم أحد يذكرهم أو يعتبرهم.. هؤلاء وأولئك لم يكن لهم اعتبار، ولا اسم، ولا مركز، ولاشكل ولا قيمة.. وأين هم من دعوة ملك الملوك وحفل عرس ابنه الحبيب؟

هؤلاء المساكين انفتحت أمامهم أبواب السماء فجأة وبلا مقدمات، وبلغتهم البشارة المفرحة الفائقة للعقل.. هلموا إلى العرس.

إن عبدك المسكين يا سيدى، هو أحد هؤلاء.. الدعوة لا يصدقها العقل.. أنا! أنا مدعو إلى العرس السمائى؟ هل هذا يُصدّق؟!

نعم يا سيدى الرب، أنا أعرف أن وعودك هى بلا ندامة.. اِجعل فى قلبى وعقلى ثقة فى كلمتك وصدق لمواعيدك ودعوتك.. أنا فعلاً بنعمتك مدعو إلى العرس الأبدى.. أنا غير مستحق ولا مستأهل.. من أنا حتى أجلس إلى مائدة الملك؟!.. عندما تغمرنى بلطفك ولُجج حبك تتدفق بسخاء النعم العجيبة، أشعر بحقارة نفسى بالأكثر.

يا سيدى الرب.. إذا دُعى إنسان من عامة الشعب إلى مجالسة ملك أرضى أو رئيس من رؤساء العالم، فإن الدنيا كلها تتحدث عن هذا الأمر الفائق.. فكم إذا دُعى «الْمَسَاكِينَ، الْجُدْعَ، الْعُرْجَ، الْعُمْيَ» (لو ١٤ : ١٣) بحسب مقياس الروح. والمعتبرون أنهم عادمو كل خير وكل صلاح.. أخطى الخطاة.. يُدعَوْن إلى ميراثك الأبدى وفرح عرس السماء؟

ثبِّت دعوتك وسمِّرها فى أعماقى لكى أسلك بحسب دعوتك، إلى أن أبلغ أعتاب السماء يا سيدى الرب.

+ قلت يا مخلصى إن الملك لما دخل وجد «إِنْسَانًا لَمْ يَكُنْ لَابِسًا لِبَاسَ ٱلْعُرْسِ. فَقَالَ لَهُ: يا صَاحِبُ، كَيْفَ دَخَلْتَ إِلَى هُنَا وَلَيْسَ عَلَيْكَ لِبَاسُ ٱلْعُرْسِ؟».. فناله ما ناله من خزى، وطرحه الخدام خارجاً.

أنا أعلم يا مخلصى أن كَوْن دعوتك إلى العرس هى نعمة مجانية، ولكنها ليست رخيصة، هى تُعطى مجاناً لأن لا أحد يستطيع أن يشتريها «بِفِضَّةٍ أَوْ ذَهَبٍ، مِنْ سِيرَتِكُمُ (سيرة الناس) الْبَاطِلَةِ» (١بط ١ : ١٨).

دمك الغالى، هو الذى اقتنى لى الملكوت.. وصليبك المحيى، هو الدعوة بعينها.. فمن دُعى إلى عرسك الأبدى واستحق هذا النصيب الصالح لابد أن يسلك بحسب قانون بيتك وعرس مجدك وما يليق.. لأنه «بِبَيْتِكَ تَلِيقُ الْقَدَاسَةُ» (مز ٩٣ : ٥).. كيف «يَرِثُ الْفَسَادُ (الفاسد) عَدَمَ الْفَسَادِ» (١كو ١٥ : ٥٠)؟ وكيف يدخل اللباس البالى القديم إلى حفل عرس ابن الله؟.

الحلة الأولى، حلة الفرح ألبستها لى يا مخلصى بيديك يوم معموديتى.. هذا هو الثوب الناصع البياض المغسول فى دم الخروف.

+ مسكين هذا الذى أبقى على اللباس البالى والطبيعة الساقطة مع أعمالها، وعاش بحسب شهوات الجسد ونجاسات الطبيعة وظن أنه يبقى فى العرس. ومسكين من تمسك بذاته وإرادته الخاصة وعمل مشيئته دون مشيئة الله. وسلك برأيه دون وصايا مخلصه. وظن أنه وارث الملكوت ومدعو للوجود فى العرس الأبدى.

يا سيدى الرب.. عرِّينى من العتيق وألبسنى حلة الخلاص كل يوم.. يا رب دعنى أخضع خضوعاً كلياً لكل وصية وكل ترتيب توعز به إلىَّ كنيستك وخدام بيتك والداعين إلى عرس مجدك.. فأطيع وأستلهم كل ما هو لائق ونافع لخلاص نفسى.

يا سيدى.. اجعلنى أعتبر أن من لا يوجد فى كمال هيئة المستحقين للعرس يُطرد خارجاً.. يا إلهى أنا أرى فى كنيستك عربون العرس السماوى.. فهى الفرح والمسرة الروحية والشبع من دسم بيتك.. لذلك فالتناول من جسدك ودمك الأقدسين هما الغاية التى ترنو إليها نفسى.. وأن أسلك بحسب ما تعلمنى الكنيسة، ويؤهلنى للتناول من ذبيحة العرس، لا أسلك بحسب هواى أو أصنع ما استحسنه أنا بل بحسب قانون الكنيسة وترتيب الآباء معلمى البيعة أخضع وأسير.

+ علمنى أن أحترم بكل قلبى وأُخضع نفسى للتدبير الإلهى، إن كان فى صوم أو صلاة أو طقس أو عيد أو لحن، أو كل مايختص بنظام بيعتك. لا أنسى يا سيدى ما نال عُزَّة أحد أبطال داود حين أقحم نفسه فى عمل ما لا يخصه، إذ حاول أن يلمس تابوت العهد الأمر الذى كان موكلاً لبنى لاوى فقط (٢صم ٦ : ١ – ٩). وهذا يعلمنى أنه يجب أن أسلك بحسب التدبير لا بسبب رأيي الشخصى أو ما أراه أو ما يعجبنى مستهيناً بالتدبير.

بكل تأكيد يا مخلصى، فإن هذا الشخص الذى لم يلبس لباس العرس كان يسلك بذاته. ويُخيَّل إلىَّ أن خدامك وحرَّاس أسرارك والداعين كل أحد إلى العرس.. يُخيَّل إلىَّ أنهم قالوا له إنه يجب عليه أن يخلع ثيابه ويلبس ثياب العرس.. ويُخيَّل إلىَّ يا مخلصى إنهم نبهوه مراراً ونصحوه كثيراً، ولكنه لم يأبه للنصائح ولا خضع لما قيل له.. بل ألقى الكلام خلفه ولم يعط أذناً صاغية ولا أذعن لوصية، بل أصرَّ على أن يسير على هواه ويعمل ما بدا له..

فاصنع مع عبدك رحمة وجنبنى هذا السلوك المشين.. واجعلنى أتمسك بثياب العرس وأحفظها، بل إذا حدث بسبب إهمالى وكسلى وعدم حرصى، أن اِتسخت الثياب أو أصابها تلف بسبب ميلى إلى العالم وما فيه، فأعط عبدك توبة صادقة ورجوع من القلب لكى أغسل ثيابى مجدداً مراراً وتكراراً وأبيّضها فى ينبوع دم الصليب، فتبدو جديدة لائقة بلا دنس ولا عيب..

وإن أحسست أننى فقدت ثيابى وصرت فى خزى العرى فاسمعنى صوتك القائل: «أُشِيرُ عَلَيْكَ أَنْ تَشْتَرِيَ مِنِّي ذَهَبًا مُصَفًّى بِالنَّارِ لِكَيْ تَسْتَغْنِيَ، وَثِيَابًا بِيضًا لِكَيْ تَلْبَسَ، فَلاَ يَظْهَرُ خِزْيُ عُرْيَتِكَ. وَكَحِّلْ عَيْنَيْكَ بِكُحْل لِكَيْ تُبْصِرَ» (رؤ ٣ : ١٨).. فأسعى أن أقتنى لى عمراً نقياً بالتوبة وأستتر بسترك، يا من سترت عراء أبونا آدم فى الفردوس.

اِحسبنى أهلاً للوقوف أمامك بلا خجل، وإن لم أكن مستحقاً لشئ كعبد كسلان، ولكن اجعلنى احتمى فيك واستتر بسترك واِجعل باب بيتك مفتوحاً أمامى ودعوتك للعرس قائمة فى وعيى مُتجددة كل يوم، فأسلك بحسب الدعوة التى دُعيت إليها. ولا أخيب من البلوغ إلى ملكوتك أنا وكل أخوتى أعضاء جسدك المدعوين إلى وليمتك الأبدية. آمين.

مهمة رئيس الملائكة ميخائيل

قيل فى سفر التثنية إن الرب دفن موسى فى الجواء (الوادى) بعد أن أراه أرض الموعد من بعيد ولم يعرف أحد قبر موسى إلى هذا اليوم (تث ٣٤ : ٦).. فقد أخفى الله جسد موسى بحسب تدبيره الخاص.

ولكن ذكر القديس يهوذا الرسول فى رسالته أن رئيس جند الرب ميخائيل «خَاصَمَ إِبْلِيسَ مُحَاجًّا عَنْ جَسَدِ مُوسَى، لَمْ يَجْسُرْ أَنْ يُورِدَ حُكْمَ افْتِرَاءٍ، بَلْ قَالَ لِيَنْتَهِرْكَ الرَّبُّ».

وواضح من ذلك أن الشيطان أراد أن يعمل ضلالة عظيمة ضد تدبير الله لأنه هو مقاوم وعدو كل خير. أراد أن يُظهر جسد موسى ويحوّل قلب شعب إسرائيل عن عبادة الله، وطاعته، ليتعلقوا بجسد موسى كنوع من عبادة البشر، إذ كان موسى عندهم هو كل رجائهم.

فلما ظهرت نية إبليس محاولاً أن يخرج جسد موسى من مكان دفنه المخفى عن عيون البشر، أوعز الله إلى ميخائيل رئيس جند الرب أن يوقف الشيطان ويتصدى له. ولما كان إبليس رئيس سلطان الهواء، الروح الذى يعمل فى أبناء المعصية – هو قوة هائلة وروح ظلمة مريع – وله قدرات فائقة إذ كان رئيساً للملائكة وأوصافه التى وصفها به الأنبياء تُنبئ عن ذلك، إذ يقول عنه إشعياء: «كَيْفَ سَقَطْتِ مِنَ السَّمَاءِ يَا زُهَرَةُ، بِنْتَ الصُّبْحِ؟» (١٤ : ١٢). وقال عنه حزقيال: «أَنْتَ خَاتِمُ الْكَمَالِ، مَلآنٌ حِكْمَةً وَكَامِلُ الْجَمَالِ... أَنْتَ الْكَرُوبُ الْمُنْبَسِطُ الْمُظَلِّلُ، وَأَقَمْتُكَ. عَلَى جَبَلِ اللهِ الْمُقَدَّسِ كُنْتَ. بَيْنَ حِجَارَةِ النَّارِ تَمَشَّيْتَ. أَنْتَ كَامِلٌ فِي طُرُقِكَ مِنْ يَوْمَ خُلِقْتَ حَتَّى وُجِدَ فِيكَ إِثْمٌ» (٢٨ : ١٢، ١٤، ١٥).

على هذا كانت مهمة رئيس الملائكة ميخائيل فى التصدى لإبليس مهمة غاية فى الصعوبة، توصف بأنها حرب فى السماء.

ميخائيل كاسمه "من مثل الله" يستمد قوته من خضوعه لله. بينما إبليس أو الشيطان هو كروح ظلمة مضاد لطبيعة الله الذى هو النور والساكن فى النور الذى لا يُدنى منه.

+ «بَارِكُوا الرَّبَّ يَا جَمِيعَ مَلاَئِكَتَهُ الْمُقْتَدِرِينَ قُوَّةً، الْفَاعِلِينَ أَمْرَهُ ، الْعَامِلِينَ مَرْضَاتَهُ» (مز ١٠٣ : ٢٠ ، ٢١).

+ «الصَّانِعُ مَلاَئِكَتَهُ رِيَاحًا وَخُدَّامَهُ لَهِيبَ نَارٍ» (عب ١ : ٧).

لذلك فإننا ندرك أن ميخائيل تصدى لقوة الظلمة الهائلة، أى لإبليس وجنوده ليوقف عمله ويبطل مشورته. وهذا ما عبَّر عنه سفر الرؤيا بقوله: «حَدَثَتْ حَرْبٌ فِي السَّمَاءِ: مِيخَائِيلُ وَمَلاَئِكَتُهُ حَارَبُوا التِّنِّينَ، وَحَارَبَ التِّنِّينُ وَمَلاَئِكَتُهُ» (رؤ ١٢ : ٧).

وقد كانت مهمة رئيس الملائكة ميخائيل هكذا مهمة خطيرة وصعبة جداً. ولم يستطع إبليس أن ينفذ إرادته الشريرة، بل توقف عن تقدمه بسبب قوة ميخائيل وتصديه الحاسم. ويمكننا أن نتخيل هذه المواجهة الصعبة عندما نتذكر أن ملاكاً واحداً قتل «مِئَةَ أَلْفٍ وَخَمْسَةً وَثَمَانِينَ أَلْفًا مِنْ جَيْشِ سَنْحَارِيبُ» (٢مل ١٩ : ٣٥) المحاصر لأورشليم فى أيام حزقيا الملك.

فما بالك برئيس الملائكة !!؟

وقول رئيس الملائكة ميخائيل وصرخته فى الشيطان «لِيَنْتَهِرْكَ الرَّبُّ» فيه لنا قدوة وسر به كيف نواجه هذا العدو، إذ نلتجئ إلى اسم الرب.. ولاسيما بعد أن نلنا نعمة البنوة وأخذنا من المسيح الإله قوة وسلطاناً على الأرواح النجسة، حتى طردها وإخراجها وغلبتها بقوة الروح القدس المعطى لنا، لأن الرب قال: «أَنَا بِرُوحِ اللهِ أُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ» (مت ١٢ : ٢٨) وقال الرسول يعقوب: «قَاوِمُوا إِبْلِيسَ فَيَهْرُبَ مِنْكُمْ» (يع ٤ : ٧) وقال الرسول بطرس أيضاً: «قَاوِمُوهُ، رَاسِخِينَ فِي الإِيمَانِ» (١بط ٥ : ٩). وقال الرب أيضاً: «هَا أَنَا أُعْطِيكُمْ سُلْطَانًا لِتَدُوسُوا الْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبَ وَكُلَّ قُوَّةِ الْعَدُوِّ» (لو ١٠ : ١٩).

فليكن فى فمنا قول رئيس الملائكة «لِيَنْتَهِرْكَ الرَّبُّ». نقوله الليل والنهار فى كل ما يقابلنا من حروب أو معاكسات أو فخاخ أو مضايقات أو هجمات العدو. وكان عوام (عامة) المؤمنين يقولون: "ربنا يخزيك يا شيطان". وكانوا يؤمنون إنه بمجرد رشم علامة الصليب يهرب الشيطان ويصيبه الخزى، لأن الرب يسوع سحق الشيطان بالصليب.

ثم بعد ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة لما تجسد ابن الله وظهر فى الهيئة كإنسان من أجل خلاص العالم. وصُلب على الصليب حاملاً خطية العالم كله. وأسلم الروح فى يدى الآب. طار صواب عدو الخير لما اكتشف أن الذى وُلد فى مذود وصار فى الهيئة كإنسان وصار مُجرَّباً فى كل شئ وتعب وبكى ونام.. إلى آخر هذه الأمور، واحتمل الآلام ومات.. لم يكن سوى الأقنوم الكلمة الذى فى ذات الله والواحد مع أبيه فى الربوبية.

وعندما نزل بلاهوته المتحد بالنفس البشرية إلى الجحيم وسبى سبياً وخلص آدم وبنيه من سجن الأرواح أى قبضة إبليس. أسرع إبليس فى جنونه الشيطانى ليعمل ضلالته العظمى إذ أدرك أن المسيح لا يمكن أن يُمسكه الموت بل هو سيقوم حتماً كما قال لأنه هو هو القيامة والحياة. فراح يعمل فى فكر

رؤساء كهنة اليهود لكى بكل وسيلة يخفى القيامة فأسرعوا إلى بيلاطس لكى يضبطوا قبر المخلص بأختام وعساكر. وقالوا عن الرب: «أَنَّ ذلِكَ الْمُضِلَّ قَالَ وَهُوَ حَيٌّ: إِنِّي بَعْدَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ أَقُومُ... لِئَلاَّ يَأْتِيَ تَلاَمِيذُهُ لَيْلاً وَيَسْرِقُوهُ، وَيَقُولُوا لِلشَّعْبِ: إِنَّهُ قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ، فَتَكُونَ الضَّلاَلَةُ الأَخِيرَةُ أَشَرَّ مِنَ الأُولَى» (مت ٢٧ : ٦٣ ، ٦٤).

فتصور أن الشيطان المضل والكذاب وأبو الكذاب يقول عن الرب إنه مضل وأن قيامته ضلالة.. وإنى أتعجب لشر الشرير وظلمة الظالم. فذاك الذى أسقطه كبرياؤه ليصير مثل العلى.. أحدرته أفكاره إلى أسفل السافلين.

فقال بيلاطس لرؤساء الكهنة الذين انقادوا لمشورة الشيطان "عندكم جنود فاضبطوا القبر كما تعلمون". كانت هذه المحاولة اليائسة والمشورة الغبية هى آخر حصون العدو التى هدمها المسيح بقيامته. لأنه عندما أشرق نور قيامة المسيح هربت قوات الظلمة وتبددت فى الحال.

لأنه هل ممكن أن يحجز الظلام نور شمس البر؟ وهل ممكن للذى وُلد من العذراء بدون زرع بشر، الذى لم يفعل خطية، القدوس الذى بلا شر، أن تسود عليه شوكة الموت؟ وهل يُعقل أن الأزلى الأبدى تكون له نهاية أيام؟

لذلك قام المسيح من الأموات ونقض أوجاع الموت، وكسر شوكته وأنار الحياة والخلود.

فى هذه المرة أيضاً أوعز الرب لرئيس جنده الملاك ميخائيل أن ينزل، ولكن لم تكن هذه المرة كسابقتها.. فإبليس انسحق سحقاً بقيامة المسيح الإله، وشوكة الموت والظلام انكسرت إلى الأبد. وقوة المعاند تحطمت، والقيود التى كان يقيد بها النفوس ويستعبدها رجعت عليه فصار هو مقيداً ومذلولاً.

بل إله السلام وملك السلام أعطى عبيده سلطاناً على إبليس وأن يدوسوا الحيات والعقارب وكل قوة العدو.

فنزل ميخائيل بقوة لا ليواجه شيطاناً مقهوراً وقوات ظلمة فزعة فآره (هاربة)، بل ليعلن قيامة المسيح، فلما رآه الجنود وهزتهم الزلزلة صاروا كأموات وهربوا من الخوف، لذلك دحرج الحجر عن باب القبر الفارغ وجلس عليه.

وهنا العجب أن الملائكة وهم أرواح فائقة غير متجسدة.. لا يتعبون ولا يجلسون. ولكن من فرط فرح القيامة جلس ميخائيل على الحجر وبشر النسوة حاملات الطيب قائلاً: المسيح قام.

معونة الملائكة وشفاعتهم:

بسبب طبيعتهم الخيّرة – المخلوقين عليها – فإنهم يحبون الخير ويخدمونه ويتمنونه. وعلى العكس فهم ضد الظلام والشر والخراب الذى تصنعه أرواح الظلمة فى العالم. انظر إلى الملاك الذى شفع فى أورشليم فى أيام زكريا النبى كيف قال للرب: «إِلَى مَتَى أَنْتَ لاَ تَرْحَمُ أُورُشَلِيمَ وَمُدُنَ يَهُوذَا الَّتِي غَضِبْتَ عَلَيْهَا هذِهِ السَّبْعِينَ سَنَةً؟". فأجابه الرب بكلام طيب وكلام تعزية.

والأمر المؤكد أنه لم تكن هذه هى المرة الأولى التى وقف فيها الملاك يطلب ويستعطف الله ويطلب الخير لأورشليم. إذ أن الملائكة موجودون فى حضرة الله كل حين يباركونه ويسبحونه، من أجل خيراته ومن أجل أعماله المملؤة صلاحاً. فهم بالحقيقة شفعاء طالبون الخير وكل ما هو مرضى أمام الله.

«إِنَّ السَّيِّدَ الرَّبَّ لاَ يَصْنَعُ أَمْرًا إِلاَّ وَهُوَ يُعْلِنُ سِرَّهُ لِعَبِيدِهِ الأَنْبِيَاءِ» (عاموس ٣ : ٧). أى أن أسرار الله وتدابير نعمته يعلنها لقديسيه. ألم يقل فى سفر التكوين: هل أُخفى عن عبدى إبراهيم ما أنا صانع؟ لذلك ليس كثيراً أن يصير القديسون شفعاء أمامه.

المعطى فبسخاء

الحياة المسيحية بحسب الإنجيل هى حياة عطاء وبذل من كل جانب، لأنها هى حياة المسيح فينا الذى بذل نفسه حتى الموت حباً فينا.

فإن كان المسيح يحيا فىَّ فحياتى كلها عطاء وكلها سخاء، بعيداً عن البخل والشُح والأنانية وتفضيل الذات على الآخرين.

والعطاء المادى هو أقل أنواع العطاء، لأن الممتلكات أشياء تفنى، لها قيمة مادية متغيرة وهى خارجة عن الذات. فأنا شئ وما أملكه شئ آخر يبقى منفصلاً عنى. أما العطاء المسيحى فهو عطاء النفس، أن يضع أحد نفسه عن أحبائه على مثال صليب المسيح الذى أحبنا إلى المنتهى.

فإن وضع الإنسان نفسه، وفرَّط فيها وكفر بذاته وسعى وراء مخلصه حاملاً الصليب، فإنه يعيش متنعماً فى ملكوت المسيح وهو بعد فى الجسد «هَا مَلَكُوتُ اللهِ دَاخِلَكُمْ» (لو ١٧ : ٢١). وإن وُجد هذا المثال المسيحى حياً.. فلا مكان للصراعات ولا الخلافات ولا التحزبات ولا السياسات فى الكنيسة.. ولا مكان للمشاكل فى العائلة ولا انحراف ولا طغيان للمادة والطمع.. إلى آخر هذه الأمور.

العطاء الحقيقى هو حالة فيض داخلى، فحينما يمتلئ القلب يفيض. فالقلب الممتلئ حباً يفيض حباً.. الامتلاء يسبق الفيض.. الفيض بدون ملء هو نوع من الغش. فالعطاء الحقيقى يكون من ملء الروح وفيض الروح. فإن لم نحيا بالروح يكون عطاؤنا المادى بلا قيمة.

الكنيسة منذ البداية رفضت عطايا الناس غير المتقدسين، فلا تقبل عطايا من يُتاجر فى النجاسة، أو يكسب أمواله عن طريق غير مقدس.

هذه بعض الآيات الإنجيلية التى تنير الطريق وتوضح الأهداف الحقيقية:

+ «أَعْطُوا تُعْطَوْا» (لو ٦ : ٣٨).
+ «مَغْبُوطٌ هُوَ الْعَطَاءُ أَكْثَرُ مِنَ الأَخْذِ» (أع ٢٠ : ٣٥).
+ «الْمُعْطِي فَبِسَخَاءٍ» (رو ١٢ : ٨).
+ «مَنْ يَزْرَعُ بِالْبَرَكَاتِ فَبِالْبَرَكَاتِ أَيْضًا يَحْصُدُ» (٢كو ٩ : ٦).
+ «لَيْسَ أَنِّي أَطْلُبُ الْعَطِيَّةَ، بَلْ أَطْلُبُ الثَّمَرَ الْمُتَكَاثِرَ لِحِسَابِكُمْ» (فى ٤ : ١٧).
+ «فِي اخْتِبَارِ ضِيقَةٍ شَدِيدَةٍ فَاضَ وُفُورُ فَرَحِهِمْ وَفَقْرِهِمِ الْعَمِيقِ لِغِنَى سَخَائِهِمْ» (٢كو ٨ : ٢).

+ «لأَنَّهُمْ أَعْطَوْا حَسَبَ الطَّاقَةِ، أَنَا أَشْهَدُ، وَفَوْقَ الطَّاقَةِ، مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ، مُلْتَمِسِينَ مِنَّا، بِطِلْبَةٍ كَثِيرَةٍ، أَنْ نَقْبَلَ النِّعْمَةَ وَشَرِكَةَ الْخِدْمَةِ الَّتِي لِلْقِدِّيسِينَ» (٢كو ٨ : ٣ ، ٤).

+ «وَلَيْسَ كَمَا رَجَوْنَا، بَلْ أَعْطَوْا أَنْفُسَهُمْ أَوَّلاً لِلرَّبِّ، وَلَنَا، بِمَشِيئَةِ اللهِ» (٢كو ٨ : ٥).

ويبدو واضحاً أن الرسل الأطهار الذين جرَّدهم الرب منذ البداية من كل ما هو مادى، وملأهم من الروح إلى كل الملء لم يطلبوا شيئاً.. بل لم يشتهوا شيئاً «فِضَّةَ أَوْ ذَهَبَ أَوْ لِبَاسَ أَحَدٍ لَمْ أَشْتَهِ» (أع ٢٠ : ٣٣). ولكن بحركة عطاء تلقائية، منذ أن حل الروح القدس وملأ كيان الكنيسة، كان «كُلَّ الَّذِينَ كَانُوا أَصْحَابَ حُقُول أَوْ بُيُوتٍ كَانُوا يَبِيعُونَهَا، وَيَأْتُونَ بِأَثْمَانِ الْمَبِيعَاتِ، وَيَضَعُونَهَا عِنْدَ أَرْجُلِ الرُّسُلِ» (أع ٤ : ٣٤ ، ٣٥). دون أن يطلب الرسل ذلك.

كان هذا شعوراً تلقائياً للتخلى عن الماديات، لما حصلوا على ملء الروح. والآيات توضح المنهج الروحى من ناحية الرسل ومن ناحية المؤمنين. فالمؤمنون كانوا يتوسّلون إلى الرسل أن يقبلوا العطايا، والرسل الأطهار لم يمدوا أيديهم للأخذ فوُضعت العطايا تحت أقدامهم، كانوا «يَضَعُونَهَا عِنْدَ أَرْجُلِ الرُّسُلِ».

«أَعْطُوا تُعْطَوْا»

يقول القديس يوحنا ذهبى الفم "إننا كثيراً ما نتبادل المواقع.. ففى أوقات كثيرة يأتى إلينا من يسألنا حاجة، ونكون نحن فى مكان الذى يُعطى ويُحسن إلى من يسأله، ثم فى أحيان أخرى نمد أيدينا نسأل ونطلب.. ونكون فى موضع المُستجدى المحتاج".

فإن تصرف الإنسان فى موقعه الأول تصرف السخى المُعطى، الذى لا يرد حاجة السائل. فإنه حين يكون فى وضع المحتاج من الله سيعامله بذات السخاء وبالكيل المُلَبَّد المهزوز يعطيه فى حضنه. والعكس صحيح فإن بخل الإنسان وصَدّ من يطلب إليه، فإنه حين يطلب هو تُصدُّ صلاته ولا يُستجاب لطلبه.

هذا ما عاشه القديسون فى كل جيل، لقد عرفوا الطريق إلى استجابة صلواتهم، وعرفوا كيف يستدرُّون مراحم الله، إذ صاروا رحماء و«أَسْخِيَاءَ فِي الْعَطَاءِ، كُرَمَاءَ فِي التَّوْزِيعِ» (١تى ٦ : ١٨).

– يُحكى عن المعلم إبراهيم الجوهرى الذى كان بمثابة رئيس للوزراء.. أنه كان منقطع النظير فى سخائه، ويُذكر عنه أن شحاذاً قابله وهو خارج من منزله فى الصباح ذاهب إلى ديوان الوزارة، وطلب منه شيئاً (صدقة) فأعطاه، ثم استدار الشحاذ وقابله فى منعطف الشارع وطلب منه فأعطاه، ثم لف من شارع آخر وقابله وطلب فأعطاه.. حتى فى نهاية المشوار صرخ الشحاذ وقال: طوباك يا رجل الله، فهوذا

طلبت منك هذه المرات الكثيرة ولم تضجر منى ولا أرجعتنى خائباً. فأجابه المعلم إبراهيم فى اتضاع كثير: هذا مالك يا ابنى، أعطاه الله لى لأعطيه لمن يسأل.

+ وقد تقابلت فى حياتى مع كثيرين من الأسخياء المُحبين للعطاء بسرور. والحريصون منهم كانوا يحيون حياة العطاء بحسب الإنجيل وبحسب الذى تسلموه من الأبرار الذين أرضوا الرب قبلهم. لأن كثيراً من المزالق تحيط بحياة العطاء، «مَنْ يَرْحَمُ (يعطى) الْفَقِيرَ يُقْرِضُ الرَّبَّ، وَعَنْ مَعْرُوفِهِ يُجَازِيهِ» (أم ١٨ : ١٧). والمزمور يقول: «طُوبَى لِلَّذِي يَنْظُرُ إِلَى الْمَسْكِينِ (لمن يتعطف على المسكين والفقير). فِي يَوْمِ الشَّرِّ (السوء) يُنَجِّيهِ الرَّبُّ» (مز ٤٠ أجبية). ولكن بالأكثر يقول: «صالِحٌ هُوَ الرَّجُلُ الَّذى يَتَرَأَّفُ ويُقْرِضُ... مَجْدٌ وغِنى فى بَيْتِهِ، وبِرُّهُ يَدومُ إِلَى الأَبَدِ» (مز ١١١ أجبية).

فالعطاء فى المسيح هو من فيض النعمة وحياة البر، وليس كما يظن البعض أنه مجرد عطاء مادى ومساعدات تُقدّم.. يجب أن الذى يقدم العطايا يقدمها بيد طاهرة، بقلب عابد للمسيح. وليست الصَدقة بغرض التكفير عن ذنوب، فالحسنات لا يُذهبن السيئات لأن هذا مبدأ غير مسيحى، السيئات يمحوها دم المسيح الذى يُطهِّر من كل خطية.. والاعتراف بها وغفرانها من فم المسيح بيد الكاهن وتكميل التوبة يكون فى الحياة البعيدة عن السيرة الأولى.

ناهيك لما يشوب العطايا ويلوثها من حب التفاخر والتظاهر ومدح الناس. وهذا ضد الوصية الغالية.. «مَتَى صَنَعْتَ صَدَقَةً (رحمة) فَلاَ تُعَرِّفْ شِمَالَكَ مَا تَفْعَلُ يَمِينُكَ» (مت ٦ : ٣).

لذلك أقول إن من بين الأتقياء الذين عايشتهم من كان كثير العطاء فى الخفاء، يسلك سلوك القديسين الذين أنكروا ذواتهم رغم أنهم صنعوا آيات وعجائب.

+ على أن وصية العطاء غير قاصرة على ذوى الأملاك والمقتدرين، فقد رأينا فقراء ومُعدمين مُحبين للعطاء ويقدمون للرب، فوق طاقتهم بفرح لا يُعبَّر عنه. فبعض المساكين كانوا يأخذون بركة صغيرة من الكنيسة وكانوا يتصدقون منها ويُشاركون من هم أفقر منهم وأكثر احتياجاً.

كيف يكون الفقير والمعدم كريماً سخياً محباً للعطاء؟.. هذه هى نعمة المسيح التى أجزلها بكل حكمة وفطنة حتى صار أولاده كفقراء وهم يغنون كثيرين.

+ «فَإِنَّكُمْ تَعْرِفُونَ نِعْمَةَ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، أَنَّهُ مِنْ أَجْلِكُمُ افْتَقَرَ وَهُوَ غَنِيٌّ، لِكَيْ تَسْتَغْنُوا أَنْتُمْ بِفَقْرِهِ» (٢كو ٨ : ٩).. فقر المسيح هو الغِنىَ الذى لا يُستقصى.. فكلما زاد الإنسان التصاقاً بالمسيح، وقبل آلامه المُخلِّصة المُحيية ليحيا بها وفيها، كلما زاد غِنى الإنسان وفاضت ينابيعه من فيض نعمة المسيح مخلصنا. «أَمَا اخْتَارَ اللهُ فُقَرَاءَ هذَا الْعَالَمِ» (يع ٢ : ٥) ليخزى بهم الأغنياء.

قيل فى البستان عن أحد الآباء النسّاك العظام، إنه حل فى زمانه غلاء عظيم وقلَّ الخير. وكان فى قلايته ثلاث خبزات. وبعد غروب الشمس، شرع فى تناول طعامه، فقرع بابه سائل فقام وأعطاه خبزة. وقبل أن يأكل قرع بابه آخر فقام وأعطاه الخبزة الثانية. وجلس ليكسر الخبزة الباقية فقرع بابه سائل آخر. فيقول البستان أنه ساورته أفكاره عما إذا أعطى آخر خبزة له فما عساه أن يفعل؟ وماذا يكون مصيره؟ ولكنه غلب أفكاره وقفز بشجاعة إيمانية وأعطى الخبزة للسائل. وظل هو بلا طعام، وقد استمر على هذه الحال يومين وهو صائم شاكراً الله. وبعد هذا ظهر له ملاك الرب وعزَّاه وقال له: من أجل عملك هذا فقد أحسن الرب إلى المنطقة كلها وأزال الغلاء. وفى ذات اليوم جاءت إلى الدير جمال مُحمَّلة بالخيرات.

+ هناك حروب كثيرة من عدو الخير ضد عمل الخير والصدقات وعمل الرحمة والإحسان. ولكن الذين عاشوا بالإيمان غلبوه بقوة الله ومؤازرة النعمة. ويكفى أن نذكر فلسى الأرملة التى مدحها الرب ذاته أنها أعطت «كُلَّ مَا عِنْدَهَا، كُلَّ مَعِيشَتِهَا» (مر ١٢ : ٤٤)، أما الأغنياء فقال الرب: إنهم «مِنْ فَضْلَتِهِمْ أَلْقَوْا (أعطوا)».

هذا اختبار عميق يعرفه الذين مارسوه وتنعموا به، إنه اختبار إيمانى عاشه المُعدمون بحسب الظاهر، فاختبروا قمة عناية الله بهم. لقد عاش القديس أنبا انطونيوس هذا الاختبار مدى الحياة لما تنازل طوعاً عن كل ملكيته، وألقى رجاءه بالكمال على الله، الذى اعتنى به حتى آخر أيامه على الأرض. وهكذا القديس أنبا بولا لما تنازل عن الإرث المادى الغالى وعاش ناسكاً بلا مأوى ولا كسوة ولا قوت.. كيف عاله الله سبعين سنة.. أليس هو الذى عال الشعب الإسرائيلى (٢ مليون نسمة) فى البرية أربعين سنة، «لَمْ تَبْلَ ثِيَابُهُمْ، وَلَمْ تَتَوَرَّمْ أَرْجُلُهُمْ» (نحميا ٩ : ٢١) ونعالهم لم تتهرأ؟

شفاعة السيدة العذراء والقديسين

سألنى أحدهم كيف نطلب شفاعة العذراء من أجل غفران الخطايا؟ إن الغفران فقط بدم يسوع، لأن دم يسوع يطهر من كل خطية، وأنه ليس لنا شفيع عند الآب إلا يسوع الذى هو كفَّارة لخطايانا، وليس خطايانا فقط بل خطايا كل العالم. وأنه ليس بأحد غيره الخلاص.

قلت لصديقى هذا.. كل ما تقوله حق.. ولكن دعنى أراجع معك واقعة مشوقة جداً دوَّنها الوحى الإلهى فى أيام داود النبى الملك فى الأصحاح ١٤ فى سفر صموئيل الثانى. وما حدث عندما قتل أبشالوم ابن داود أمنون أخاه انتقاماً لما فعله مع أخته من قباحة. وبعد ما قتل أبشالوم أمنون هرب من وجه داود، وهرب من الناموس الذى كان يحكم بأن القاتل يُقتل. وظل أبشالوم هارباً إلى أن جاء يوآب بامرأة حكيمة من تقوع، ولبست ثياب الترمل وجاءت إلى الملك داود كمن لها شكوى، وهى تصرخ من الظلم وتتوجع وتقول: "أَعِنْ أَيُّهَا الْمَلِكُ". فلما استفسر داود منها حكت له وضعاً مؤلماً.. إذ أنها أرملة، مات زوجها ولها ولدان، تشاجرا فى الحقل وقام أحدهما وقتل الآخر. وها كل العشيرة حولها تطلب أن تنفذ الناموس وهو قتل القاتل. فقالت المرأة.. إنها والحال كذلك ستعدم كلا الاثنين. فهى أرملة مسكينة وما الفائدة من تنفيذ الناموس فى هذه الحالة.. إنها تريد رحمة.

فقال لها الملك.. اذهبى وأنا سأدرس الأمر. فقالت.. لا. وتوسلت إليه. فقال.. سأوصى بك. فأصرَّت وصارت تستعطف. إلى أن قال لها الملك، وهو صاحب الأمر، لن يموت ابنك.

فقد جعلت المرأة القضية بين يدى الملك وبالتوسل والاستعطاف استخلصت للقاتل حكم براءة، وكلمة من فم الملك أن الولد لن يموت.

قلت لصديقى هذا.. ما رأيك؟! نعم الناموس حق وأحكامه حق وواجبة النفاذ. ولكن ما رأيك فى واضع الناموس هو صاحب الحق كل الحق فى كل أحكامه. فإن كانت هذه المرأة استطاعت بالتوسل والاستعطاف أن تصنع هذه الشفاعة فكم بالحرى أمنا العذراء..

هى تقف أمام الملك الديَّان لتشفع فى الخطاة وتستعطف قلبه نحو بنيها.. هى أم القاضى والملك الديَّان.. وهى أم الخاطئ المُدان.

وبكل تأكيد كثيرة هى شفاعتها قوية ومقبولة لدى مخلصنا.. هى تقف كأم حنون قلبها نحو كل ضعيف. وهل تؤثر خطايا الأولاد وإخفاقاتهم على عاطفة الأمومة؟! وهل يعقل أن الأم تبغض أبناءها بسبب جحودهم أو أخطائهم؟ وهل تنسى الأم رضيعها؟!

إن طبيعة الأم الجسدية وحبها وعاطفتها فى صميم الخليقة شئ مهول، لا يمكن التعبير عنه. فكم بالحرى التى صارت أم المسيح، أم الرحمة المتجسدة. من يقدر أن يصف عاطفتها وحبها نحو أولادها الخطاة أو المرضى أو المتغربين عن المسيح؟!

شفاعة القديسين:

أما من جهة أن القديسين يشفعون ويقفون أمام الله من أجل الشعب. فهذا أمر يخصنا بالدرجة الأولى إذ نشعر أننا فعلاً فى حاجة شديدة لمثل هذا الأمر. ألم يقف إبراهيم أمام الله يطلب من أجل أشر الناس فى جيله. وقال وقفت أمام المولى وأنا تراب. واستعطف الرب من أجل سدوم.. وهل يوجد أعظم من هذا؟! بل وزاد على ذلك أنه تجرأ بحسب الدالة التى له مع القدير إذ دُعى خليل الله، أن يطلب أن يرحم الرب سدوم بسبب وجود قديسين وأبرار بها. فقال: لا تهلك البار مع الأثيم. وكان إبراهيم يفتكر بحسب قلبه الطيب أنه لا يمكن أن تخلو مدينة بأكملها مثل سدوم على الأقل من خمسين باراً. ولكن كشف له القدير أنه لو وُجد خمسون باراً لا يُهلك المدينة. وظل إبراهيم يستعطف ويطلب ويتواضع أمام الله إلى آخر مرة حتى قال إبراهيم: اسمعنى هذه المرة فقط ألا يوجد عشرة أبرار. وإذ كان الجواب من الله بالنفى، صمت إبراهيم عن شفاعته فى سدوم. ونالت ما نالت من عقاب استوجبته خطايا الشذوذ والنجاسات.

ولذلك نقول إن حاجتنا إلى شفاعة القديسين شديدة وملحة للغاية. فقد استخلص أبو الآباء بفعله هذا، أن وجود الأبرار فى مدينة ينقذها من مكابدة العقاب والغضب. وهكذا يكون فى البيت والمدرسة والمصنع والجامعة والكنيسة والمدينة والقرية. إن خلت من الأبرار أدركها الفناء.

+ وهذا هو موسى الذى حمل شعبه على عنقه بحلمه وصبره وطول أناته التى وصفها الكتاب، أن الرجل موسى كان حليماً جداً أكثر من جميع الرجال الذين على وجه الأرض. لما اشتد غضب الرب على الشعب العاصى الجاحد للنعمة ،والراجع بقلبه إلى مصر مرتداً عن الذى فداه. وقف موسى أمام الله من أجل هذا الشعب الصُلب الرقبة وقال الرب لموسى: دعنى أفنيهم وأجعلك لأمة أعظم. فتشفع موسى فى الشعب وحجب الغضب الإلهى. وبما له من دالة تكلم مع الله. قال للرب إن تفعل هذا امح اسمى من كتابك الذى كتبت. وأرجع الرب عن حمو غضبه.

ما أحوجنا نحن الخطاة إلى من يقف لأجلنا أمام الله.

+ قال الرب لأرميا النبى: لا تطلب من أجل هذا الشعب. ولا ترفع صلاة لأجلهم. وقال «وَإِنْ وَقَفَ مُوسَى وَصَمُوئِيلُ أَمَامِي لاَ تَكُونُ نَفْسِي نَحْوَ هذَا الشَّعْبِ». أرأيت هذا الاقتدار لطلبات الأبرار. ألم يقل يعقوب الرسول إن طلبة البار تقتدر كثيراً فى فعلها.

+ إننا لا ننسى أن الآية الأولى التى صنعها ربنا يسوع فى عرس قانا الجليل كانت بتوسلات وشفاعة أمنا العذراء القديسة. فهى كما يبدو من المكتوب أنها رأت أهل العرس وقد صاروا فى ورطة بسبب نفاذ الخمر، ربما لكثرة المدعوين أو رقة حالهم كفقراء، وقد يتعكر صفو الجميع وينقلب الفرح إلى غم، ويُلام منهم من يُلام ويقع فى الإحراج ذات العريس وعائلته.. وقد يترتب على ذلك ما لا تُحمد عقباه. رأت الأم كل ذلك وبروحها النقية أدركت الأمر قبل أن يدركه أحد، وبحنانها الفائق تقدمت دون أن يسألها أحد، إذ هى الأم للعريس الحقيقى مصدر الفرح. ذهبت إليه وقالت ليس لهم خمر. ثلاث كلمات لا غير.. فهى فى الإنجيل كله صاحبة الكلمات القليلة، ولكنها صاحبة الدالة التى تفوق دالة الملائكة والأنبياء ورؤساء الآباء. طرحت طلبتها وسؤالها من أجل الذين ليس لهم أمام ابنها، الذى له الكل فى الكل. ابنها افتقر وهو الغنى بل هو الغِنى ذاته. ولا أحد يعرف سر إخلائه إلا هى. لذلك اتجهت إليه ليخلص الذين كانوا فى ورطة العوز والفقر. فهى كانت ومازالت تشفع فى المعوزين والمعدومين. فإن قالت ليس لهم خمر، فهى قائمة دائماً مازالت تطلب إليه من جهة كل من ليس لهم. فها أناس منا ليس لهم حب، بل افتقروا جداً فى الجحود والعداء. وآخرون ليس لهم فرح بل لهم النكد والحزن. وآخرون ليس لهم قداسة بل طُرحوا أسرى الخطايا. وافتقروا جداً. وغيرهم ليس لهم اتضاع بل عدموه بحياة الاعتداد بالذات وفقر الكبرياء. وغيرهم ليس لهم سلام. وما أكثر من صاروا ليس لهم، وأعوزهم مجد الرب.

وها هى واقفة أمام ابنها تطلب فتُجاب وتسأل ولا يرد طلبتها. ورغم أن استعلان صليبه لم يكن قد حان بعد بحسب كلامه لها، إلا أنه صنع الآية وأظهر مجده. ويا للعجب.. قد كان من الممكن أن يعطيهم ما يكفى، وما نقص عنهم. ولكن قال: املأوا الأجران.. فملؤها إلى ما فوق.. إلى أقصى اتساعها بدون نقص، ٣٦ صفيحة ماء.. ما هذا الفيض؟!

ألا نذكر ما قاله فيلبس من جهة الخمسة آلاف، إنه لا يكفيهم بمئتى دينار خبز لكى يأخذ كل واحد منهم شيئاً يسيراً. غنى المسيح الذى لا يُستقصى يتعارض تماماً مع الشح والقلة فهو حين يُعطى بسخائه الإلهى. «فَأَكَلُوا وَشَبِعُوا جَمِيعًا. ثُمَّ رُفِعَ مَا فَضَلَ عَنْهُمْ مِنَ الْكِسَرِ اثْنَتَا عَشْرَةَ قُفَّةً» (لو ٩ : ١٧). لذلك فاض سخاؤه الإلهى للارتواء والشبع وسد الإعواز للغنى والفيض. وبالطبع الأمر الجوهرى لا يخص الخيرات الزمنية ولكن غنى المسيح أبدىّ يختص بالدرجة الأولى الحياة الأبدية.

+ ألم يُصلِّ أيوب لأجل أصحابه لكى يرفع الرب عنهم غضبه. لأن الرب قال: «قَدِ احْتَمَى غَضَبِي عَلَيْكَ وَعَلَى كِلاَ صَاحِبَيْكَ، لأَنَّكُمْ لَمْ تَقُولُوا فِيَّ الصَّوَابَ كَعَبْدِي أَيُّوبَ» (أي ٤٢ : ٧). فهم إن كانوا يظنون أنهم يدافعون عن الله وأحكامه وعدله، لكنهم لم ينالوا الرضى لأن حياتهم لم تكن على مستوى التقوى والعشرة الحقيقية، بل كلام فى كلام. فأمرهم أن يأخذوا «سَبْعَةَ ثِيرَانٍ وَسَبْعَةَ كِبَاشٍ وَاذْهَبُوا إِلَى عَبْدِي أَيُّوبَ، وَأَصْعِدُوا مُحْرَقَةً لأَجْلِ أَنْفُسِكُمْ، وَعَبْدِي أَيُّوبُ يُصَلِّي مِنْ أَجْلِكُمْ، لأَنِّي أَرْفَعُ وَجْهَهُ لِئَلاَّ أَصْنَعَ مَعَكُمْ حَسَبَ حَمَاقَتِكُمْ".

هذه هى معاملات الله نحو قديسيه.. ومختاريه فى كل الأجيال. لقد بدا أن أيوب يجترئ فى الكلام، وظنوه يتجاوز الحدود فى الحديث. ولكن تقواه وصلته العميقة مع الله كانت تشفع له فلم يحسب الرب عليه ما تفوه به. بل عاتبه وكشف له المستورات ورده إلى اتضاعه. وقال للرب: «بِسَمْعِ الأُذُنِ قَدْ سَمِعْتُ عَنْكَ، وَالآنَ رَأَتْكَ عَيْنِي. لِذلِكَ أَرْفُضُ وَأَنْدَمُ فِي التُّرَابِ وَالرَّمَادِ» (أيو ٤٢ : ٥ ، ٦).

هذه الدالة التى للقديسين قد ظهرت بأجلى بيان فى نهاية سفر أيوب. ولولا صلاة أيوب من أجل أصحابه لنزل بهم غضب الله. فعلاً طلبة البار تقتدر كثيراً فى فعلها.

إنجيل المرأة الخاطئة

رُبَّ سائل: ألم يوجد فى المدينة خطاة غير هذه المرأة؟ لأن الكتاب يقول: «امْرَأَةٌ فِي الْمَدِينَةِ كَانَتْ خَاطِئَةً» (لو ٧ : ٣٦ – ٥٠).

الواقع أن الخطاة فى تلك المدينة أو غيرها من المدن لا يمكن حصرهم لأنه «أَغْلَقَ عَلَى الْكُلِّ تَحْتَ الْخَطِيَّةِ... أَنَّهُ لَيْسَ بَارٌّ وَلاَ وَاحِدٌ» (غل ٣ : ٢٢، رو ٣ : ١٠). بل أن العكس هو الصحيح إن وُجِدَ أبرار فى مدينة فهم الأقلية المعدودة.

ولكن من حرّك قلب هذه المرأة الخاطئة للتوبة؟ والجواب: إن التحريض على التوبة وتحريك الضمير لترك حياة الخطية هو من الله «الَّذِي يُرِيدُ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ يَخْلُصُونَ» (١تى ٢ : ٤)، وهو مخلص البشر.

إذن هل اختار الرب هذه المرأة ليخصها بهذه النعمة إذ يحرك ضميرها ويثقله من جهة حياة النجاسة والفجور؟ وهل إليها وحدها بلغ هذا الصوت الإلهى؟ ولماذا؟

والواقع أن رسالة الله ودعوته للجميع بلا تمييز ولا تفريق. ولكننا نخلص إلى القول إن وراء هذه المرأة الخاطئة سر.. هو سر القبول، وسر الاستجابة.. إذ سمعت الصوت داخلها يحرك قلبها ويوخز ضميرها.. فلبّت للحال صوت الداعى. واستجابت له بكل مشاعرها وتحركت لفورها بخضوع عملى لتلبى متطلبات الحركة الإلهية داخل القلب.

وكم من مرات لا تقع تحت حصر يصير هذا الصوت، ينادى فى قفار الأرض وجدب العالم المظلم «تُوبُوا لأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ» (مت ٤ : ١٧). ويختلف الناس اختلافاً بيِّنا من جهة الاستجابة والتجاوب.

فمن سامع سريع الانفعال ثم فى لحظة يخبو الصوت ويتلاشى، ومن مستهتر لا يُعير الصوت التفاتاً، ومن غير مصدق ولا مؤمن بهذا الصوت إنما يعزوه إلى غير الله الموجود، ومن يائس لكثرة السقوط وارتياد الطرق المعوجة.

مئات بل ملايين السامعين والتمايز بين واحد وآخر شئ مهول حقاً. وبين الملايين الكثيرة يوجد من يلين قلبه عند سماع أول هاتف للخير وأول شعاع لفجر القيامة.. ومن هؤلاء كانت هذه المرأة الخاطئة، فلما سمعت جاءت إلى من ناداها. ولم تكن تجرؤ أن تنظر إلى عينه، فهو فاحص القلوب ومختبر الكلى. ولم تكن تستطيع أن تريه وجهها وقد غطاه خزى الخطايا. كان الذى يحركها فى الداخل شئ لا يُقاوم،

وحنينها إلى الحياة الأفضل كانت تُزكيه هذه الشعلة البسيطة من نار الروح الذى بدأ يشتعل قليلاً قليلاً فى داخلها.

تُرى ماذا سيقول؟ بل ماذا عساها أن تقول؟

فإن قال وكشف ما هو مستور فى قبر هذا القلب المسكين.. فسوف يزلزل صوته السماء والأرض.. وأساسات المسكونة. فكم بالحرى قلب ملوث بالخطايا.

وإن نظر فتذوب الجبال وتُدخن، لأن السماء غير طاهرة قدام عينيه.. «وَإِلَى مَلاَئِكَتِهِ يَنْسِبُ حَمَاقَةً» (أى ٤ : ١٨).

فمن الأجدر أن تتكلم هى، وماذا عساها أن تقول إن استجمعت شجاعتها وحزمت كل ما تبقى لها من قوة بددتها الخطايا.. من أين تجد كلاماً تضعه فى شفتيها.. من يعطيها كلاماً كقول هوشع «خُذُوا مَعَكُمْ كَلاَمًا وَارْجِعُوا إِلَى الرَّبِّ» (١٤ : ٢). تُرى هل تحتاج إلى كلمات داود أو صلوات منسّى التائب؟ وهل تحتاج إلى من يعمل فى فكرها لترتيب الكلام، حتى تجد نعمة لدى القدير؟ إن ملايين الكلمات لا تكفى ولا تفى!

لذا جاءت من ورائه.. وهل تحسب أنه له وراء وقدام؟ لأجل تجسده إذ صار إنساناً، صار هكذا، غير المرئى صار مرئياً وغير الزمنى صار تحت الزمن. هكذا عرفته إذ صار قريباً من الخطاة بل محب للعشارين والخطاة.

فلما وقعت عند قدميه.. وصارت إلى التراب فى المذلة والاتضاع.. انفجرت ينابيع الماء من الداخل كقول الرب للسامرية، وهى أيضاً المرأة التى تمتعت بالغفران قبل غيرها. لذلك لما عجزت عن الكلام باللسان تكلمت العينان بالدموع.

جاءت من ورائه باكية:

للدموع فعل عجيب حقاً لدى أصحاب القلوب الطيبة وأصحاب المشاعر الرقيقة. فكم بالحرى تكون أمام مخلصنا ينبوع الرحمة والحنان؟ فهى تستدر عطفه الإلهى كما هو مكتوب: «كَمَا يَتَرَأَّفُ الأَبُ عَلَى الْبَنِينَ يَتَرَأَّفُ الرَّبُّ عَلَى خَائِفِيهِ»، لقد قال الرب فى سفر النشيد: «حَوِّلِي عَنِّي عَيْنَيْكِ فَإِنَّهُمَا قَدْ غَلَبَتَانِي» (نش ٦ : ٥).

اقتربت الباكية من قدمى المخلص.. سبقتها دموعها تتساقط بغزارة، وبجرأة لمست قدميه، وهى تعلم فى نفسها مقدار نجاستها. شعرت لوقتها نفس شعور نازفة الدم.. وقف نزيف دمها.. زال المرض.. تبددت النجاسة والشعور بالنجاسة. فهل تقف الظلمة إذا غشاها النور الإلهى؟ لقد لمست الخلاص، لمست

الحياة التى أُظهرت، الحياة المتجسدة فى شخص يسوع. حل فى قلبها فى الحال سلام الله لما مسّت قدمى الذى صالح الخطاة مع الآب. «لاَ سَلاَمَ، قَالَ الرَّبُّ لِلأَشْرَارِ» (أش ٤٨ : ٢٢).

+ لم يحرك الرب قدميه أو يمنعهما.. ترك لها قدميه المزمعتين أن تتسمرا على الصليب بلا حراك لتدفع ثمن خطايا العالم كله.

لقد بخل سمعان الفريسى بالماء لغسل قدمى المخلص.. حسناً صنع دون أن يدرى فقدمى المخلص ليستا بحاجة لغسل الماء كباقى البشر.. هو غاسل الأوزار والخطايا عن الأقدام كما فعل مع الرسل ومع كل أجيال الكنيسة.

+ كم الدموع لغسيل الرجلين من يقدر أن يصفه أو يقدره؟ هل يُكال بمكيال أو يقدر بمقدار؟ ما قدره سمعان ولا المتكئين، بل حسبوه مياهاً تُسكب على الأرض. لكن قابِل الخطاة ومخلص الأثمة هو الذى ثمَّن الدموع وعظَّمها.

وَكَانَتْ تُقَبِّلُ قَدَمَيْهِ:

تُرى من دلّكِ إلى ذلك؟ ومن علّمكِ؟ القبلات للفم وللوجنتين. ولكنك ألقيتِ بنفسك على الأرض إذ حسبتِ نفسك خاطئة لا تستحقين القيام أمامه، فعكفتِ على تقبيل قدميه. فلما استنشقتِ رائحة الحياة الأبدية لم تكفِ عن فعل ذلك. سكبتِ الدمع فغسلتِ القدمين، وعوضاً عن المنشفة للتجفيف قدمتِ شعر رأسك، ثم سكبتِ طيبك المخبأ تحت إزارك، فامتلأ البيت من عبير التوبة الحقيقية، التى اشتمها الله قبل البشر.

يا للعجب! كل ما بِعتيه للخطية وما بذلتيه للتلذذ والخلاعة.. استرددتيه مضاعفاً أضعافاً أبدية.. فالدموع وعواطف الحب والقبلات التى ألهبت الجسد بالشهوات، وعطر الطيب وشعر الرأس التى اُستخدمت للهلاك، عندما قدمتيها ذبيحة حب حقيقى على مذبح قدمى يسوع.. نزعتِ عنها كل شوائب الجسد وعار السلوك النجس، وكأنها أُلقيت فى أتون النار، فاحترقت الخطايا وخرجت العطايا كالذهب المصفّى.

فيا جميع خطاة الأرض، تعالوا.. تعلموا اقتناء الخلاص، وتعجبوا كيف أن المرأة الخاطئة فى المدينة صارت أيقونة المرأة التائبة فى الكنيسة.

سِمْعَانُ الْفَرِّيسِيِّ

عجبى من مسلك هذا الفريسى الأعمى، الذى نسى تطهير خطاياه، مبرراً ذاته وناظراً إلى المرأة الخاطئة.. وعجبى أننا كثيراً ما تصرفنا تصرفه وحكمنا حكمه وبررنا أنفسنا! قال الفريسى فى نفسه، لم

يجسر أن يكلم الرب علانية فأمره مكشوف. ولكن المطّلع على الخفايا وفاحص القلوب كلّمه علانية مجيباً على أفكاره لأجل منفعتنا ولتعليمنا.

فإن كنا نصدر الأحكام على الآخرين وندينهم، فنحن بالأولى يليق بنا أن نحكم على أنفسنا وندين أنفسنا. وإن افتكرنا بأننا مدينون بالقليل بينما غيرنا مدينون بالكثير، فقد أخطأنا إذ لم نحسب حساب حب الآخرين الكبير.

وإن كنا عجزنا عن أن نوفى الدين الذى علينا فلنسرع بالتوبة. وبدل المتكأ العالى فلنلق بأنفسنا عند قدمى يسوع القادر أن يسد الديون عنا. ولنبكِ بحرقة قلب ونبل قدميه بدموعنا ونقبّل قدميه اللتان أعتقتانا من طريق الضلالة..

كفى دينونة للآخرين.. وكفى حكم على الناس.

+ أما قول الرب كله فكان فى صف المرأة المبررة التائبة. فالمسيح دائماً فى صف الراجعين إليه، يدفع عنهم كلام الناس وأحكام الناس ودينونة الناس.

طوباكِ أيتها المرأة حين سمعتِ صوت الرب إلهك أنكِ أحببتِ كثيراً.. طوبى للدموع التى طهّرت عينيك وقبلاتك التى قدّست شفتيكِ.. ومبارك هو طيبك الذى استمد معناه من طيب الروح القدس، المنبثق من الآب، الحال على رأس المسيح ومنسكب على القدمين.

طوباكِ لما سمعتِ صوت الرب مغفورة لكِ خطاياكِ. لقد أدركتِ الفرح الأبدى، إذ محا الرب عنكِ صك خطاياكِ.. طوباكِ لما أظهرك للعالم كله، حاصلة على سلامه الإلهى وأرسلك تكرزين بالتوبة والخلاص « اِذْهَبِي بِسَلاَمٍ إِيمَانُكِ قَدْ خَلَّصَكِ».

الضمير المسيحى

الضمير فى الإنسان هو وازع الخير الذى يدفع الإنسان، أى إنسان، نحو الخير والرحمة والشفقة نحو الأصغر والأضعف، ويُحفّز الإنسان ويدفعه لعمل الخير نحو الغير. وهو فى نفس الوقت يبكت الإنسان حينما يرتكب المعاصى، أو يجنح نحو عمل الشر، ويوخزه لعله يسمع فيرجع عن فعله.

فعمل الضمير فى الإنسان إيجابى نحو عمل الخير وسلبى نحو الشر. ورغم أن الخليقة فسدت بالخطية ودخول الموت من جراء المخالفة والانفصال عن الله مصدر الحياة والصلاح، إلا أن بقايا مجد الخليقة قبل الفساد كائن فى الإنسان كمثل ما تجد فى حطام أيقونة فائقة الجمال، حتى الأجزاء الصغيرة منها تحمل جمالاً وبهاء.

هكذا تجد الضمير فى الإنسان مهما تدنت حياته حتى أسفل المراحل، من حين إلى حين يومض بالنور فى أحلك الظلمات. فالقتلة والسارقون والزناة لا تخلو حياتهم من ومضات الضمير، رغم ما اقترفوه من فظائع بسبب تحجر القلب وطمس معالم الخير. فأنت تجد القاتل فى معاملة أطفاله الصغار شئ مختلف تماماً عن سيرته فى العنف الذى بلغ القتل. فلا تجده مع طفله إلا رحيماً شفوقاً حانياً عليه.

فالضمير فى الإنسان لا يموت، وإن كان أعتى الخطاة والمجرمين يبدو أنهم أماتوا الضمير وأنهوا عليه. فلو خلد الإنسان إلى نفسه ولو إلى دقائق معدودة.. ورجع ناظراً إلى داخله لتحرك ضميره الذى يظن أنه مات.

فى بداية الحياة.. فى الطفولة وبساطتها وبراءتها، يكون صوت الضمير فى الإنسان واضحاً عالياً من جهة دافع الخير أو من جهة التحذير والتبكيت على فعل الشر. فإن وَعَىَ الإنسان هذا الهاتف الداخلى وانحاز إليه وأطاعه فإن صوت الضمير يقوى ويزيد. وعلى العكس إن أعطى الإنسان لصوت الضمير أذناً لا تسمع، فإن صوته ينخفض ويخبو يوماً بعد يوم.

صوت الضمير يحذر وينذر، ولكنه لا يجبر الإنسان على طاعته، وإن أسكته الإنسان بالعناد يسكت. قُل إنه صوت الله فى الإنسان لأن الله لا يشاء موت الخطاة ولا يسر بموت الإنسان فى خطيئته. ولأن الله جل اسمه، خلق الإنسان، على صورته وأعطاه فى داخله إرادة حرة فى الاختيار. لذلك فهذا الصوت الداخلى لا يُفقد الإنسان حريته. بل على العكس يصير نصوحاً للإنسان ليكون أفضل ويطلب الخير والصلاح.

ماذا عن الضمير فى الإنسان المسيحى؟

فى الإيمان المسيحى، نعلم أن طبيعتنا التى فسدت وبليت بالخطية فى الإنسان الأول آدم أبونا، جددها المسيح (آدم الثانى) وأقامها وخلقها خليقة جديدة. وهذا التجديد شمل كيان الإنسان بكل ملكاته وإمكانياته.. نفساً وجسداً وروحاً «إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ» (٢كو ٥ : ١٧).

فقُل إن الضمير الطبيعى تجدد بالروح القدس كخليقة جديدة مسنوداً بنعمة سمائية. فإن كانت حساسية الضمير وصحوته تختلف من إنسان لآخر، فما يوافق عليه ضمير الإنسان ربما لا يسمح به ضمير آخر وهكذا.

لذلك نقول إن تقديس الضمير لدى الإنسان المسيحى أعطاه فطنة وبصيرة وحساسية روحية، تختلف تماماً وتعلو على ناموس الضمير الطبيعى. فالمقاييس والمعايير مختلفة جداً بين ما هو حسب الطبيعة وما هو حسب الروح. إذن الضمير المسيحى، وهو مؤازر بروح الله القدوس فإنه يسعى أن يوّصل الإنسان أن يشهد للحق. ومعياره الذى يقيس عليه هو وصايا يسوع.

لذلك بمقدار سمو الوصايا المسيحية وعلوها على الناموس الطبيعى العامل فى الإنسان الطبيعى، هكذا يتعالى الضمير المسيحى الساعى إلى الكمال. الدارس لحياة الآباء مثلاً يقابل علواً شاهقاً لضمير صالح مرهف حساس يدعو إلى العجب والدهش.. قيل مثلاً إن أحد الآباء فى برية الإسقيط كان يعمل فى الحصاد وإذ أراد أن يفرك سنبلة من سنابل القمح ليأكلها.. استأذن صاحب الحقل، فتعجب الرجل وقال: يا أبتَ الحقل كله بين يديك وتستأذنى؟ ثم يعلق كتاب البستان ويقول: إلى هذا الحد كان هذا الأب حريصاً مدققاً.

تدريب الضمير:

قال القديس بولس الرسول، وهو يحتج أمام فليكس الوالى: «أُدَرِّبُ نَفْسِي لِيَكُونَ لِي دَائِمًا ضَمِيرٌ بِلاَ عَثْرَةٍ مِنْ نَحْوِ اللهِ وَالنَّاسِ» (أع ٢٤ : ١٦). فإن كان يقال إن التدريب حتى للحيوانات الأعاجم أخضع طبعهم الوحشى فأنت ترى كم تدربت حتى الوحوش والأسود والنمور، وحتى الحيوانات البحرية والطيور.

فكم بالحرى إذا تدرب الإنسان المسيحى لكى يكون له ضمير صالح بلا عثرة قدام الله والناس. بكل تأكيد قد أثمر جهاد الآباء فى الحصول على ضمير مقدس روحى حساس وصالح. وهذا دفع حياتهم إلى السموات العليا وهم بعد عائشون فى الجسد بيننا. فضربوا المثل فى الحياة والطهارة، والسلوك، والكلام،

والصمت، والمعاملات مع كل أطياف الناس. وكانت سيرتهم التى سطروها وعطروا العالم بها.. كان هذا الضمير المدرب والمسنود بروح الله هو خلف كل واعز لعمل الصلاح والخير.

ولكن كيف يدرب الإنسان نفسه لأجل أن يكون له ضمير بلا عثرة؟ «إِنْ سَمِعْتُمْ صَوْتَهُ فَلاَ تُقَسُّوا قُلُوبَكُمْ» (عب ٤ : ٧).. أى الانصياع للطاعة وإخلاء الذات، والخضوع الفورى لصوت الضمير.

+ أحياناً ما يعاند الإنسان أو لا يعطى اهتماماً للصوت الداخلى. هنا التدريب يعنى الالتفات السريع لصوت المتكلم، وعدم التسويف فى الاستجابة.

+ التدريب على التقاط الإلهامات مهما كانت صغيرة، كمن يرهف السمع للهمس. وهكذا تتربى فى الإنسان حاسة التقاط صوت الروح وإلهاماته التى ينطق بها فى الضمير.

+ يتدرب الإنسان أن يخضع للتبكيت دون تخفيف أو تهوين، ويستوفى حق الروح فى اللوم متى كان الإنسان ملوماً، ولا يلتمس الأعذار بل يخضع للتأديب ولا يبرر ذاته. يقول الآباء: «جيد للإنسان أن يأتى بالملامة على نفسه فى كل شئ».

+ بسبب الضمير الصالح الذى بلا عثرة قدام الله والناس، صار أمر إرضاء الله هدفاً لحياة الآباء.. فأرضوه واسترضوا وجهه، وحفظوا كلامه، وداموا فى حبه، وأخلصوا فى عبادته ولم يتهاونوا.

جعلوا الرب أمامهم فى كل حين.. صار حاضراً معهم فى كل مكان وزمان.. طلبوا وجهه وطلبوا أن يسكنوا فى بيته ويتفرسوا فى هيكله.

أما من جهة الناس، فالضمير المسيحى قاد مسيرتهم فى سلوك روحى. فحسب طاقتهم سالموا جميع الناس. وصار قانونهم أنه «إِنْ كَانَ طَعَامٌ يُعْثِرُ أَخِي فَلَنْ آكُلَ لَحْمًا إِلَى الأَبَدِ (طول حياتى)» (١كو ٨ : ١٣). وبحسب الضمير المسيحى قدموا بعضهم بعضاً فى الكرامة ورضوا بالمتكأ الأخير. وسعوا فى إثر الصلح والسلام مهما كلفهم الأمر. وحفظوا المحبة ولو خسروا كل شئ سواها.

وفعلاً صار الضمير المسيحى هو الدافع للسعى وهو الحارس من الهفوات، وهو الضامن للاستمرار بنعمة الروح القدس وفعله لبنيان ملكوت الله.

+ قال أحد الآباء: «إذا تحرك فيك فكر صالح فلا تنم قبل أن تكمله».

+ قيل عن أحد الآباء إنه فى وقت نياحته رأوا وجهه منيراً ، فسألوه. فأجاب: أنه من يوم دخوله الدير لم يدن أحداً، ولم يحكم على أحد، فهو ذاهب ليلتقى المسيح الذى قال: «وَلاَ تَدِينُوا فَلاَ تُدَانُوا» (لو ٦ : ٣٧). إلى هذا الحد كان هذا الأب يقظاً بضمير نقى نحو الجميع.. طوبى لأنقياء القلب.

اسلكوا بالتدقيق:

الضمير هو حارس السلوك بالتدقيق فى حياة الإنسان المسيحى، بعيداً عن الدمدمة والوساوس والتشكك. فالتدقيق يشمل معانى كثيرة تدخل فى تفاصيل الحياة، مثل عدم الاستهتار بالأمور التى تبدو صغيرة «فَالأَمِينُ فِي الْقَلِيلِ هو أَيْضًا أَمِينٌ فِي الْكَثِيرِ، وَالظَّالِمُ فِي الْقَلِيلِ هو بالضرورة ظَالِمٌ فِي الْكَثِيرِ» (لو ١٦ : ١٠).

فما معنى ما قاله الرسول أن يكون له ضمير صالح من جهة الله والناس؟

أولاً: من جهة الله، يكون له ضمير يخاف الله، يرضى الله، يحفظ وصاياه، يعمل حسابه فى كل تصرف. وهذا ما عبّر عنه القديس يوحنا بقوله: «لأَنَّهُ إِنْ لاَمَتْنَا قُلُوبُنَا فَاللهُ أَعْظَمُ مِنْ قُلُوبِنَا، وَيَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ» (يو ٣ : ٢٠).

+ فى مسألة أكل ما ذُبح للأوثان تكلم القديس بولس إلى الإنسان الذى يقول إنه له ضمير قوى، أى لا يتشكك عندما يأكل عالماً أنه لا يوجد إله آخر فى العالم، فكان يشارك فى الأكل مما ذُبح للأوثان غير عابئ بالآخرين الذين كانوا يحسبون ذلك كمشاركة فى عبادة الأوثان وكانوا يُعثرون..

هنا قال بولس الرسول: أنت لك ضمير قوى لا يتأذى، ولكن ما بالك وأخوك الذى ينظر إليك؟

وصحح الرسول بولس المفهوم الخاطئ لحرية الضمير حتى إن الإنسان المسيحى يكون فى استعداد أن يضحى من أجل الآخر «لو كَانَ أَكْلُ اللَحْمٌ يُعْثِرُ أَخِي ما أَكُلَت لَحْمًا كل أيام حياتى».

وهكذا أظهر بوضوح جمال الضمير المسيحى المستعد دائماً للبذل والتضحية بعيداً عن الأنانية وإرضاء الذات.

«أَقُولُ الصِّدْقَ فِي الْمَسِيحِ، لاَ أَكْذِبُ، وَضَمِيرِي شَاهِدٌ لِي بِالرُّوحِ الْقُدُسِ إِنَّ لِي حُزْنًا عَظِيمًا وَوَجَعًا فِي قَلْبِي لاَ يَنْقَطِعُ» (رو ٩ : ١، ٢). هكذا كتب القديس بولس الرسول عندما تكلم عن إحساسه الداخلى نحو خلاص بنى إسرائيل وقبولهم الإيمان بالمسيح.

فقوله هذا الذى بلغ غاية السمو والغيرة نحو بنى جنسه، يسنده شهادة ضمير مؤازر بروح الله القدوس. إن الأمر ليس مجرد كلام أو شعارات، بل هو حق وصدق. وما أجمل وأجلّ هذا الأمر أن ما يضمره الإنسان يتوافق تماماً ما يتكلم به. وهذا دليل ما بعده دليل على انحياز الكيان كله للحق فى السلوك بالحق والكلام بالحق.

وهذا هو صدق الحياة المسيحية التى لا تعرف التلوُّن ولا المراوغة.

نهاية الأمر ممكن أن نقول إن الضمير المسيحى المؤازر والمسنود من الروح القدس، يصير فى الحياة العملية كرقيب على التصرفات، ولا سيما عندما يتدرب ويرتقى فى البصيرة الروحية والحساسية والتمييز الذى سماه الآباء الإفراز وعلّوا قيمته على جميع الفضائل.

نقول إنه فى هذه الحالة يقف الضمير كحارس يقظ على كل حركات الإنسان، إن كان بالفعل أو بالقول، من جهة الله فى العبادة والخدمة وحفظ الوصايا الإلهية. أو من جهة الناس فى المعاملات وما يتطلبه الروح من جهة جميع الناس: الأحباء والأعداء، القريبين والبعيدين.. وكيف يجب أن ينضبط السلوك نحو كل أحد.

الحكم الروحى والنصيح الصادق هو الضمير المسيحى. وكأنه صوت الروح الذى يقول: «أُعَلِّمُكَ وَأُرْشِدُكَ الطَّرِيقَ الَّتِي تَسْلُكُهَا. أَنْصَحُكَ. عَيْنِي عَلَيْكَ» (مز ٣٢ : ٨).

خلاصة الأمر نجد أن الضمير المسيحى المُجدد بالنعمة والمؤازر بالروح القدس، هو القاعدة الجوّانية التى تخرج منها مخارج الحياة.. فيقال إن الإنسان نوَى فى قلبه أو أضمر أن يعمل كذا وكذا. وهذا يسبق خروج الأعمال إلى حيز التنفيذ. لذلك يقال: الضمير الصالح كنية عن القلب الذى تكلم عنه الرب فى الإنجيل أن «اَلإِنْسَانُ الصَّالِحُ مِنْ كَنْزِ قَلْبِهِ الصَّالِحِ يُخْرِجُ الصَّلاَحَ... وَلاَ شَجَرَةٍ جَيِّدَةٍ تُثْمِرُ ثَمَرًا رَدِيًّا» (لو ٦ : ٤٥، ٤٣) والعكس.

وهذا يجعل الضمير المسيحى كالجذور للشجرة، وهى عميقة مخفية فى الإنسان الباطن. وعلى هذا فإن صار تلف فى الثمار، أى فى الأفعال، فالعيب يكون قد أصاب الجذور قبل كل شئ. والتوبة الحقيقية هى إصلاح حال الجذور. يعزق حولها أى يتعمق ويضع السماد. وينقّى الحجارة ويطرحها ويعطى الجذور مجالاً وفرصاً للنمو بلا عائق. ويسقيها بماء الدموع ويتعهدها حتى تعود إلى حياتها الطبيعية بنعمة الله.

- «رُوحُ السَّيِّدِ الرَّبِّ عَلَيَّ» (إش ٦١ : ١).
- «أَسْكُبُ مِنْ رُوحِي عَلَى كُلِّ بَشَرٍ» (أع ٢ : ١٧).

هذه النعمة التى سكبها الرب على البشر لا تُدانيها نعمة، نعمة وعطية الروح القدس للإنسان. انسكبت النعمة سكباً من السماء – كانسكاب المطر على الأرض العطشى.. بدون الماء لا توجد حياة.. بل قفر موحش وصحراء بلا حياة. هكذا تكون النفس بدون الروح القدس.

+ «مَنْ آمَنَ بِي... تَجْرِي مِنْ بَطْنِهِ أَنْهَارُ مَاءٍ حَيٍّ». (يو ٧ : ٣٨). الروح الذى قبلناه وصار ساكناً فينا.. يتفجر كأنهار ماء حياة من باطننا.. فيروى ويغنى وينمى ويغير وجه القلب. كما تغير ينابيع المياه وجه الأرض.

الروح يرتاح فى القلوب المتواضعة.. كجريان المياه فى الأودية المنخفضة. أما المتشامخ الروح والمتكبر والمعتد بذاته، فإنه يكون خاوياً خالياً من الروح.. لأن الأماكن المرتفعة لا يجرى إليها النهر.

القلب المتواضع والمنكسر يصير مسكناً للروح. الروح القدس هو روح المسيح الوديع والمتواضع القلب. لذلك لا يساكن المتكبرين.. لأن «اللهَ يُقَاوِمُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَأَمَّا الْمُتَوَاضِعُونَ فَيُعْطِيهِمْ نِعْمَةً» (١بط ٥ : ٥) ويسكن فيهم.

+ «يُعَلِّمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ، وَيُذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ» (يو ١٤ : ٢٦). الذى يُخضع نفسه لروح الله.. ويُطيع بلا شرط ولا يعاند فإن الروح يعلمه كل شئ ويحكّمه بحكمة إلهية ليست من هذا العالم. تعليم الناس وعلوم العالم شئ أما ما يعلمه الروح فهو شيئ آخر.. الحكمة البشرية شئ وحكمة الروح شيئ آخر.

+ قال الرب فى المزمور (٣٢ : ٨) «أُعَلِّمُكَ وَأُرْشِدُكَ الطَّرِيقَ الَّتِي تَسْلُكُهَا. أَنْصَحُكَ. عَيْنِي عَلَيْكَ». فالروح يفحص كل شئ حتى أعماق الله، فهو الذى ينير القلب والذهن والبصيرة من الداخل ويكشف أمام العين معرفة الأسرار. الذى يخضع للروح القدس، يعمل الروح فى داخله إنارة إلهية، فيعرف سر الإيمان، ويصير له دراية بسر المسيح لأنه «لا أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ يَسُوعُ رَبٌّ إِلاَّ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ» (١كو ١٢ : ٣). فالروح يشهد للمسيح من داخل القلب ويقنع القلب ويغنيه بالإيمان.

+ أسرار الإيمان المسيحى بدون فحص العقل يُعلّمُها الروح للعابد.. أسرار الصلاة يُعلّمها الروح.. هو معلم الصلاة «لأَنَّنَا لَسْنَا نَعْلَمُ مَا نُصَلِّي لأَجْلِهِ كَمَا يَنْبَغِي. وَلكِنَّ الرُّوحَ نَفْسَهُ يَشْفَعُ فِينَا بِأَنَّاتٍ لاَ يُنْطَقُ

بِهَا» (رو ٨ : ٢٦).. هو الذى يُشعل نار القلب محبة فى المسيح. وهو الذى يفيض كلام الصلاة ويفعم المشاعر بالحق والحب.

+ الروح هو الذى يُحبب للنفس كل ما هو صالح. وهو الذى يحفِّز الضمير ليقاوم الانفعالات الشريرة.. الروح هو الذى يُعزِّى الإنسان عن تغرُّبه عن وطنه السماوى.. الروح هو الذى يُهوِّن آلام الغربة.

+ الروح القدس يُعلِّم الإنسان فى الباطن ويجمله «بِكُلِّ أَذِرَّةِ التَّاجِرِ» (نش ٣ : ٦).. هو الذى يُزيِّن النفس بالصبر والاحتمال.

+ الروح هو الذى صنع النسَّاك، وضبط حياتهم الفائقة على الطبيعة فى سلوكها، بضبط الروح فى الحياة النسكية الشاقة، وهو الذى قادهم فى دروب الاتضاع بحذق وحكمة إلهية، دون الجنوح إلى العيوب النفسية والخلل الذهنى، أو انغلاق النفس أو التعالى.

+ الروح القدس هو الذى عمل فى الرسل الكارزين بقوة الإنجيل لتغيير العالم ورد الضالين.

«وَيَكُونُ الْجَمِيعُ مُتَعَلِّمِينَ مِنَ اللهِ» (يو ٦ : ٤٥).

لا يحتاج الإنسان إلى معرفة الناس وتعليم الناس.. بل تُعلِّمه المسحة التى له من القدوس.. لا يحتاج إلى كثرة الأسئلة وإلى إشغال العقل والفكر الجسدى فى السماويات، بل بالروح يدرك الروحيات.

الروح القدس لا يُعطَى بكيل.. بل يفيض ويزيد. يملأ إلى كل الملء فيض الصلاة وسخاء العطاء، وقامات القديسين تشهد على ذلك.

الروح يهبُّ حيث يشاء بحسب إرادته الإلهية. أفكار الروح تعلو فوق حسابات الناس وتدبير الناس. حين يهبُّ يُسيل المياه.. حين يملأ القلب تجرى الدموع كالنهر.

هبوب الريح العاصف كان يوم الخمسين ملموساً محسوساً مع ألسنة النار المنقسمة. مازال الروح يهب وسيظل إلى يوم مجئ المسيح. والنار التى أُلقيت على أرض البشر مازالت تضطرم.

لا حدود للريح ولا حدود للنار.. هذا هو قصد الله.. جيل يعبر وجيل يجئ.. والروح هو العامل ونار الروح تشعل القلوب من جيل إلى جيل.

الروح يُعلِّم بلا توقف، وعلى الإنسان أن يستلهم الروح ويخضع طائعاً.. يرتقى الإنسان بالتعليم وينتقل من طور إلى آخر.. هكذا نما القديسون فى الفضيلة والمعرفة بقدر ما أعطاهم الروح من علم إلهى.

الروح يخلق القلب والكيان

«إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ» (٢كو ٥ : ١٧). الروح هو الذى يصنع الخليقة الجديدة. قلباً نقياً اخلق فىَّ يا الله. من العدم يخلق ومن لا شئ يُصوِّر.. مما ليس بظاهر.. من الضعف الشديد يخلق قوة. «بِضَعْفِ الْجَسَدِ بَشَّرْتُكُمْ... بِبُرْهَانِ الرُّوحِ وَالْقُوَّةِ» (غل ٤ : ١٣، ٢كو ٢ : ٤). «لَمْ يَكُنْ لِجَسَدِنَا شَيْءٌ مِنَ الرَّاحَةِ» (٢كو ٧ : ٥) ولكن الروح كانت متأججة.

«وَأَنْزِعُ قَلْبَ الْحَجَرِ مِنْ لَحْمِكُمْ وَأُعْطِيكُمْ قَلْبَ لَحْمٍ» (حز ٣٦ : ٢٦)، وشتان بين الحجر واللحم. من أين الحاسيات المتناهية فى الرقة والحنو، من أين حاز بولس الرسول كل هذا، بعد تاريخ القلب الحجرى والقسوة حتى القتل، وقسوة التعذيب ومنظر رجم اسطفانوس وهو راضٍ ومبارِك؟ الروح يخلق ويدعو الأشياء غير الموجودة للوجود داخل النفس البشرية.. شئ مهول لا تدركه العقول.

إذا عمل الروح فى داخل الإنسان يحوِّل جفافه إلى جنة وحين تجرى أنهار الماء الحى.. يا للإبداع فى الخلق من كل ما تشتهى النفس أن ترى وتشبع!

«لِيَأْتِ حَبِيبِي إِلَى جَنَّتِهِ... أُخْتِي الْعَرُوسُ جَنَّةٌ مُغْلَقَةٌ» (نش ٤ : ١٦ ، ١٢) أبدعها الروح القدس خالقها. الطاقات التى تتفجر مثل فيضانات فى الداخل، من يستطيع أن يصفها من جهة المحبة القلبية التى هى أقوى القُوى، لظى نار الرب. ومن جهة النشاط والغيرة على خلاص النفس. ومن جهة البذل والخدمة وسكب النفس. ومن جهة الإيثار وتفضيل الآخر. ومن جهة العطاء والسخاء. ومن جهة التقديس وتكريس الكل.. أنهار ماء حية.. قوى المقاومة لا تستطيع الوقوف فى وجهها.. أنهار تجرف الكل ولا تتوقف عند حد.

الخليقة الجديدة لها إمكانيات فائقة. لا يمكن أن تقارن مع ضعف الطبيعة الساقطة «أَسْتَطِيعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ الَّذِي يُقَوِّينِي» بروحه القدوس. (فى ٤ : ١٣).

الــروح المعزى

«كَإِنْسَانٍ تُعَزِّيهِ أُمُّهُ هكَذَا أُعَزِّيكُمْ أَنَا، وَفِي أُورُشَلِيمَ تُعَزَّوْنَ. يَقُولُ الرَّبُّ» (إش ٦٦ : ١٣). أورشليم الجديدة هى كنيسة الله التى اقتناها بدمه.. التعزية فى داخلها بلا حدود «أَحْبَبْتُ مَحَلَّ (جمال) بَيْتِكَ... يَرْوَوْنَ (سنشبع) مِنْ دَسَمِ بَيْتِكَ» (مز ٢٦ : ٨، ٣٦ : ٨).

خبز الحياة فى الكنيسة أعدَّه الروح القدس. ماء الحياة ينبع من الكنيسة من جرن المعمودية ومن كأس الإفخارستيا.. سواقى الله ملآنة ماء.. ينابيع تفيض إلى حياة أبدية.. تفيض من أعماق القلب وتجرى

كدموع على المآقى (مجاري الدُّموع من العين).. تُطهِّر وتغسل وتنقى وتعمل على الصفاء.. ندخل إلى جنة الكنيسة وقد أغناها الروح، لأن الله هو الذى ينُمِّى زرعها.. مملوءة من الخيرات، غروس الزيتون تنمو فيها.. زيت الروح ينير سراجها. شبانها وبناتها زينة القداسة تجعلهم غروس الروح.. كهنتها يلبسون البر: دهن الروح وقنينة الميرون.

روح العزاء كالطيب النازل على رأس الكنيسة، يمسح فى كل يوم العذارى والشبان والشيوخ معاً.

التسبيح فى الكنيسة أنغام منسجمة من فرق التسبيح التى ألفّها الروح القدس. الروح هو روح الإلهام صانع المواهب، مواهب التسبيح فى الكنيسة هى ينبوع العزاء لكل النفوس.

«سَبِّحوا الرَّبَّ فإنَّ... لإلَهِنا يَلذُّ التَّسْبيحُ» (مز ١٤٦ أجبية).

«سَبِّحوا الرَّبَّ تَسْبيحاً جَديداً» (مز ٩٧ أجبية) هذا هو مزمور الأعياد فى الكنيسة. الروح يحرك نفوس المسيحيين ويُغنى الكنيسة بعزاء التسبيح. المؤمنون فى الكنيسة لا يحضرون كمستمعين للتسبيح بل مشاركين. ليس فى الكنيسة أماكن للمتفرجين.. بل الكل شركاء فى النعم والمواهب. الشعب له دور كبير فى العبادة وله ألحان ومردات تغطى كل أنواع الخدمات الليتورجية.

+ مواهب متنوعة يعطيها الروح فى الكنيسة، كلها عطايا وهدايا. وأنواع خدم ينشئها الروح ويقيم عليها من يعطيهم المواهب لتكميلها. المعطى يعطيه الروح روحاً وسخاءً، والراحم يعطيه روحاً وسروراً.

روح العزاء

الإنسان المسيحى يواجه العالم وروح العالم بكل ما فيه من ظلم وظلمة، وقبح ونجاسة، وكبرياء، وجميع أنواع الخطايا. وهو بالروح القدس الساكن فيه يشهد ضد العالم وروح العالم، ليس بالكلام ولكن بالسلوك بالحق.

وهذه المواجهة هى التى قال عنها الرب «إِنْ الْعَالَمُ يُبْغِضُكُمْ» (١يو ٣ : ١٣). وهذا هو سبب الاضطهاد المعلن والمخفى. وقد سأل الرب يسوع الآب وقال: «لَسْتُ أَسْأَلُ أَنْ تَأْخُذَهُمْ مِنَ الْعَالَمِ بَلْ أَنْ تَحْفَظَهُمْ مِنَ الشِّرِّيرِ» (يو ١٧ : ١٥). وبحسب ما هو مكتوب: «الَّذِي فِيكُمْ أَعْظَمُ مِنَ الَّذِي فِي الْعَالَمِ» (١يو ٤ : ٤). وقد تأكد للآباء القديسين أن هذه الحرب «حَرْبٌ لِلرَّبِّ مِنْ دَوْرٍ إِلَى دَوْرٍ» (خر ١٧ : ١٦). وأينما يوجد من يؤمن بالمسيح ويحيا بالروح، توجد هذه الحروب الروحية، وبكل تأكيد إن مصارعتنا ليست مع لحم ودم.. وبكل تأكيد فإن الغلبة فى النهاية تكون لحساب المسيح، الذى قام من الأموات وأبطل عز الموت.

على أن هذه الحرب الدائرة والمستمرة لا نجوزها بدون عزاء الروح المعزى الساكن فينا. فإن وقع علينا ظلم. فمن هو الذى يستطيع أن يقبل الظلم؟ إن الظلم قاسٍ على النفس أيما قسوة. فالمظلوم يجوز فى مرارة نفس لا يمكن التعبير عنها. ولكن الروح القدس فى الداخل يعمل عمله المعزى، ويجعل رسم الصليب أمام عين الإنسان، ويكشف له سر الذى صُلب عن ضعف وهو القوى، وسر الذى «ظُلِمَ أَمَّا هُوَ فَتَذَلَّلَ وَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ» (إش ٥٣ : ٧).. ويقود النفس إلى التعمق فى سر هذا الظلم الذى وقع على المسيح، فقبله بارادته وحمل الخطايا وهو غير الخاطئ، وبذل نفسه للموت وهو غير المائت.

ثم يقنع النفس بقناعة كاملة أن «لَيْسَ التِّلْمِيذُ أَفْضَلَ مِنَ الْمُعَلِّمِ، وَلاَ الْعَبْدُ أَفْضَلَ مِنْ سَيِّدِهِ» (مت ١٠ : ٢٤)، «لأَنَّهُ إِنْ كَانُوا بِالْعُودِ الرَّطْبِ يَفْعَلُونَ هذَا، فَمَاذَا يَكُونُ بِالْيَابِسِ؟» (لو ٢٣ : ٣١). ويلح الروح على النفس أن تتدرب على هذا المنهج تابعة مخلصها، ويسكب عزاءه الفائق فتتذوق النفس حلاوة العزاء، وشيئاً فشيئاً تخضع لإيحاءاته الإلهية، وتخضع الذات التى تطالب بحقها وتثير فى النفس إحساسات سلبية ومُرَّة، إما بصغر النفس واليأس فى حال عدم استرداد حقها، أو رغبة الانتقام من الظالم، والتفكير فى كيف تنتقم لنفسها عوض الظلم الذى لحقها.

هنا يكون عزاء الروح القدس، يلغى تماماً السلبيات فى القلب والفكر، ويعوض النفس عزاءً روحياً فائقاً لا يعرفه الناس، لأن عمل الروح السرىّ يكون مثل قول إشعياء «مثل ولد تُعزيّه أمه». وهكذا يكون الأمر فى باقى جهادات حفظ الإنسان نفسه من النجاسات التى تملأ العالم. ومن الحروب فى قسوتها وإغراءاتها، وتزيين الشيطان للخطية ومغالاته فى تضخيم عدم القدرة على الوقوف حيالها.

«وَإِذَا مَلاَكُ الرَّبِّ أَقْبَلَ، وَنُورٌ أَضَاءَ فِي الْبَيْتِ، فَضَرَبَ جَنْبَ بُطْرُسَ وَأَيْقَظَهُ قَائِلاً: قُمْ عَاجِلاً. فَسَقَطَتِ السِّلْسِلَتَانِ مِنْ يَدَيْهِ. وَقَالَ لَهُ الْمَلاَكُ: تَمَنْطَقْ وَالْبَسْ نَعْلَيْكَ. فَفَعَلَ هكَذَا. فَقَالَ لَهُ: الْبَسْ رِدَاءَكَ وَاتْبَعْنِي. فَخَرَجَ يَتْبَعُهُ. وَكَانَ لاَ يَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي جَرَى بِوَاسِطَةِ الْمَلاَكِ هُوَ حَقِيقِيٌّ، بَلْ يَظُنُّ أَنَّهُ يَنْظُرُ رُؤْيَا. فَجَازَا الْمَحْرَسَ الأَوَّلَ وَالثَّانِيَ، وَأَتَيَا إِلَى بَابِ الْحَدِيدِ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْمَدِينَةِ، فَانْفَتَحَ لَهُمَا مِنْ ذَاتِهِ، فَخَرَجَا وَتَقَدَّمَا زُقَاقًا وَاحِدًا، وَلِلْوَقْتِ فَارَقَهُ الْمَلاَكُ. فَقَالَ بُطْرُسُ، وَهُوَ قَدْ رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ: الآنَ عَلِمْتُ يَقِينًا أَنَّ الرَّبَّ أَرْسَلَ مَلاَكَهُ وَأَنْقَذَنِي مِنْ يَدِ هِيرُودُسَ، وَمِنْ كُلِّ انْتِظَارِ شَعْبِ الْيَهُودِ» (أع ١٢ : ٧ – ١١).

لعل هذه القصة العجيبة والمؤثرة جداً تُلقى ظِلاً على الحقيقة التى عاشتها نفوس الأبرار فى سجن الجحيم، فهذا مجرد ملاك الرب، ما أن دخل إلى بيت السجن حتى تبدد الظلام وأضاء نور فى بيت السجن.

أما حينذاك، فالرب يسوع بذاته الذى هو نور الآب، نور من نور، والساكن فى النور الذى لا يُدنى منه، عندما نزل إلى الجحيم هربت قوات الظلمة، وأضاء وأشرق نور فى بيت السجن. أما السلاسل والقيود فسقطت فى الحال لأن مُحرر النفوس، مُخلِّص المسبيين قد اطلع على عبيده «الْجَالِسِينَ فِي الظُّلْمَةِ وَظِلاَلِ الْمَوْتِ» (لو ١ : ٧٩).

والنفوس المُثقَّلة بالنوم العميق، غفلة الموت وسلطانه، انتفضت إذ سمعت صوت العريس، أيقظها نور وجهه وبهاء سلطانه، استيقظى، «قُومِي اسْتَنِيرِي» (إش ٦٠ : ١)، أُنفضى تراب القبور، هوذا جاء فادى نفوس عبيده ليأخذهم إلى نور قيامته.

أما عساكر الظلمة، الحُرَّاس الأشرار، فأنت تراهم مرتعدين، منطرحين، عند قبر يسوع عندما جاء ملاك الرب من السماء يدحرج الحجر، «مَنْظَرُهُ كَالْبَرْقِ... فَمِنْ خَوْفِهِ ارْتَعَدَ الْحُرَّاسُ وَصَارُوا كَأَمْوَاتٍ» (مت ٢٨ : ٣ ، ٤)، فما بلك بحراس الجحيم وشياطين الظلمة، ارتاعوا، مَلَكَهُم ذعر وخوف لا ينتهى.

+ قيل إن الملاك أمسك بيد بطرس واقتاده حتى أخرجه من السجن، من الباب الخارجى. ما أروع الأيقونات التى تصور ما صنعه الرب، أيقونة نزول المسيح إلى الجحيم:

– الرب نازل إلى الجحيم بالصليب،

– نفوس الأبرار مُتلهِّفة لرؤياه،

– آدم أبونا فى أسفل الأيقونة، والرب نازل إليه يُقيمه مُمسِكاً بيده،

– يد آدم صغيرة كيد طفل فى يد أبيه،

– عينا الرب متجهة نحو آدم فى شفقة وحنان أبوى أبدى، بينما عينا أبينا آدم لا تجسُران أن تتطلعا إلى فوق. بل كابن وُجد من أبيه بعد سنين هذا عددها،

– بينما يقف فى الأيقونة نفوس كثيرة جداً تكسو وجوههم بُشرى القيامة وفرح الانطلاق، ونور وجه يسوع منعكس عليهم جميعاً حتى يمكن للناظر أن يراهم جميعاً فى نور وجهه.

ما أبدعها أيقونة، رسمها الفنان الأرثوذكسى بحاسته الروحية، وإلهام الحياة والعبادة فى الكنيسة المجيدة.

النساء والزينة

«لاَ تَكُنْ زِينَتُكُنَّ الزِّينَةَ الْخَارِجِيَّةَ، مِنْ ضَفْرِ الشَّعْرِ وَالتَّحَلِّي بِالذَّهَبِ وَلِبْسِ الثِّيَابِ، بَلْ إِنْسَانَ الْقَلْبِ الْخَفِيَّ فِي الْعَدِيمَةِ الْفَسَادِ، زِينَةَ الرُّوحِ الْوَدِيعِ الْهَادِئِ، الَّذِي هُوَ قُدَّامَ اللهِ كَثِيرُ الثَّمَنِ. فَإِنَّهُ هكَذَا كَانَتْ قَدِيمًا النِّسَاءُ الْقِدِّيسَاتُ أَيْضًا الْمُتَوَكِّلاَتُ عَلَى اللهِ، يُزَيِّنَّ أَنْفُسَهُنَّ خَاضِعَاتٍ لِرِجَالِهِنَّ، كَمَا كَانَتْ سَارَةُ تُطِيعُ إِبْرَاهِيمَ دَاعِيَةً إِيَّاهُ سَيِّدَهَا. الَّتِي صِرْتُنَّ أَوْلاَدَهَا، صَانِعَاتٍ خَيْرًا، وَغَيْرَ خَائِفَاتٍ خَوْفًا الْبَتَّةَ» (١بط ٣ : ٣ – ٦).

فى صميم الخِلقة، تميل النساء، إلى التزين وإلى الظهور بمظهر الجَمال.. هذه طبيعة، وهى رأس زاوية تقف عند مفارق الطرق فى تدبير الحياة.. فلا يمكن بصورة من الصور أن تتغيّر الطبيعة!!

ولكن إن انحازت النفس إلى العالم فجرفها فى تياراته فإن المظهر يصير كل رأس مالها.. وتبتدئ الزينة الخارجية تملك على الكيان.. وعندئذ تتبارى مَلَكات الإنسان وإمكانياته لتخدم الخارج والجسدانيات.. فتُكرّس كل الطاقات المادية والفكرية والعلمية لفنون الجسد وزينة الخارج، الذى يبلى يوماً ولا بديل. ومجرد نظرة بسيطة إلى ما هو موجود فى عالم الموضات من اللبس والحلى والماكياج والعطور وتصفيف الشعر.. شئ رهيب حقاً لا يقع تحت حصر.. تيار جارف وأمواج مُزبدة تجرف الملايين بل ومئات الملايين. ولا يستطيع أحد أن يقف فى وجه تلك التيارات المخيفة، فأقل ما يصفه به العالم هو الجنون وعدم الواقعية وإنه يحيا فى الوهم والخيال.

بينما أولاد الله إذ قد اكتشفوا زوال أباطيل هذا العالم الخدَّاع، واستنارت بصيرتهم فأدركوا السماويات، صرفوا العمر كله يعتنون بالداخل ومجد الداخل، كمثل العذراء القديسة التى قيل عنها «كُلُّ مَجْد ابْنَةِ الملِكِ مِنْ داخِل. مشْتمِلةٌ بأطرافٍ مُوَشّاةٍ بالذَّهَبِ، مُزَيَّنَةٍ بأشْكالٍ كَثيرةٍ» (مز ٤٤ أجبية).. مجد لا يوصف.. ولا يعرفه العالم.

قُلْ إن الاهتمام الزائد بالزينة الخارجية هو تغطية لعوار الداخل الذى تشمئز منه النفس. ألم يكن هذا حال الفريسيين الذين قال لهم الرب: «تُشْبِهُونَ قُبُورًا مُبَيَّضَةً تَظْهَرُ مِنْ خَارِجٍ جَمِيلَةً، وَهِيَ مِنْ دَاخِل مَمْلُوءَةٌ عِظَامَ أَمْوَاتٍ وَكُلَّ نَجَاسَةٍ (نتانة)» (مت ٢٣ : ٢٧).

فالنزوع إلى التزين الخارجى والانحصار فيه، يعنى عدم الالتفات للداخل بل وإهماله، بل وفى أحيان كثيرة هو محاولة للتغطية لما قد يُخجل منه إذا انكشف.

لذلك جاءت الوصية صريحة للنساء القديسات «لاَ تَكُنْ زِينَتُكُنَّ هى الزِّينَةَ الْخَارِجِيَّةَ... بَلْ إِنْسَانَ الْقَلْبِ الْخَفِيَّ فِي الْعَدِيمَةِ الْفَسَادِ، زِينَةَ الرُّوحِ الْوَدِيعِ الْهَادِئِ ».

الزينة المختفية بالروح.. فى القلب الخفى عن عيون الناس، ولكن مستعلنة لدى الله فى الإنسان العديم الفساد، لأن كل ما هو خارجى يفسد، لأن إنساننا الخارج يفنى ولا محالة!!

زينة الروح الوديع.. وإن فطنت إلى هذه الفضيلة النادرة والغالية جداً، ليس قدام الناس بل هى قدام الله كثيرة الثمن.. فكم بالحرى لدى الناس؟

قَلَّ أن تجد امرأة تتحلى بالوداعة والهدوء الروحى.. فإن وجدتها فثمنها يفوق اللآلئ، لأنها مشتراه بدم زكى كريم ومَقدسة فيه!!

أما الصفة الثانية وهى الاتكال على الله، فهى رصيد الزوجة المسيحية.. عليها يؤسس استقرار البيت، فهى لا تتكل على أشياء ومقتنيات ولا على ذراع البشر، بل على الله الحى.. تتكل عليه من كل قلبها، وتسوس بيتها، وتشيع فى أولادها عدم الخوف وعدم القلق وعدم الاضطراب، بإيمانها واتكالها على الله.. تُطيّب قلب زوجها وتُطمئنه.. فهى لا ترهقه بكثرة المطالب فى العالميات ولا تدفعه إلى الأطماع لتلبية رغباتها، بل اتكالها على الله هو كفايتها وكنزها.

«يُزَيِّنَّ أَنْفُسَهُنَّ بزِينَةَ الرُّوحِ ولباس الحشمة خَاضِعَاتٍ لِرِجَالِهِنَّ»

أما من جهة لباس الحشمة، فهذا يأتى من الإدراك الروحى، فالإنسان الروحى «يَحْكُمُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ لاَيُحْكَمُ فِيهِ مِنْ أَحَدٍ» (١كو ٢ : ١٥). فلا يوجد زى يقال له الزى المسيحى.. ولكن تدرك المرأة المسيحية بروحها وتميز بين ما يليق وما لا يليق، وما يوافق ومالا يوافق، بحسب ما هو مكتوب «كُلُّ الأَشْيَاءِ تَحِلُّ لِي، لكِنْ لَيْسَ كُلُّ الأَشْيَاءِ تُوَافِقُ» (١كو ١٠ : ٢٣).

+ والإدراك الروحى والحياة فى المسيح، يجعل الإنسان يحرص على نقاوة قلبه وطهارة جسده، عالماً أن الجسد هو هيكل الروح القدس الساكن فينا «أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ هَيْكَلُ اللهِ، وَرُوحُ اللهِ يَسْكُنُ فِيكُمْ؟» (١كو ٣ : ١٦). وأيضاً يقول: «مَجِّدُوا اللهَ فِي أَجْسَادِكُمْ وَفِي أَرْوَاحِكُمُ الَّتِي هِيَ للهِ» (١كو ٦ : ٢٠).

فنحن أعضاء جسد المسيح وأعضاءنا أعضاء جسده. لذلك لباس الحشمة يليق بمن أدركوا أن أجسادهم ملك للذى اشتراهم. فالخلاعة من أى نوع أو التشبه بأهل العالم مجاراة للمجتمع لا تليق بأولاد الله.

فى تاريخ المسيحيين الأوائل، لما ألقوا إحدى الشابات فى ساحة لثور وحشى بسبب إيمانها بالمسيح ومزقها الثور بقرونه، كانت تلملم ثيابها لتستر نفسها غير عابئة بالموت. لأن عفتها وحبها للقداسة كانت أغلى من الحياة (الشهيدة بربتوا).

والقصص كثيرة جداً التى تؤكد أن المسيحيات منذ الأيام الأولى كن مثالاً لقداسة السيرة والمظهر الذى يليق بأولاد الله. والشهيدات العفيفات: دميانة وبربارة ويوليانا صرن نموذجاً لملايين تبعن سيرتهن الطاهرة وتمثلن بهن.

فى ستينيات القرن الماضى وردت إلى مصر موضة من أوربا هى لبس الملابس القصيرة وتأثرت بها معظم سيدات وفتيات مصر.. وفى يوم أحد أثناء القداس، فى كنيستنا فى سبورتنج بالاسكندرية، دخلت إحدى السيدات الشابات بفستان قصير جداً بشكل لا يليق وصار اشمئزاز من كثيرين.. وكان من عادتنا إننا فى نهاية القداس بعد انصراف الشعب نقف على باب الكنيسة نسلم على كل الشعب. (كانت أيام جميلة محفورة فى ذاكرتى..) كان يومها أبونا بيشوى هو الذى يصلى القداس وفيما هو يسلم على الشعب لفت نظره هذه الأخت ولم يكن يعرفها.. سلم عليها بمودة وسألها أين تسكن؟ وفى ذات اليوم زار أبونا منزلها هى وزوجها وكان لها بنتين صغيرتين.. صلى معهم وكلمهم بكلمات النعمة، فدخلت إلى أعماق قلوبهم. بعد ذلك بوقت قصير كانت الحياة قد تغيرت وأصرّت هذه الأخت أن تحرق هذه الملابس غير اللائقة.

العلاقات الإنسانية
فى حياة القديس بولس الرسول

انشغلت كثيراً فى هذه الأيام الأخيرة بالرباطات التى ارتبط بها القديس بولس مع الناس، سواء كانوا مخدومين، أو أولئك الذين شاركوه حمل نير الخدمة.. كيف تعامل مع الناس الذين أحبوه حتى ودّوا لو قلعوا عيونهم وأعطوه.. أو الذين كانوا على عكس ذلك.

وتفكرت كثيراً فى كيف ينير لنا هذا النموذج العالى الطريق، فنبنى علاقتنا مع الناس على هذا المنهج على قدر ما نستطيع، لأنه لم تصل قامة فى أجيال الكنيسة مهما بلغت، إلى قامة الرسول بولس ويكفى أن نقرأ ما كتبه هو عن ذاته لأهل كورنثوس ليثّبت إيمانهم فى المسيح ويبعد عنهم تشكيك المشككين فى رسوليته.

+ ما بدا من مشاعر مقدسة وأدب روحى عالى بينه وبين أحد تلاميذه (فليمون) فى الرسالة المملوءة رقة التى أرسلها إليه بيد أنسيموس، فأنسيموس كان عبداً مملوكاً لفليمون.. وقد سرق أغراضاً ومالاً من سيّده، ولما قبض عليه وأودعوه السجن تقابل مع القديس بولس، وهذا كرز له وأحبه فقبل الإيمان وأرسله، القديس بولس إلى فليمون حاملاً الرسالة، وقد ذيّلها القديس بولس بالكلمة إلى فليمون بيد أنسيموس الخادم، فقد انتقل أنسيموس من العبودية إلى أرقى المراتب، إذ صار حراً بل خادماً ليسوع المسيح.

بل إن القديس بولس أوصى به فليمون إذ يقول: اِحسبه كأخ «الَّذِي كَانَ قَبْلاً غَيْرَ نَافِعٍ لَكَ، وَلكِنَّهُ الآنَ نَافِعٌ لَكَ وَلِي» (فل ١ : ١١). وعبَّر عن خدمته لأنسيموس بالتعبير العجيب «الَّذِي وَلَدْتُهُ فِي قُيُودِي». فهو لم يكن خادم كلام.. بل كان يلد الكلمة من أعماقه، ويلد النفوس ويتمخض بها بآلام الولادة الحقيقية كما يقول: «هكَذَا إِذْ كُنَّا حَانِّينَ إِلَيْكُمْ...كَمَا تُرَبِّي الْمُرْضِعَةُ أَوْلاَدَهَا» (٢تس ٨ ، ٧). فأين نحن من كل هذا.. أين التعب ومخاض الولادة وأين الحنان الذى تظهره الأم نحو الأطفال الصغار.. لقد افتقرنا جداً.

نعود إلى طبيعة الصلة بين القديس بولس وتلميذه فليمون التى ظهرت فى هذه الرسالة. لقد كان ممكناً للقديس بولس الرسول أن يأمر تلميذه فليمون.. أن افعل كذا وكذا.. وكان فليمون سيطيع الكلمة بكل تأكيد. ولكن القديس بولس أظهر هذا السلطان الأبوى الذى لم يستعمله، بل صار يستعطف ابنه بكلمات ملؤها النعمة، ويترجاه أن يقبل أنسيموس كشخص بولس الرسول.

وقال لفليمون: «لَمْ أُرِدْ أَنْ... يَكُونَ خَيْرُكَ كَأَنَّهُ عَلَى سَبِيلِ الاضْطِرَارِ (الأمر) بَلْ عَلَى سَبِيلِ الاخْتِيَارِ» (فل ١ : ١٤) وبطواعية وفرح الذى يسامح ويتنازل لأجل يسوع. بل إنه يقول له: «إِنْ كَانَ قَدْ ظَلَمَكَ بِشَيْءٍ، أَوْ لَكَ عَلَيْهِ دَيْنٌ، فَاحْسِبْ ذلِكَ عَلَيَّ». أية مشاعر أبوية مقدسة ورباط روحى عجيب! كيف بنى القديس بولس هذه النفوس باتضاعه الشديد وحكمته العالية.

ثم يمدح فليمون ويقول له: أنت إنسان مريح.. مدح بدون ملق وتشجيع الأب الحنون بدون تفريط فى المشاعر «لأَنَّ أَحْشَاءَ الْقِدِّيسِينَ قَدِ اسْتَرَاحَتْ بِكَ أَيُّهَا الأَخُ».

«أَرِحْ أَحْشَائِي».. قمة فى الرقة والسمو، لقد اعتبر أن قبول العبد لدى سيده سينعكس على القديس بولس بالراحة الداخلية، إذ يرى أولاده يثمرون لله.

+ ثم يعود فيتباسط مع فليمون ويعده بأغلى ما يتمناه فليمون أن يزوره القديس بولس.. لذلك قال له: «أَعْدِدْ لِي أَيْضًا مَنْزِلاً» (مكاناً للإقامة).

يقول له فى بداية الرسالة: «سَامِعًا بِمَحَبَّتِكَ، وَالإِيمَانِ الَّذِي لَكَ... لِكَيْ تَكُونَ شَرِكَةُ إِيمَانِكَ فَعَّالَةً» بهذه الكلمات المعزية ينتقل به من المحبة والإيمان النظرى إلى المحبة العملية أو «الإِيمَانُ الْعَامِلُ بِالْمَحَبَّةِ» (غل ٥ : ٦).. فهو كأنّه يقول: إن قبولك لعبدك أنسيموس ومسامحتك إياه ستشهد لإيمانك ومحبتك.

وحين يطلب من ابنه، يستعطفه كإنسان متقدم فى الأيام، وفى ذات الوقت مسجون لأجل يسوع «إِذْ أَنَا إِنْسَانٌ هكَذَا نَظِيرُ بُولُسَ الشَّيْخِ، وَالآنَ أَسِيرُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ أَيْضًا».. ما هذا الاتضاع الفائق والنعمة المتفاضلة، لأنه إذ يترجى يُظهر الأمور التى تستدر الرحمة! وهو يفعل ذلك كله لا من أجل نفسه بل من أجل أنسيموس.

ويقول لفليمون.. كان ممكناً أن أُبقى أنسيموس معى لكى يخدمنى وأنا مسجون، ولكن فضّلت أن يخدمك أنت.. وكان المفروض أنك أنت ابنى الذى تخدمنى.. لقد ارتقى القديس بولس بالعلاقات بسبب ملء الروح القدس، فتقدست إلى هذا الحد من اللطف والتنازل والحب والإيثار (تفضيل الغير على النفس) وتفضيل الآخر على الذات حتى لو كان هذا الآخر ابناً.

+ ويستطرد ويقول: «فَإِنْ كُنْتَ تَحْسِبُنِي شَرِيكًا، فَاقْبَلْهُ نَظِيرِي».. ومَنْ مِنَ الأبناء الأعزّاء إذا قرأ هذه العبارات من أبيه، بل رسول يسوع المسيح، ولا يرق قلبه وتمتلئ مآقيه (مجاري الدُّموع من العين) بالدمع الغزير؟

ما أجمل هذا السلوك المسيحى حين يصدر من الكبير.. وما أحوجنا الآن أن يوجد مثل هذا مرئياً ومسموعاً فى الحياة العملية!

+ ومن يطالع ختام رسالته إلى أهل رومية، يجد فيضاً من المشاعر المقدسة أفاضها على كثيرين من أولاده دون رياء ولا ملق. بل بصدق الروح مدح أولاده وشجعهم وذكر فضائلهم، ولاسيما الذين اعتبر أنهم أحسنوا إليه شخصياً.

اسمعه يقول: «أُوصِي إِلَيْكُمْ بِأُخْتِنَا فِيبِي، الَّتِي هِيَ خَادِمَةُ الْكَنِيسَةِ الَّتِي فِي كَنْخَرِيَا، كَيْ تَقْبَلُوهَا فِي الرَّبِّ كَمَا يَحِقُّ لِلْقِدِّيسِينَ، وَتَقُومُوا لَهَا فِي أَيِّ شَيْءٍ احْتَاجَتْهُ مِنْكُمْ، لأَنَّهَا صَارَتْ مُسَاعِدَةً لِكَثِيرِينَ وَلِي أَنَا أَيْضًا» (رو ١٦ : ١ ، ٢).

انظر كيف يمجد الخدمة ويمدحها، وكيف يصف هذه الخادمة النشيطة أنها ساعدت كثيرين، ثم يضف نفسه آخر الكل أنها ساعدته هو أيضاً.

فإن قرأت الكنيسة فى رومية هذه الكلمات من القديس بولس، فمن لا يسارع فى شركة هذه الخدمة ومؤازرة هذه الشخصية الممدوحة من القديس بولس؟.. وهكذا ربط القريبين بالبعيدين برباط حب وبذل لأجل تكميل الخدمة.

+ «سَلِّمُوا عَلَى بِرِيسْكِلاَّ وَأَكِيلاَ الْعَامِلَيْنِ مَعِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ، اللَّذَيْنِ وَضَعَا عُنُقَيْهِمَا مِنْ أَجْلِ حَيَاتِي» (رو ١٦ : ٣ ، ٤).

لم ينس القديس بولس يوماً أن هذين وضعا حياتهما باستعداد الموت من أجله. وهو إذ يقول هذا ويكرره. يرفع لدى الكنيسة من شانهما وذلك بسبب البذل وقبول الموت من أجل الآخر. وهذه أعظم قيمة استلمتها الكنيسة من شخص المسيح الذى فدانا وبذل نفسه عنا.

لذلك نقول إن المدح لم يأت جزافاً بكلمات وافتخار أهل العالم، بل ببرهان الروح وظهور الصليب واضحاً فى حياة أولاده.

+ «سَلِّمُوا عَلَى أَبَيْنِتُوسَ حَبِيبِي، الَّذِي هُوَ بَاكُورَةُ أَخَائِيَةَ لِلْمَسِيحِ» (رو ١٧ : ٥).

كم تنتعش النفس بالروح حين يذكر القديس بولس واحداً باسمه ويلصق به كلمة حبيبى.. أن يكون المخدوم هكذا مميزاً عند الأب بدون تفريق عن باقى الأخوة، وأن يذكر له أبونا القديس بولس أنه أول من آمن وأنه باكورة الكنيسة كابن بكر له..

شئ جميل ومؤثر ومشجع وله آثار لا تُمحى، سواء فى الشخص أو فى الكنيسة، إذ يخص القديس بولس كل واحد بمآثر وفضائل وحب.

+ «سَلِّمُوا عَلَى مَرْيَمَ الَّتِي تَعِبَتْ لأَجْلِنَا كَثِيرًا» (رو ١٧ : ٦).

لا يُنسى تعب المحبة عند الله، وهكذا عند القديس بولس الرسول رسول يسوع. فإن تعب المحبة ليس بتعب أرضى بجزاء أرضى.. بل هو مسجل فى السماوات مستمد من الذى تعب وبذل ذاته على الصليب محبة فينا.

وهكذا يستمر فى إعطاء السلام الرسولى إلى الأفراد والمجموعات خاصّاً كل واحد بصفة جميلة من صفات الروح: فهذا حبيبى، وهذان كانا فى المسيح قبلى، وهذه تعبت معى كثيراً.. الخ.

وهذا هو واقع الكنيسة إذ اكتملت كأعضاء حسب المسيح الواحد، وهذه ثمار الروح القدس إذا ملأ الكنيسة وأغناها. وعلى هذا المثال يجب أن تكون الرعية فى نظر الراعى، وهكذا يكون فكر الأب إذ ينظر إلى كل أولاده، وإذ الجميع يستحقون الكرامة من قِبَل الله بسبب الإيمان العامل بالمحبة فيهم.

«الْجَمِيعُ تَرَكُونِي»

قال القديس بولس لتلميذه تيوثاوس فى الرسالة: «فِي احْتِجَاجِي الأَوَّلِ لَمْ يَحْضُرْ أَحَدٌ مَعِي، بَلِ الْجَمِيعُ تَرَكُونِي. لاَ يُحْسَبْ عَلَيْهِمْ. وَلكِنَّ الرَّبَّ وَقَفَ مَعِي وَقَوَّانِي» (٢تى ٤ : ١٦ ، ١٧).

أن يتركه الجميع.. هذا أمر صعب على النفس.. هؤلاء هم أولاده الذين ولدهم فى المسيح. واعتنى بهم وربّاهم وخدمهم ووعظهم.. هم أحشاؤه وثمرة تعبه، وقد ارتبط بهم برباط المحبة الروحية كأعظم وأقدس أب. فكونهم يتخلون عنه فى ذهابه ليُحاكم من أجل يسوع، وبأجمعهم، حتى ولا واحد أو أثنين؟

لقد تأثر القديس بولس الرسول أيما تأثر وإلا ما كان كتبها لتلميذه الحبيب، ولكنه استدرك وغلَّب المحبة على النكوص، والأبوة على نزق الصبا، وطلب أن لا يحسب الرب عليهم فعلتهم. هذا السلوك العالى من رسول يسوع المسيح يوقفنا كثيراً أمام أنفسنا، وكيف نسلك إذا صرنا فى شبه هذه الحالة من التخلى من الأحباء وعدم المبالاة.

وكأنّ القديس بولس يقول – إذ التفت إلى الرب الذى وقف معه وقواه – وإن كان أحبائى وأولادى تركونى.. وقد جازت فى نفسى تلك المشاعر، ولكنى لما تَحَقّقْتُ من الذى معى ولم يتركنى، انحَسَرتْ من نفسى تلك المشاعر البشرية، وتقوّت نفسى جداً بمؤازرة المسيح يسوع، الذى تتلاشى مع حضوره كل تعزيات البشر.

+ «أَشْهَدُ لَكُمْ أَنَّهُ لَوْ أَمْكَنَ لَقَلَعْتُمْ عُيُونَكُمْ وَأَعْطَيْتُمُونِي» (غل ٤ : ١٥). هكذا شهد القديس بولس بالمحبة الفائقة التى غمرت الكنيسة فى غلاطية من جهته.. وطبعاً إن خدم القديس بولس شعباً هكذا بهذه

النعمة الفائقة، والروح العالى والبذل والحب، وكل صفاته الرسولية التى تحلّى بها من الله. فليس قليلاً أن يكون الشعب على استعداد قلبى لتقديم حتى العيون.

هكذا ينبغى أن تكون رباطات الحب. خلواً من شكل العالم الذى تتحكم فيه الذات والأنانية والمصلحة الشخصية.

هذا الحب الصافى منبعه صليب ربنا يسوع.. الحب الذى بلا غرض والمُنزّه عن الجسدانيات والماديات.. والذى نصلى أن يملأ الكنيسة ويعطرها بهذا العطر الإلهى.

فى الزهـــد:

قال القديس بولس: «... فِي كُلِّ شَيْءٍ حَفِظْتُ نَفْسِي غَيْرَ ثَقِيل عَلَيْكُمْ، وَسَأَحْفَظُهَا» (٢كو ١١ : ٩). لم يستعمل سلطانه الذى تكلم عنه بالتفصيل وقال: «أَلَعَلَّنَا لَيْسَ لَنَا سُلْطَانٌ أَنْ نَأْكُلَ وَنَشْرَبَ. أَلَعَلَّنَا لَيْسَ لَنَا سُلْطَانٌ أَنْ نَجُولَ بِأُخْتٍ زَوْجَةً» (١كو ٩ : ٤ ، ٥). وقال: «مَكْتُوبٌ فِي نَامُوسِ مُوسَى لاَ تَكُمَّ ثَوْرًا دَارِسًا. أَلَعَلَّ اللهَ تُهِمُّهُ الثِّيرَانُ؟» (١كو ٩ : ٩). ولكن هذا المكتوب فى العهد القديم كان مكتوباً عن الحصادين والعاملين فى الحصاد الإلهى. وأن الله رسم «أَنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَ (يكرزون) بِالإِنْجِيلِ، مِنَ الإِنْجِيلِ يَعِيشُونَ» (١كو ٩ : ١٤).

ولكنه بصفة شخصية قد تنازل بالكلية عن كل ما كان من حقه من قِبَلِ الله، إذ كان يتعب عاملاً بيديه نهاراً وليلاً بكد وتعب ليعول نفسه والذين معه.. وشهد لكهنة أفسس «أَنَّ حَاجَاتِي وَحَاجَاتِ الَّذِينَ مَعِي خَدَمَتْهَا هَاتَانِ الْيَدَانِ» (أع ٢٠ : ٣٤). وقال: «فِضَّةَ أَوْ ذَهَبَ أَوْ لِبَاسَ (ثياب) أَحَدٍ لَمْ أَشْتَهِ» (أع ٢٠ : ٣٣).

يا للعجب: حتى مجرد شهوة الأمور المادية فى يد المخدومين لم تأت عليه! غاية فى السمو الروحى. أليس هو الذى حلّق فى السموات ورأى «أموراً لاَ يَسُوغُ لإِنْسَانٍ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهَا» (٢كو ١٢ : ٤). إذن الزهد هنا جاء من الغنى الداخلى والتمتع بالنعمة وغنى المسيح الذى لا يستقصى.

فإن امتلكت يد الإنسان مقاليد الكنوز السماوية.. ألقى عنه كل الغنى الغير يقينى بكل سهولة. فياليت الرعاة الطالبين ملكوت الله يمتلئون من الغنى السماوى فيصيرون أمثلة للرعية.

العاملون معه:

أما من جهة أولاده الذين خدموا معه وتحت مظلة أبوته الحانية، فيتعجب الإنسان أى تعجب حينما يرى كيف كان يتعامل معهم أو يتكلم عنهم لدى الكنائس والأفراد.

+ يقول لأهل كورنثوس: «وَلكِنْ لَمَّا جِئْتُ إِلَى تَرُوَاسَ، لأَجْلِ إِنْجِيلِ الْمَسِيحِ، وَانْفَتَحَ لِي بَابٌ فِي الرَّبِّ، لَمْ تَكُنْ لِي رَاحَةٌ فِي رُوحِي، لأَنِّي لَمْ أَجِدْ تِيطُسَ أَخِي» (٢كو ٢ : ١٢ ، ١٣).

وانظر وتعجب.. تيطس تلميذه وابنه ولكنه يدعوه أخى.. إلى هذا الحد لم ترتح روح القديس بولس لأنه افتقد وجود ابنه؟ لقد كانت روحه العالية ترتاح فى المحبة وتتآزر بها. لما رجموه مرة وظنوا أنه قد مات إذ أحاط به التلاميذ قام! هذه قوة القيامة العاملة فى مؤازرة القديسين.

+ وعن أبفرودتس وهو تلميذ القديس بولس.. يقول لأهل فيليبى: «أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ أَبَفْرُودِتُسَ أَخِي، وَالْعَامِلَ مَعِي، وَالْمُتَجَنِّدَ مَعِي، وَرَسُولَكُمْ، وَالْخَادِمَ لِحَاجَتِي» (فى ٢ : ٢٥). بكل هذه الأوصاف الروحية العالية يقدم لهم ابنه.

عظيم هو هذا الروح الذى ملأ القديس بولس الرسول لكى يظهر هذه المشاعر الروحية، والسلوك الراقى فى العلاقات حتى مع أولاده! فهو أخى والعامل معى وهو رسولكم.

إن هذا لا يقلل إطلاقاً من قامة الرسول ومكانته العالية، بل على العكس يظهره أكثر لطفاً وحباً وكرماً وشهامة. أما أن يحقّر الإنسان أو الخادم أو الكاهن الأصغر، ويحط من شأنهم لكى يظل هو الكبير. فهذا السلوك ضد الإنجيل وضد روح الرسل الأطهار.

+ كان أبفرودتس مشتاقاً أن يأتى إليكم وكان مغموماً لأنكم سمعتم أنه كان مريضاً. هذه المشاعر الراقية فى السلوك المسيحى ما أبدعها.. لما سمع أن أهل فيلبى علموا بمرضه اغتم!!

العرف السائد فى العالم أن الإنسان ينتظر من الناس مواساته فى حال ألمّ به المرض أو أى نائبة من النوائب، ويحزن ويكتئب أن هذا أو ذاك لم يواسيه فى مرضه أو لم يسأل عنه فى محنته. ولكن سلوك أبفردتس هو السلوك العالى الروحى.. هو مستعد أن يخدم ويبذل ويعطى وليس عنده حاجة أن يأخذ.. لقد اغتم أنهم سمعوا بمرضه.. يا للعجب.

ويقول القديس بولس الرسول أن أبفرودتس «مَرِضَ قَرِيبًا مِنَ الْمَوْتِ، لكِنَّ اللهَ رَحِمَهُ. وَلَيْسَ إِيَّاهُ وَحْدَهُ بَلْ إِيَّايَ أَيْضًا لِئَلاَّ يَكُونَ لِي حُزْنٌ عَلَى حُزْنٍ» (فى ٢ : ٢٧). لم تُلغَ المشاعر البشرية عند القديسين.. بل تقدست. فلما مرض أبفرودتس كان حزن عند القديس بولس.. وكانت صلاة، وقد يتساءل الإنسان.. لماذا لم يشفه القديس بولس الرسول؟ إنه شفى أمراض كثيرين بل وأقام موتى.. لا تحصل المعجزات جزافاً كأنها بلا هدف.. بل تحدث بحسب مشيئة الله ولقصد، وتدبير بعيد عن أفكار الناس. فلما رحم الرب أبفرودتس وعوفى من مرضه، قال القديس بولس: إن الرب رحمنى أنا لكى لا يكون لى حزن على حزن.

فالذين يفتكرون فى القديس أفكار خيالية يجانبون الصواب.. لقد عبّر القديس بولس الرسول بصدق عما يربطه من حب للعاملين معه فى حقل الخدمة.. فحزنهم حزنه وفرحهم فرحه فى الرب. وقد اهتم بأحوالهم بالتدقيق، فأوصى تلميذه تيموثاوس من أجل معدته وأمراضه الكثيرة أن يستعمل خمراً قليلاً.. وقد حذرهم من الناس الأشرار والخدّاعين ووعّاعم من السالكين بعيداً عن الروح.. وقال: «أَعْرِضْ عَنْ هؤُلاَءِ» (٢تى ٤ : ٥).

ثم يكشف القديس بولس الرسول أن أبفرودتس «مِنْ أَجْلِ عَمَلِ الْمَسِيحِ قَارَبَ الْمَوْتَ، مُخَاطِرًا بِنَفْسِهِ، لِكَيْ يَجْبُرَ نُقْصَانَ خِدْمَتِكُمْ» (فى ٢ : ٣٠).

فالقيم العالية الروحية التى كان يتحلى بها أبفرودتس، وكذا كل العاملين مع القديس بولس، هى فى الواقع ثمرة تلقائية لتبعيتهم للقديس بولس إذ رأوا فيه الكمال المسيحى من جهة الشهامة والبذل التطوعى والخدمة حتى النَّفَس الأخير «بِمَجْدٍ وَهَوَانٍ، بِصِيتٍ رَدِيءٍ وَصِيتٍ حَسَنٍ» (٢كو ٦ : ٨). فى الأخطار والأهوال والاضطهادات.. وكيف أن من جميعها نجاه الرب. فرأوا فيه النموذج الحى الذى يجب على الخادم أن يتبعه ويتمثل به «كُونُوا مُتَمَثِّلِينَ بِي كَمَا أَنَا أَيْضًا بِالْمَسِيحِ» (١كو ١ : ١١).

وهكذا قد سلم القديس بولس هذه الروح الرسولية والإدراك الحقيقى لمعنى الكنيسة بكل أعضائها كجسد المسيح الواحد، سلمه لأولاده وأوصاهم به.

اسمعه يوصى القديس تيموثاوس «لاَ تَزْجُرْ شَيْخًا بَلْ عِظْهُ كَأَبٍ، وَالأَحْدَاثَ كَإِخْوَةٍ، وَالْعَجَائِزَ كَأُمَّهَاتٍ، وَالْحَدَثَاتِ كَأَخَوَاتٍ، بِكُلِّ طَهَارَةٍ» (١تى ٥ : ١ ، ٢).

القديس تيموثاوس وهو أسقف وتلميذ القديس بولس كان صغير السن، ولكنه مشهود له من الكنيسة كلها. سلمه القديس كيف يتعامل مع الرجال الكبار حتى إن رأى أو سمع من أحدهم ما لا يوافق أو ما لا يليق – لا تزحر شيخاً: نوع من الأدب المسيحى واللياقة.. ولكن بدون تجاوز للحق – عظه كأب.. اعتبره أبوك وكلمه بكلام للبنيان. أنت كأب وأسقف فى الروح وهو كأب وشيخ متقدم فى الأيام..

إن تزجره بغضب تسئ إليه وإلى نفسك، وإن تكلمه بكلام وعظ وتعزية تكسبه وتكسب نفسك.

– أما الأحداث فى الكنيسة: هم أولادك اقترب منهم كأخوتك أعطهم نفسك مثالاً بالحب قربهم إليك بروح الوداعة واللطف بدون تعال أو كبرياء.

– العجائز كأمهات. لقد رأى القديس تيموثاوس فى القديس بولس هذا المثال حياً معاشاً حين يسلم على واحد من أحبائه ويقول أمه أمى.

وحين يتعامل مع السيدات فى الكنيسة بهذه القيمة العالية ممجداً صفة الأمومة فى الكنيسة ومعتبراً كل واحدة كأمّه، تتنامى فى الكنيسة الفضائل والاحترام والتوقير. ألم يقل الرب يسوع: «مَنْ يَصْنَعُ مَشِيئَةَ اللهِ هُوَ أَخِي وَأُخْتِي وَأُمِّي» (مر ٣ : ٣٥).

– «وَالْحَدَثَاتِ كَأَخَوَاتٍ، بِكُلِّ طَهَارَةٍ» . وهذه أغلى الوصايا. الشابات فى الكنيسة ينظرون إليك كأب ويحبون المسيح فيك، عاملهم كأخوات. وهنا وضع الرسول بولس شرطاً أساسياً «بكل طهارة».. لقد أوصى تلميذه من جهة هذا الأمر بقوة وحزم روحيين، لكى يحفظ نفسه وعقله وفكره وجسده.

ونرى فى كل أجيال الكنيسة حين أهملوا هذه الوصية الرسولية، كيف صال الشيطان وجال وجرَّ على الكنيسة الخراب والدمار!

ليت الله ينير لنا الطريق بهذا النموذج العالى فى الخدمة والمحبة.

طقس حى

كنيستنا مجيدة حقاً، الإيمان فيها حى طالما هى تعى الإنجيل والبشارة المحيية، كما وعاها أباؤها القديسون وفسروها بالروح بالإلهام. وقدرة الكنيسة العجيبة هى أن تنقل خبر الإيمان ممتزجاً بخبرة القديسين وحياتهم خلال ما تسلمه الكنيسة لأبنائها من جيل إلى جيل.

ألحان الكنيسة ليست مجرد موسيقى، يقال عنها شرقية أو غربية، لأنها لا تنتسب إلى هذا العالم ولا إلى أساليب هذا العالم، بل هى مقدسة ولها قدرة على تقديس الفكر والذهن والعواطف. فأنت عندما تستمع إلى لحن كنسى يُقال بالروح، يثير فيك عواطف مقدسة، حتى ولو كنت تجهل معانى الكلمات أو قوة اللغة التى يقال بها.

لا يوجد شئ فى العالم يمكن أن يصل بك إلى هذه الحالة الروحية، لا توجد موسيقى تستطيع أن ترفع روحك إلى علو روحانى هكذا.

ألحان الصوم الكبير كفيلة أن توقظ فى الشعور أحاسيس الندم على الخطايا، وتدفع الإنسان إلى صدق التوبة والاعتراف.

ألحان أسبوع الآلام، من سمعها أو أمال أذنه الروحية إليها ولم يذرف الدموع؟!

أما ألحان القيامة، ففيها من البهجة والسرور الروحى ما يقيم الإنسان من التراب ومن قبور الخطايا. وهى كإشراق نور الرب فى فجر قيامته.

لقد ألهم الرب فى القديم داود، مرنم إسرائيل الحلو، كما يدعوه الكتاب. فقال مزاميره بالروح كقول الرب يسوع. ثم كان الهيكل إلهياً فى كل تفاصيله، إذ أعطى داود سليمان ابنه كل ما كان عنده بالروح بحسب المثال. وقال داود: «قَدْ أَفْهَمَنِي الرَّبُّ كُلَّ ذلِكَ بِالْكِتَابَةِ بِيَدِهِ عَلَيَّ، أَيْ كُلَّ أَشْغَالِ (أعمال) الْمِثَالِ» (١ أخ ٢٨ : ١٩)، بل أن الرب فى البداية، أَمَرَ عبده موسى رئيس الأنبياء أن يفعل كل شئ بحسب المثال الذى أراه إياه.

وهكذا كان فى الهيكل طقس للعبادة والسجود، والأعياد، وتقديم الذبائح، وطقس للتسبيح، وفرق المغنين أى المسبحين من جيل إلى جيل. ولم يكن يُسمح لأحد أن يأتى بتقدمة غريبة، غير المأمور بها فى حدود ما هو مكتوب. ولم يكن يسمح حتى للكهنة أن يأتوا بنار غريبة. ولم يكن يُسمح للكهنة أن يتصرفوا فى الذبائح بحسب هواهم، بل كانت تفاصيل تقديم الذبائح والتقدمات تحكم كل حركة فى الهيكل.

ولم يُسمع فى التاريخ القديم أن قام فرد أو جماعة ليُدخلوا تسابيح غريبة أو مزامير اخترعوها أو طرائق تسبيح أو أغانى من خارج، وحاولوا إدخالها إلى العبادة فى الهيكل.

وهكذا ظلت كنيستنا، تسلم الأمانة الأرثوذكسية، من جيل إلى جيل بلا زغل (غش)، بدون إضافات أو حذف حسب استحسان الناس، فألحان تسبحتها، وألحان قداساتها وأعيادها ومناسباتها غاية فى العمق والأصالة، وتشهد لواضعيها من الآباء أنه حقاً كان فيهم روح الله، وأنها ملهمة من فوق، هكذا شهد كل الذين تذوقوا طعم الكنيسة حتى وهم من خارج الكنيسة.

نقول هذا للذين يقللون من شأن طقس الكنيسة وألحانها، إما عن جهل بالطقس أو اللحن. ولهؤلاء نقول إن طريقة العبادة هذه – بذات الطقس الحى والألحان الكنسية الروحية – هى التى أخرجت للعالم قديسين فى كل مجالات الروح، هى التى ربت أثناسيوس شماساً وقساً وبطريركاً حامى الإيمان – ومن المعروف أن قواعد الألحان وضعت فى أيامه – وهى التى زكَّت روح النسك فى ملايين النساك والعباد فى البرارى، هم يسبحون تسابيحها الروحية ساهرين الليل كله فحولوا الأرض سماء بالتسابيح.

وطريقة العبادة فى كنيستنا بطقسها وألحانها هى التى جعلت أرواح الشهداء تحلق إلى فوق، أعلى من مستوى الآلام التى لحقت بأجسادهم، فورثت الكنيسة طقس السهر من سهر شهدائها، وألحان الفرح إدَّخرتها لأجيال الأبناء ككنز تعب فى اقتنائه الآباء.

والطامة الكبرى التى قد يُنكَبُ بها الجيل، هو السطحية فى العبادة، والجرى وراء كل ما هو جديد، وكل ما هو سهل. فأنت ترى التهافت على ألوان من التراتيل، أوزانها وموسيقاها، أقل ما يقال عنها أنها عالمية أرضية، يرقص لها غير العارفين ويروجها من لا أصالة لهم ولا صلة لهم بروح الكنيسة، يخدعون بها عقول البسطاء، وهى أقرب إلى أغانى أهل العالم. البعض ينقاد لها عن جهل، وآخرون بروح عناد وإصرار، يودون أن يصيغوا الكنيسة بهذه الصبغة الغريبة على روحها شكلاً وموضوعاً. والبعض يرى أنها نوع من التطور، عندما يستوردون من الكنائس البروتستانتية تراتيل وأوزان وطرائق عبادتهم المختلفة، وهذا فى الحقيقة شئ محزن للغاية، مؤسف أشد الأسف. ألا يعلمون أن كنيستنا بما فيها من كنوز ليست فى عوز أو احتياج.

لقد تحللت الجماعات غير الأرثوذكسية من كل ما هو أصيل، من كل طقس أو التزام، فماذا كانت النتيجة؟ هل أخرجت للعالم قديسين، وهل بنت نفوس تابعيها كما عاشت كنيستنا؟ يكفى أن نضع هذه الحقيقة شاهدة.

إن على الآباء والخدام فى الكنيسة فى أيامنا هذه تقع أعظم المسئولية، فى حفظ الأمانة وتسليمها كما تسلمناها. الأمانة هى أن تسلم الشئ كما هو عليه.. سيُدان أمام الله كل من لا يوجد أميناً.

الكنيسة، إيمانها، ومعتقداتها، طقسها، وألحانها كلها أمانة. وصوت الرب يقول: «كُنْ أَمِينًا إِلَى الْمَوْتِ فَسَأُعْطِيكَ إِكْلِيلَ الْحَيَاةِ» (رؤ ٢ : ١٠)

سبت الفرح أو سبت النور.. هكذا تدعوه الكنيسة، وهى تسمية تقليدية إيمانيّة مُعبرّة، لأنه فيه تحول حزننا إلى فرح كقول الرب، بموته المحيى على الصليب لأجل خلاصنا، «أَنَّهُ إِنْ كَانَ وَاحِدٌ قَدْ مَاتَ لأَجْلِ الْجَمِيعِ، فَالْجَمِيعُ إِذًا مَاتُوا» (٢كو ٥ : ١٤)، وقد وفَّى الديون عنا، وقد محا صك خطايانا الذى كان ضداً لنا وقد رفعه من الوسط مسمراً إياه بالصليب، وقد جرّد الرئاسات والسلاطين الروحية من قوتها وسطوتها وسلطانها، وكسر قوة الظلمة المتملكة على جنس البشر وأشهرهم جميعاً جهاراً فى وسط نهار صليبه ظافراً بهم فيه.

فساعتها أظلمت الشمس إذ غطى عليها نور الصليب، وصار نور شمس البر سبعة أضعاف كقول إشعياء فصيح الأنبياء، نعم صارت ظلمة على الأرض كلها من الساعة السادسة حتى الساعة التاسعة، كانت «هذِهِ سَاعَتُهُمْ وَسُلْطَانُ الظُّلْمَةِ» (لو ٢٢ : ٥٣).. فلما أكمل الرب القضية عنا، مات الموت، وملكت الحياة على الصليب «الرب قد ملك على خشبة» كقول المزمور(٩٦ : ١٠). وانتهى سلطان الظلمة، وعاد إشراق نور شمس البر الذى حجبته الخطايا، فانشق حجاب الهيكل إلى اثنين من فوق (أى من ناحية الله) إلى أسفل (أى ناحية الإنسان). وكمل قول النبى: «وَلَكُمْ أَيُّهَا الْمُتَّقُونَ اسْمِي تُشْرِقُ شَمْسُ الْبِرِّ وَالشِّفَاءُ فِي أَجْنِحَتِهَا» (ملاخى ٤ : ٢). حقاً قال القديس بولس الرسول: «لأَنَّكُمْ كُنْتُمْ قَبْلاً ظُلْمَةً، وَأَمَّا الآنَ فَنُورٌ فِي الرَّبِّ» (أف ٥ : ٨).

هو إذن سبت الفرح الروحانى، الذى ما بعده فرح، وهو سبت النور الحقيقى الذى ينير كل إنسان، وهو السبت الكبير الذى ارتاح فيه الرب من أعماله خالقاً خليقته الجديدة فى جسده الذى هو الكنيسة.

فى ختام يوم الجمعة العظيمة، حيث تجسد الكنيسة كل شئ، وتجعل أحداث الخلاص حاضرة معاشة، ليحياها كل واحد، لا بسمع الكلام فحسب، حيث القراءات ساعة بساعة من عتيق النبوات إلى تكميلها بالتمام فى بشارة الأناجيل، بل يجعل الطقس الحى هذه الأحداث أقرب إلى الحواس، أقرب إلى العيش، ويدخل الذين يمارسونه بالروح إلى السمائيات عينها.

صلوات الدفن ولحن جلجثة:

تُدفن أيقونة الصلبوت فى الورود، والحنوط، وكأن يوسف ونيقوديموس يشاركون الكنيسة فى كل أجيالها، ويرتفع لحن الجلجثة، معزياً عجيباً، يردد ذات التسبيحات الشاروبيمية، قدوس الله.. قدوس القوى الذى لا يموت.. الذى صُلب عنا ارحمنا.. ونحن أيضاً نسجد له صارخين قائلين: ارحمنا يا الله مخلصنا الذى صُلبت على الصليب وسحقت الشيطان تحت أقدامنا.. خلصنا وارحمنا.

ثم توضع شمعتان مثال الملاكين. واحد عند الرأس وآخر عند الرجلين. ثم يقرأون المزمور الأول والثانى والثالث الذى يحوى هذه النبوة الغالية: «أَنَا اضْطَجَعتُ ونِمْتُ، ثمَّ اسْتَيقظْتُ»، الذى هو موت المسيح وقيامته. ولكن الطقس يقول إن الكاهن يقرأ هذا المزمور علانية إلى كلمة «أَنَا إضْطَجَعتُ ونِمْتُ» فقط. – يكمل المزمور «ثمَّ اسْتَيقظْتُ» فى ساعة القيامة فى قداس العيد –. ثم يقرأون سفر المزامير المائة والخمسين مزموراً التى حوت كل النبوات عن تجسد الكلمة الأزلى، وكل أعماله الخلاصية وآلامه وموته المحيى وقيامته الظافرة من الأموات.

وإذ كمّل الرب على الصليب كل شئ، وقال قد أُكمل، وبالأكثر ما هو مكتوب عنه فى سفر المزامير، إذ نطق مطلع المزمور «إِلهِي، إِلهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟» وهو بعد على الصليب، لذلك فنحن حينما نقرأ المزامير بالصلاة والطلبة أمام الذى قبل الآلام عنا، نؤمن أنه أكمل لنا كل ما هو للحياة والتقوى، وكل مواعيده الإلهية من نحونا قد حققها لنا بموته المحيى.

عودة إلى الكنيسة:

نعود إلى الكنيسة بعد نهاية جمعة الآلام، لنقضى أحلى وأجمل ليالى السنة الروحية فى الكنيسة، ليلة سبت الفرح، فنرى الكنيسة وقد خلعت عنها شارات الأحزان، وقد كساها رداء التسبيح المفرح، وتزينت كعروس مهيأة لعريسها، جدران الكنيسة، وأبوابها، وأيقوناتها اكتست بزينة مقدسة. وتباشير أفراح القيامة تبدو ظاهرة لأول وهلة، لا تخطئها عين.

فحينما تدلف أقدامنا أبواب البيعة تسرى فى القلب بهجة عجيبة، تذهب بكل أوجاع الأحزان من النفس وتحول الحزن الذى جزناه طوال الأسبوع فى شركة آلام الرب المخلصة، يتحول الحزن هكذا إلى فرح روحانى لا يُنطق به ومجيد.

تبدأ العبادة، بأن يلبس رئيس الكهنة والكهنة برانسهم، ويقف رئيس الكهنة ويفتح ستر الهيكل ويقول المزمور الأخير استكمالاً لما قرأوه من ساعات قبل. والمزمور الأخير ١٥١ هذا نصه:

أَنَا كُنْتُ صَغِيرًا فِي إِخْوَتِي، وَحَدَثًا فِي بَيْتِ أَبِي، كُنْتُ رَاعِيًا غَنَمَ أَبِي.
يَدَايَ صَنَعَتَا الْأُرْغُنَ، وَأَصَابِعِي أَلِفَتْ الْمِزْمَارَ. أَلِّليلُويَاه.
مَنْ هُوَ الَّذِي يُخَبِّرُ سَيِّدِي، هُوَ الرَّبُّ الَّذِي يَسْتَجِيبُ لِلَّذِينَ يَصْرُخُونَ إِلَيْهِ.
هُوَ أَرْسَلَ مَلاَكَهُ، وَحَمَلَنِي مِنْ غَنَمِ أَبِي وَمَسَحَنِي بِدُهْنِ مَسْحَتِهِ. أَلِّليلُويَاه.
إِخْوَتِي حِسَانٌ وَكِبَارُ وَالرَّبُّ لَمْ يُسَرُّ بِهِمْ.
خَرَجْتُ لِلِقَاءِ الْفِلِسْطِينِيُّ فَلَعَنَنِي بِأَوْثَانِهِ.
فاسَتليّتُ سَيْفَهُ الَّذِي كَانَ بِيَدِهِ، وَقَطَعْتُ رَأْسَهُ عنه.
وَنَزَعْتُ الْعَارَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. أَلِّليلُويَاه.

ولهذا المزمور لحن خاص يؤدى به، والليلوياه المزمور غاية فى السمو والإبداع الروحى، شئ لا يوصف حقاً، ولكنه مذاقة عجيبة تمتع بها الكنيسة أحباءها، وتنعش نفوسهم بأريج القيامة ونصرة المسيح، لحن سمائى جميل ونغم ملائكى لا يعبر عنه.

أرجو بالرب أن يتمتع به كل قارئ، وإن لم تكن تعرفه، اطلبه استمع إليه، تعرف عليه، أعطِ روحك فرصة التمتع بشركة القديسين، فى عمق العبادة الرزينة فى الكنيسة، والأصالة فى التعبير عن نعم الخلاص.

تبدأ تسابيح الليلة، بترتيل هذا المزمور، وهو مزمور خلاص مقتدر صنعه الرب الإله بداود مختاره، وهو بعد فتى صغير. كان العدو جليات الفلسطينى رهيباً فى منظره، مخيفاً فى هيئته، طوله ستة أذرع وشبر(حوالى ٣ متر). ملابسه الحربية مفزعة يكفى أن يضيف الكتاب أن رمحه الذى بيده كان كنول النسّاجين، ضخامة مفزعة. بينما داود، كان فتى صغيراً، غير متدرب فى الحروب، وهو على ما يبدو راعى غنيمات صغيرة. لا يملك ظاهرياً شيئاً من القوة. كان العدو المخيف يصعد أربعين يوماً يعيّر صفوف الله الحى، ولم يكن أحد يجرؤ أن يقترب إليه. ولما سمع داود هذا التعيير، قال: «مَنْ هُوَ هَذَا ٱلْفِلِسْطِينِيُّ ٱلْأَغْلَفُ حَتَّى يُعَيِّرَ صُفُوفَ ٱللهِ ٱلْحَيِّ؟» (١صم ١٧). واقترب داود واقتحم دوائر القتال، لا بسيف ولا برمح ولكن باسم رب الجنود، بقوة ليست من هذا العالم. وضرب الفلسطينى بحصاة من مقلاعه. فارتزت الحصاة فى جبهة جليات ووقع صريعاً، فركض إليه داود واستل سيفه الذى كان بيده وقطع رأسه ونزع العار عن بنى إسرائيل.

القصة كلها بتفاصيلها، كانت رمزاً للخلاص الذى صنعه الرب يسوع المسيح مخلص العالم كله، الذى سحق الشيطان المتجبر (جليات الروحى) وبسيفه الذى قتل الجميع، قتله الرب.. بالموت داس الموت، وخلص شعبه من قبضته بجبروت يمين خلاصه، هكذا نزع العار عن شعبه (عار الشعوب الخطية). ما أجمل الرمز فى هذا المزمور، وما أكمل الحقيقة التى نعيشها بالمسيح الذى يقودنا فى موكب نصرته كل حين. على أثر موت جليات، اندحرت جيوش الفلسطينيين فارين وهاربين إذ انكسر جبارهم. وكان أن النساء خرجت من جميع مدن إسرائيل بالغناء والرقص بدفوف وفرح وبمثلثات، هو تسبيح تلقائى نابع من الفرح بالخلاص.

وهكذا إذ ينتهى رئيس الكهنة من ترتيل المزمور ١٥١ بباب الهيكل، أنه يلف سفر المزامير فى لفافة كتان بيضاء ويطوفون البيعة مسبحين بفرح الخلاص الحقيقى الذى صنعه الرب، قائلين بلحن شجى بديع:

+ فلنشكر، المسيح إلهنا، مع المرتل، داود النبي. لأنه خلق السموات، وجنودها، وأسَّس الأرض، على المياه.

+ هذان الكوكبان العظيمان، الشمس والقمر، جعلهما ينيران، في الفلك. أخرج الرياح، من خباياها، نفخ في الأشجار، حتى أزهرت.

+ أمطرا مطراً، على وجه الأرض، حتى أنبتت، وأعطت ثمرها. أخرج ماء، من صخرة صماء، وسقى شعبه، في البرية.

+ صنع الإنسان، كشبهه، وصورته، لكي يباركه. فلنسبحه، ونرفع اسمه، ونشكره لأن رحمته، كائنة إلى الأبد.

+ بصلوات، المرتل داود، يا رب أنعم لنا، بمغفرة خطايانا. بشفاعات، والدة الإله، القديسة مريم، يا رب أنعم لنا، بمغفرة خطايانا.

+ بشفاعات، كل صفوف الملائكة، يا رب أنعم لنا، بمغفرة خطايانا. مبارك أنت بالحقيقة، مع أبيك الصالح، والروح القدس، لأنك قُمت وخلصتنا.

وقد سألنى أحد الأحباء قائلاً: ما هو الغرض من لف سفر المزامير بالحرير ويرفعه الكاهن على رأسه ويطوف به البيعة هكذا؟ فأجبته قائلاً: لقد عاشت الكنيسة طوال أسبوع الآلام تتعزى بألحان المزامير وتتغذى من معانيها النبوية الفائقة للعقل من نحو آلام مخلصنا. فالذى قدم للكنيسة هذا الغذاء الروحى ألا يُلف بالحرير ويُرفع فوق الرأس ويُطاف به فى البيعة، تمجيداً وعرفاناً بالجميل وتكريماً لروح النبوة!!

حقاً إن كنيستنا مجيدة فى طقسها.

وبعد أن يطوفوا البيعة بالتسبيح والترتيل مع داود النبى، الحسن فى الترتيل، يجيئون إلى مكان التسبيح ويبدأون بتسبيح الهوس (التسبيح) الأول، وهو تسبحة موسى عبد الرب المكتوبة فى خروج ١٥. الواقع أن التسبحة اليومية على مدار السنة تبدأ بهذه التسبحة، تسبحة عبور البحر، تسبحة الخروف المذبوح، والفداء بالدم. تسبحة المعمودية وانكسار فرعون العقلى وغرقه فى مياه البحر، تسبحة الفصح أى العبور من العبودية إلى الحرية:

العبور من الموت إلى الحياة..

العبور من الظلمة إلى النور..

العبور من الجحيم وكور الحديد إلى الرحب وأرض الموعد..

العبور من الخوف والمذلة إلى الطمأنينة والنعمة..

إنها قصة الخلاص ذاتها، وهى رمز بديع لعمل إلهى صنعه المسيح بدمه على الصليب، إذ هو فصحنا الذى ذُبح لأجلنا.. وهو الذى عبر بنا من الموت إلى الحياة.. وخلص المؤمنين به من قسوة فرعون العقلى (الشيطان).

تعالوا نسبح الرب لأنه بالمجد تمجد..

الفرس وراكبه طرحهما فى البحر..

بالقطع انقطع ماء البحر..

صنع الرب طريقاً لشعبه – حديثاً كرّسه بالحجاب أى بجسده (أنا هو الطريق)..

شق البحر بالعصا – أى بصليبه صنع الخلاص.

الخلاص غير المتوقع صنعه الرب بيمينه المعتزة..

من فى الآلهة يشبهك، يا رب من مثلك!!

نزل إلى الجحيم

«فَإِنَّ ٱلْمَسِيحَ أَيْضًا تَأَلَّمَ مَرَّةً وَاحِدَةً مِنْ أَجْلِ ٱلْخَطَايَا، ٱلْبَارُّ مِنْ أَجْلِ ٱلْأَثَمَةِ، لِكَيْ يُقَرِّبَنَا إِلَى ٱللهِ، مُمَاتًا فِي ٱلْجَسَدِ وَلَكِنْ مُحْيىً فِي ٱلرُّوحِ، ٱلَّذِي فِيهِ أَيْضًا ذَهَبَ فَكَرَزَ لِلْأَرْوَاحِ ٱلَّتِي فِي ٱلسِّجْنِ، إِذْ عَصَتْ قَدِيمًا، حِينَ كَانَتْ أَنَاةُ ٱللهِ تَنْتَظِرُ مَرَّةً فِي أَيَّامِ نُوحٍ، إِذْ كَانَ ٱلْفُلْكُ يُبْنَى، ٱلَّذِي فِيهِ خَلَصَ قَلِيلُونَ، أَيْ ثَمَانِي أَنْفُسٍ بِٱلْمَاءِ. ٱلَّذِي مِثَالُهُ يُخَلِّصُنَا نَحْنُ ٱلْآنَ، أَيِ ٱلْمَعْمُودِيَّةُ. لَا إِزَالَةُ وَسَخِ ٱلْجَسَدِ، بَلْ سُؤَالُ ضَمِيرٍ صَالِحٍ عَنِ ٱللهِ، بِقِيَامَةِ يَسُوعَ ٱلْمَسِيحِ، ٱلَّذِي هُوَ فِي يَمِينِ ٱللهِ، إِذْ قَدْ مَضَى إِلَى ٱلسَّمَاءِ، وَمَلَائِكَةٌ وَسَلَاطِينُ وَقُوَّاتٌ مُخْضَعَةٌ لَهُ» (١بط ٣ : ١٨ – ٢٢).

المسيح نزل إلى الجحيم من قبل الصليب، نزل فكرز للأرواح التى فى السجن فى قبضة العدو، الشيطان روح الظلمة، ملك الخطية – دخل الموت إلى جميع الناس وبلا استثناء – لأنه أُغلق على الكل تحت الخطية، لقد قيل «مَلَكَ ٱلْمَوْتُ مِنْ آدَمَ إِلَى مُوسَى(أى قبل الناموس)» (رو ٥ : ١٤). وقيل عن الشيطان إنه رئيس هذا العالم، أُخضعت الخليقة له ليس طوعاً، وصارت الخليقة كلها تئن وتتمخض معاً.

جميع أرواح الأبرار من آدم إلى المسيح كانت تحت قبضته، محكوماً عليها إذ حصلت فى التعدى، وأغلق عليها فى دوائر الظلمة. الموت هو أجرة الخطية، والموت شمل الكيان الإنسانى كله جسداً ونفساً وروحاً. موت الجسد هو انحلاله ورجوعه إلى التراب الذى أُخذ منه. أما موت الروح والنفس هو انفصالها عن سر حياتها، وبُعدها عن مصدر وجودها، وانحجابها بالظلمة عن التمتع بالنور. هذا هو الموت الذى قاساه الأبرار بالأكثر.

صارت نفوسهم مقيدة تنتظر الانطلاق.. صارت أرواحهم ترزح تحت نير الظلم، رغم اشتياقهم للنور.. صاروا فى قبضة إبليس، مسجونة أرواحهم ومحروسة بقوات الظلمة، كما فى سجن محكم ومشدد الحراسة. الفرق بين أرواح الآباء، الأبرار والصديقون، وبين الأرواح الشريرة كان كمثل من تجمعهم أسوار سجن واحد، بعضهم ينتظر الإفراج والخلاص وآخرون محكوم عليهم بسجن مؤبد، لا خروج منه ولا رجاء ولا بصيص أمل فى النجاة.

هكذا كانت أرواح الصديقين تنتظر. لقد عاشوا فى الإيمان. لقد قضوا أيامهم فى الرجاء. قال عنهم القديس بولس الرسول وهو يستعرض حياتهم فى الإيمان: «وَمَاذَا أَقُولُ أَيْضًا. لأَنَّهُ يُعْوِزُنِي الْوَقْتُ

إِنْ أَخْبَرْتُ عَنْ جِدْعُونَ، وَبَارَاقَ، وَشَمْشُونَ، وَيَفْتَاحَ، وَدَاوُدَ، وَصَمُوئِيلَ، وَالأَنْبِيَاءِ، الَّذِينَ بِالإِيمَانِ قَهَرُوا مَمَالِكَ، صَنَعُوا بِرًّا... فَهؤُلاَءِ كُلُّهُمْ، مَشْهُودًا لَهُمْ بِالإِيمَانِ، لَمْ يَنَالُوا الْمَوْعِدَ» (عب ١١ : ٣٢ – ٣٩).

فى الإيمان مات هؤلاء أجمعون، وهم لم ينالوا المواعيد، بل من بعيد نظروها وصدقوها وحَيوْها وأقروا أنهم غرباء ونزلاء على الأرض.

نــزل إلــى الجحيــم:

هذا هو عمل المخلص، وهذا هو يوم الخلاص العتيد. استمع إلى إشعياء الإنجيلى يصف كيف يُخلِّص الرب نفوس المحبوسين فى الجحيم «أَنَا الرَّبَّ قَدْ دَعَوْتُكَ بِالْبِرِّ، فَأُمْسِكُ بِيَدِكَ وَأَحْفَظُكَ وَأَجْعَلُكَ عَهْدًا لِلشَّعْبِ وَنُورًا لِلأُمَمِ، لِتَفْتَحَ عُيُونَ الْعُمْيِ، لِتُخْرِجَ مِنَ الْحَبْسِ الْمَأْسُورِينَ، مِنْ بَيْتِ السِّجْنِ الْجَالِسِينَ فِي الظُّلْمَةِ» (٤٢ : ٦ ، ٧)، «وَفِي يَوْمِ الْخَلاَصِ أَعَنْتُكَ. فَأَحْفَظُكَ وَأَجْعَلُكَ عَهْدًا لِلشَّعْبِ... قَائِلاً لِلأَسْرَى اخْرُجُوا. لِلَّذِينَ فِي الظَّلاَمِ: اظْهَرُوا... إلى آخر الأصحاح» (٤٩ : ٨ – ٢٦).. كيف ينقلهم من ظلام الحبس إلى المراعى الخضر حيث «لاَ يَجُوعُونَ وَلاَ يَعْطَشُونَ، وَلاَ يَضْرِبُهُمْ حَرٌّ وَلاَ شَمْسٌ، لأَنَّ الَّذِي يَرْحَمُهُمْ يَهْدِيهِمْ وَإِلَى يَنَابِيعِ الْمِيَاهِ يُورِدُهُمْ».

«رُوحُ السَّيِّدِ الرَّبِّ عَلَيَّ، لأَنَّ الرَّبَّ مَسَحَنِي لأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ، أَرْسَلَنِي لأَعْصِبَ مُنْكَسِرِي الْقَلْبِ، لأُنَادِيَ لِلْمَسْبِيِّينَ بِالْعِتْقِ، وَلِلْمَأْسُورِينَ بِالإِطْلاَقِ» (اش ٦١ : ١). بل أن المرنم يصرخ متضرعاً مخاطباً المخلص القادر قائلاً: «يَا رَاعِيَ إِسْرَائِيلَ، اصْغَ، يَا قَائِدَ يُوسُفَ كَالضَّأْنِ، يَا جَالِسًا عَلَى الْكَرُوبِيمِ أَشْرِقْ. قُدَّامَ أَفْرَايِمَ وَبِنْيَامِينَ وَمَنَسَّى أَيْقِظْ جَبَرُوتَكَ، وَهَلُمَّ لِخَلاَصِنَا. يَا اَللهُ أَرْجِعْنَا، وَأَنِرْ بِوَجْهِكَ فَنَخْلُصَ» (مز ٨٠ : ١ – ٣). ويعود مكرراً ذات العبارة بعد أن بلغ هُزء الأعداء مداه «أَعْدَاؤُنَا يَسْتَهْزِئُونَ (بنا) بَيْنَ أَنْفُسِهِمْ. يَا إِلهَ الْجُنُودِ أَرْجِعْنَا (إلى الفردوس – إلى حالتنا الأولى –)، وَأَنِرْ بِوَجْهِكَ فَنَخْلُصَ (نور القيامة)» (مز ٨٠ : ٧). ينتهى المزمور متوسلاً فى ثقة الرجاء، المتحرق شوقاً إلى الحياة باسم ابن الله «أَحْيِنَا فَنَدْعُوَ بِاسْمِكَ. يَا رَبُّ إِلهَ الْجُنُودِ، أَرْجِعْنَا. أَنِرْ بِوَجْهِكَ فَنَخْلُصَ» (مز ٨٠ : ١٨ ، ١٩).

من يستطيع أن يصف شوق المحبوسين إلى يوم الانطلاق وساعة الافراج.. شئ لا يعبر عنه!!

دهور من الظلمة، والسجن كل يوم يكتظ بالمحبوسين، ولكن لم يضعف رجاء القديسين ولم يخشوا سلطان الظلام، إذ لم يذعنوا له وهم فى الجسد ولا أطاعوه بالإرادة، إذ كان ناموس الله مسرتهم فى داخل أرواحهم، ولو أن ناموساً آخر كان يعمل فى أجسادهم يسبيهم سبياً كقول الرسول بولس (رو ٧ : ٢٣).

لقد قيل عن مخلصنا الصالح إنه «خَرَجَ غَالِبًا وَلِكَيْ يَغْلِبَ» (رؤ ٦ : ٢). كيف نزل إلى أقسام الأرض السفلى كقول الرسول؟ بأى جَبَرُوت وقوة واقتدار إلهى. فزعت الأرواح الشريرة فى أيام تجسده وهو قد أخلى ذاته آخذاً شكل العبد، والأرواح النجسة حين رأته خرت وارتعدت «وَهِيَ تَصْرُخُ وَتَقُولُ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ. فَانْتَهَرَهُمْ وَلَمْ يَدَعْهُمْ يَتَكَلَّمُونَ (ينطقون)» (لو ٤ : ٤١). فماذا كان حالهم، إذ نزل إليهم إلى حصون سجن الظلام؟

تزعزت أساسات عتب الهيكل عندما سمع إشعياء تسبيح الشاروبيم حول الرب الجالس على كرسيه العالى فى هيكله. فماذا حدث عندما اقتحم الرب الغالب أسوار سجن الموت، الذى داس المعصرة وحده، وانتقم نقمة جبارة من قتَّال الناس، نزل فتزلزلت الأرض، تشققت القبور، انهارت متاريس النحاس وأبواب الحديد، التى هى رمز لقبضة الشيطان وسلطان الظلام.

من يبشر المسبيين؟ جاء العريس، الختَن الحقيقى. لم يكن للموت سلطان أن يمسكه.. اعتدى الموت على الحياة بغير وجه حق.. اعتدى الموت على غير المائت.. شوكة الموت حاولت أن تؤذى غير الخاطئ فانكسرت.

غرسوا فى جبينه إكليل شوك، وحسك انبتته الأرض بالخطية.. رضى أن يحمل وخز الشوك فى جسده ولكن هو غير مجرب بالشرور، وليس فيه خطية. رئيس هذا العالم له فى كل واحد شئ، أما المسيح وحده فقال: «رَئِيسَ هذَا الْعَالَمِ يَأْتِي وَلَيْسَ لَهُ فِيَّ شَيْءٌ» (يو ١٤ : ٣٠).

يوم النقمة قد جاء.. يوم الرجوع إلى الفردوس قد أشرق.. يا للفرح العجيب عندما أشرق الرب بوجهه على أبينا آدم وأمنا حواء.. عاد الأصل يشرق على الصورة يجددها ويحييها.

انهضوا.. انهضوا أيها الآباء والصديقون والأبرار وكل من عاش ومات على الرجاء. «انهضوا من بعد جلوسكم يا آكِلِي الخُبْزَ بالهُمومِ» (مز ١٢٧ : ٢).. «قُومِي اسْتَنِيرِي لأَنَّهُ قَدْ جَاءَ نُورُكِ (فقد جاء مخلصك)، وَمَجْدُ الرَّبِّ أَشْرَقَ عَلَيْكِ» (إش ٦٠ : ١).

لا يستطيع قلم أن يعبر عن المشاعر التى لاقى بها يعقوب أب الأسباط ابنه يوسف الذى كان معتبراً ميتاً، قال الكتاب: «وَلَمَّا ظَهَرَ لَهُ وَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَبَكَى عَلَى عُنُقِهِ زَمَانًا» (تك ٤٦ : ٢٩). إن كانت هذه المشاعر البشرية لا يمكن أن يُعبّر عنها، فكم وكم تكون رأفات حنان وأحشاء مخلصنا، المصدر اللانهائى والمذخر فيه كل كنوز الحب، عندما أشرق بوجهه على قديسيه وأبراره المختارين وهم كانوا موتى بالخطايا، محبوسين فى الظلمة معدودين مع الهالكين.

وقع على عنقهم يقبل ويخلص، يفك من القيود وينجى من الأسر، الموت لا يوجد فيما بعد، الحزن والهم كلاهما مضى، لا ظلام ولا شبه ظلام، ولا فرقة ولا قطيعة، بل صانع السلام، صالح الأرضيين مع السمائيين، وجعل الاثنين واحداً. لا حجاب ولا حاجز، بل رفعه من الوسط مسمراً إياه على الصليب.

أى شكر يستطيع به القديسون أن يتقربوا إلى الله. إنه الشكر الذى يسبحون به إلى الأبد وإلى أبد الأبد، لأنه افتداهم بدمه واشتراهم بذبيحة نفسه وخلصهم وفكهم بجبروت خلاص يمينه.

بهذه الكلمات البسيطة نود أن نشير، مجرد إشارة إلى العمل الخلاصى المقتدر الذى لم تُعلن أسراره، إلا فى كلمات قليلة كتبها الرسل الأطهار كما أوحى إليهم، وترجمتها الكنيسة فى طقس ليلة سبت الفرح، التى إذا عشناها بالروح نستطيع أن ندرك الذى من أجله أدركنا المسيح.

بعد أن أكمل المسيح الفداء على الصليب، ومات بالجسد وانفصلت نفسه عن جسده، إذ لاهوته لم ينفصل قط لا من نفسه ولا من جسده. أنزلوه عن الصليب ووضعوه فى القبر الجديد الذى ليوسف الرامى الرجل القديس، أما النفس المتحدة باللاهوت فقد ظن الشيطان أنها كباقى البشر الذين فى حال موتهم فإنه يقبض على النفس ويستودعها سجن الأرواح، كصاحب سلطان، إذ أُخضعت البشرية نفسها له بطاعة الغواية ومخالفة وصية الله.

فلما هم الشيطان بالقبض على نفس ابن الله القدوس الذى بلا خطية، ظاناً أنه خاضع لسلطانه، إذا أُغلق على الكل تحت الخطية.. صار الشيطان متعدياً على المسيح البرئ بغير حق، وهنا صار الشيطان تحت وطأة دينونة عادلة، إذ صار متعدياً على الحق. وهنا سحقه المسيح وكسر شوكة الموت وسحق سلطان الجحيم. ويقال إنه كسر أبواب السجن ومتاريسه الحديدية والنحاسية (كرمز عن ما كان حادثاً روحياً إذ أن الشيطان كان بقبضة قوية يحجز الأرواح فى حبسه كصاحب ولاية على البشرية الساقطة فى يده والمطيعة لغوايته).

ولما انكسر سجن الأرواح هذا الذى يقال له الجحيم، كما نقول فى القداس الإلهى عن ربنا إنه نزل إلى الجحيم من قِبل الصليب. فهو لم ينزل كسجين يضاف إلى قائمة الأسماء التى فى السجن، بل نزل كمخلص للمسبيين ومقيم الموتى ومُنهض الذين طال بهم الزمن فى انتظار الفادى والمخلص. فلما انكسر السجن انفلتت بعض أرواح الأبرار وقامت بالفعل لابسة أجسادها كعربون القيامة التى صنعها المسيح ابن الله.

وقد ترجمت كنيستنا المقدسة هذا الإيمان إلى ممارسة فى العبادة والتسبيح لصانع الخلاص ومقيم نفوسنا من الفساد. وذلك فى ليلة من أشهى ليالى العمر. بل قُل إنها السماء بعينها، يحياها المفديون

كعربون حقيقى لملء القيامة فى المسيح يسوع. وهذا ما نحياه فى سبت الفرح فى طقس حى مشبع يملأ النفس عزاء وسروراً.

فما أن مات المسيح وصنع الفداء حتى سرت الحياة فى جسد البشرية الميت. فموت المسيح محيى، لأنه بالموت داس الموت. لذلك تُحضِر الكنيسة فى هذه الليلة جميع النفوس التى حصلت على القيامة من الموت تحت الرموز والظلال فى العهد القديم، تحضرهم ليقوموا بالتسبيح كباكورة المفديين.. لقد تمتعوا بالخلاص قبل الأزمنة، هؤلاء صرفوا مقدماً من رصيد موت المسيح وقيامته الذى كان مخزوناً عند الله، وأُظهر لنا فى ملء الزمان بتجسد الكلمة الأزلى، وقد صار لنا بصليبه الحق فى بره الذى ستر به خطايانا.. وليس خطايانا فقط بل خطايا العالم كله. فموسى عبد الرب الذى قاد العبور العظيم بشعب الله وعمّدهم فى البحر الأحمر والسحاب. وصنع الفصح وعبر ملاك الموت فلم يمس الأبكار، يقف ليسبح تسبحته فى وسط الكنيسة.

فإن راجعتها جميعاً ستجدها قصص خلاص وقيامة من الموت بصورة مختلفة، بقوة إلهية فائقة واقتدار الله، يسندها إيمان الأبرار فى الله الذى يقيم من الأموات. وهكذا كأن الكنيسة تختزل الزمن وتُحضر جميع الذين ترجّوا الخلاص وتشهد لهم كيف نالوا.. قبل الأوان من الخلاص الأبدى الذى صنعه المسيح بالصليب.

هنا يبدو حقاً أن المسيح له المجد جمع كل شئ فى نفسه، ومنه وبه قد صار الكل، وهو رأس جسد الكنيسة سواء فى القديم أو الحديث لا فرق.

تفتح الكنيسة خورس التسبيح بإمام المسبحين داود حين يقف فى الوسط ويرنم مزمور الغلبة على جليات، الذى هو رمز للعدو المتجبر، الذى عيّر صفوف الله الحى، ليس لأربعين يوماً بل منذ البدء.

ومن بعدهم كل من نالوا عربون القيامة، فتأتى تسبحة الثلاثة فتية الذين حصلوا على حياة فى وسط الأتون وصارت النار عادمة القوة بالنسبة لهم. وحنة أم صموئيل التى أخذت حياة من مستودع ميت وسبحت قائلة: الرب يميت ويحيى.

وتقف أيضاً سوسنة العفيفة فتشهد كيف سيقت إلى الموت من قضاة الظلم أولاد اللعنة ونسل كنعان، ثم كيف تخلصت ونالت حياة كأنها قيامة على يد دانيال النبى. وهكذا باقى أبرار العهد القديم كحزقيا الملك الذى بعد أن صدر حكم موته عاد فحصل على حياة جديدة خمسة عشر عاماً. ومنسى الملك بالتوبة كيف تجددت حياته..

«هؤُلاَءِ أَجْمَعُونَ، وَهُمْ لَمْ يَنَالُوا الْمَوَاعِيدَ، بَلْ مِنْ بَعِيدٍ نَظَرُوهَا وَصَدَّقُوهَا وَحَيُّوهَا» (عب ١١ : ١٣)، نالوا عربون القيامة قبل الأزمنة.

وكأنَّ الكنيسة فى هذه الليلة تعرض لأعضاء مكرمة ومقدسة فيها نالت عربون الملكوت وماتت على الرجاء، ولكنها حية بالمسيح، بل أحياها المسيح بموته وأقامها بقيامته.

الليلة إذن ليلة خلاص والتمتع بعمل الصليب، لكل من جاز الرجاء والإيمان، ولكل من يدعو باسم الرب مخلصنا.

ثم بعد أن تكمل التسابيح تنفتح أبواب السماء، لقد فتح المسيح باب الفردوس وأعاد آدم وبنيه، كما قال يوحنا الرائى: «وَإِذَا بَابٌ مَفْتُوحٌ فِي السَّمَاءِ» (رؤ ٤ : ١). فتضع الكنيسة سبع منائر ويكون القسوس جالسين على كراسيهم على رسم الطغمة السمائية المؤلفة من الأربعة وعشرين قسيساً. ويُرفع البخور من المجامر كما وُرد ذكر ذلك فى السماء. ويُكرر السجود متواتراً كما قدمت القوات السمائية سجودها للجالس على العرش.

أما ألحان هذا اليوم فهى تسرى فى الكنيسة كسريان الحياة ذاتها وهى تتحول من حزن الآلام إلى نصرة القيامة وفرح القيامة وهى أشبه بانقشاع الظلمة وبزوغ الفجر.

فهيا نحيا بالروح الواحد مع جماعة القديسين الذين أشرق الرب عليهم.. هيا نعى تسبيحهم وما حوى من عناصر الإيمان والرجاء الذى به.

مسكين هو الإنسان الذى لا يتنعم بهذا الميراث الغنى الذى هو شبع الروح ونعيم الفردوس الجديد.

الهوس الثالث (تسبحة الثلاثة فتية القديسين)

يقرأون فى نبوة دانيال النبى فى الأصحاح الثالث قصة الثلاثة فتية القديسين وهى من أعجب قصص الخلاص. كما شهد بذلك الملك الوثنى نبوخذنصَّر قائلاً: «لَيْسَ إِلهٌ آخَرُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنَجِّيَ هكَذَا» (دا ٣ : ٢٩).

وهذه القصة تحوى أقوى مقومات وركائز الخلاص:

١- الخلاص بالإيمان بالله والتمسك باسمه، مهما بلغ تهديد العالم وتجبر رئيس هذا العالم المشبّه بنبوخذنصَّر، إذ حمى غضبه جداً وأمر أن يُحمَّى الأتون حتى صار تسعة وأربعين ذراعاً، أى سبعة أضعاف، وهو أقصى ما تصل إليه قوة الموت وطغيان الشيطان. ولكنّ التمسك بالله كان سند الثلاثة فتية.

٢- حياة الطهارة التى عاشها الثلاثة فتية القديسين – رغم كونهم أسرى حرب – ولكن عدم خضوعهم وعدم قبولهم لمفاهيم العالم وحفظ أجسادهم من الدنس، فلم يتنجسوا لا بالمآكل ولا بالخمر ولا بالزنى، الذى كان العرف السائد فى قصر الملك، بل تمسكوا بالصوم وأعمال الإماتة والنسك، والتقديس جعلهم على مستوى العمل الخلاصى، واستحقوا أن يعاينوا ابن الله فى وسط أتون النار، والواقع أنهم رأوه وعاشوا معه قبل أن يدخلوا الأتون، إذ قالوا للملك: «هُوَذَا يُوجَدُ إِلهُنَا الَّذِي نَعْبُدُهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنَجِّيَنَا». وهذه الكلمة تعنى أنهم أشاروا إلى غير المنظور بالنسبة للملك ورؤسائه، أما هم فكانوا ينظرونه بعين الإيمان ويلمسون حضوره، لذلك قالوا للملك: «لاَ يَلْزَمُنَا أَنْ نُجِيبَكَ عَنْ هذَا الأَمْرِ»، إذ حسبوا أن إلههم يدافع عنهم وهم صامتون كقول موسى رئيس الأنبياء.

٣- الخلاص أولاً وأخيراً كائن فى حضور الله، فى نزوله لينجى ويخلص ويحول الواقع المادى المخيف إلى نصرة، ما بعدها نصرة. وكم تختلف طرق الله فى الخلاص عن طرق الشر، إذ تأتى على غير توقع من البشر، فلم يطفئ الله نار الأتون ولم يُهلك الملك العاتى، ولم يغير شيئاً من الواقع الذى يبدو لا مفر منه.. أبقى كل شئ، وجاء فى وسط الأتون.. فصار الفتية يتمشون معه، فى حضرته، فى عزة مجده وبهجة الوجود فى قربه.. تجاوزوا الواقع، رفعهم إلى السماء، فسبحوه ومجدوه بكل أنواع التسبيح.. بل أشركوا الخليقة كلها فى تسبيحه.

٤- كانت نار الأتون شديدة لدرجة أنها أهلكت الرجال الذين ألقوا الثلاثة فتية فيها.. بينما لم تأت رائحة النار على الثلاثة فتية الأطهار.. وهذا هو العجب.. صارت النار بلا قوة.. وهم عاشوا فى وسطها. لم تغلب النار قوة الحياة التى فيهم.

هذا واقع لابد أن ندركه.. أن نحيا فى العالم الملئ بنار شهوات مخيفة، ونار طمع وخبث وكذب وكل أنواع الشرور، ولكن لا تأت رائحة النار علينا، ولا تقتل حياتنا، هذا هو الخلاص الذى صنعه المسيح – عمانوئيل، الله معنا – فى وسط أتون العالم، قائم من الأموات، غالب الجحيم بكل لهيبه، وكاسر شوكة الموت..

نجاة الثلاثة فتية كان عربوناً لخلاصنا.. فعلى نفس المستوى الإعجازى يخلص الرب أولاده وينجيهم وينقذهم من هذا العالم الشرير.

وعلى ذات المستوى الإعجازى تعيش الكنيسة بالمسيح القائم فى وسطها، تُسبِّحه وتمجده وتزيده علواً لأنه جعل أبواب الجحيم لا تقوى عليها. ثم انظر كيف تعبّر الكنيسة عن كل هذا فى ليلة الخلاص هذه، التى فيها نزل الرب إلى الجحيم وسبى سبياً وكسر سجن الأرواح، تعبّر عنه الكنيسة بألحان ونغمات هى أغلى وأروع الحانها. لقد نزل الرب إلى الجحيم ليخلص الثلاثة فتية القديسين الذين آمنوا به واتكلوا عليه.. إن أروع ألحان الكنيسة، اختبرتها الكنيسة لتسبّح المسيح وتمجد الثلاثة فتية القديسين. فقد فاقت ألحان الهوس الثالث فى نغماتها وتأثيرها الروحى المنعش فوق كل قياس. فمن يصلى الهوس الثالث بإدراك روحى يعيش لحظات السماء وهو على الأرض.

٤- ثم أمر آخر جدير بالاعتبار، هو اتضاع الثلاثة فتية الأطهار الذى يفوق العقل، وهو الطريق الحقيقى للتمتع بالخلاص، فقد وضعوا أنفسهم فى آخر قائمة التسبيح، لم يكونوا يحسبوا ذواتهم أو كما قال القديس بولس الرسول: «لَسْتُ أَحْتَسِبُ لِشَيْءٍ، وَلاَ نَفْسِي ثَمِينَةٌ عِنْدِي، حَتَّى أُتَمِّمَ بِفَرَحٍ سَعْيِي» (أع ٢٠ : ٢٤).

نعم.. ألم يبذلوا نفوسهم للموت؟ فكل من يعى قوة الخلاص ويتمتع بها ويرتبط بالمخلص ارتباطاً روحياً حقيقياً يحيا حياة المسكنة بالروح والاتضاع كمثل مخلصه الوديع والمتواضع القلب. فالقديسون جميعاً يربطهم هذا العامل المشترك، فليس بين القديسين من هو معتد بذاته أو مفتخر بذاته أو طالب مجد نفسه، أو راغب فى مجد العالم.

فإن كان الثلاثة فتية القديسين قد حظوا بهذا النصيب الفائق من الخلاص العجيب بسبب إيمانهم فى الله وتمسكهم بوصاياه. وقد أسلموا نفوسهم للموت محبة فيه وإكراماً لاسمه القدوس. وهم واثقون أنه

ينجيهم وينقذهم.. فكم يكون الحال معنا نحن الذين نؤمن بما أقام يسوع ربنا من الأموات وأحيانا معه وأقامنا معه وأجلسنا معه فى السموات.

يا للفرح الذى يغمر نفوسنا فى هذه الليلة ونحن نتمتع بنصيبنا فى المسيح الذى داس الموت وسحق الشيطان.

تسبحة العذراء مريم

من من البشر يستطيع أن يصف العلاقة التى تربط العذراء مريم– السماء الثانية – بابنها وحبيبها ومخلصها؟

شئ يفوق الإدراك، فهى عرفته كما لم يعرفه بشر من قبلها أو بعدها.. فهى وحيدة فى طريقة معرفتها له.. إذ حملته فى أحشائها ومستودعها دائم البتولية، حملته كجنين، تسعة أشهر كاملة، وعلاقة الأم بجنينها شئ يصعب التعبير عنه.. فهى أحاسيس داخلية غاية فى العمق يعسر أن يُعبّر عنها بألفاظ. فإن كان هذا مع الأمومة الطبيعية فكم يكون مع العذراء المقدسة نفساً وروحاً، والمرهفة الحس الطاهر أكثر من الخليقة كلها؟ فهى إذن أمور عالية عن الفكر لأنها ارتفعت أكثر من السموات!!

فى إطار هذه العلاقة الفريدة تمتعت الأم بالخلاص الذى صنعه ابنها وحبيبها، وبينما كان العالم يفرح لقبوله الخلاص والابن معلق على الصليب يدفع بدمه الغالى ثمن خطايا العالم، كانت أحشاء الأم تلتهب بنار لا توصف عندما تعلقت عيناها بالذى عُلق على خشبة.

تسبحة العذراء التى نالت نعمة الخلاص من جذر الخطية المنحدر إليها من آدم، فقد سرى الموت بإنسان واحد واجتاز إلى جميع الناس، فهى قد ورثت عن آدم الطبيعة البشرية التى يعمل فيها الموت، ولكنها أدركت قبل كل أحد أنها حملت فى أحشائها آدم الثانى الذى فيه يقوم الكل، وإن كان بخطية واحد جعل الكثيرون خطاة فكم بالحرى ببر الواحد يجعل الكثيرون أبراراً.

العذراء هى أول من قطف ثمر الخلاص وأول من نطق تسابيح الخلاص بالروح قبل أن يُصلب الرب بل قبل أن يولد من بطنها. فقد سبحت تسبحتها والمسيح جنين فى بطنها. فهى به فيها أدركت الخلاص. وملؤها من الروح القدس الذى حل عليها وقوة العلى التى ظللتها. فاض فى قلبها كلام التسبيح لتمجد الذى افتدى البشرية بصليبه.

بدأت تسبحة العذراء القديسة تعظم الرب، وترفعه وتمجده لأنه صانع العجائب وحده. وقد أكمل كل مواعيده الصادقة. ثم أعلنت بهجة الخلاص بالروح قائلة: «تَبْتَهِجُ رُوحِي بِاللهِ مُخَلِّصِي» (لو ١ : ٤٧). فبهجة الخلاص روحية خالصة، وفرح الخلاص لا يعبّر عنه ولا يعرفه سوى الروحيين.

+ العذراء فى تسبحتها تُمجِّد الذى نظر إلى اتضاع أمته، فهى العبدة والأم معاً، وقد حباها الله بقدر من الاتضاع استطاعت به أن ترتفع أعلى من السموات «لأَنَّ كُلَّ وَمَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ يَرْتَفِعُ» (لو ١٨

: ١٤). وبقدر الاتضاع يكون الارتفاع. فمن يقدر أن يصف مقدار ارتفاع السماء الثانية، وبهذا القدر هى متواضعة، أليست هى الحمامة الحسنة الوديعة؟!

+ «صَنَعَ قُوَّةً بِذِرَاعِهِ»، هكذا قالت الأم، لقد تأوه إشعياء فى القديم قائلاً: «لِمَنِ اسْتُعْلِنَتْ ذِرَاعُ الرَّبِّ؟» (إش ٥٥ : ١). فلم يكن من يفهم هذا الاستعلان، أو هذا الظهور فى الجسد، لأن الرب شمر عن ذراعه للخلاص، أى الحياة المخفية أُعلنت، ولكن لمن؟ أما العذراء القديسة أم الإعلانات السماوية فهى باكورة البشر فى استعلان غوامض حكمة الله، وهى أول من أحس بذراع الرب التى تخلص وتصنع قوة.

+ «عَضَدَ إِسْرَائِيلَ فَتَاهُ... كَمَا كَلَّمَ آبَاءَنَا. لإِبْرَاهِيمَ وَنَسْلِهِ إِلَى الأَبَدِ». المواعيد العظمى والثمينة التى اشتهى الآباء تكميلها، رأتها العذراء رؤى العين قبل أن يراها بشر أو يستجلى معناها ملائكة السماء.

فأول من أحس بنبض الخلاص كانت هى العذراء، وأول من نظر شمس البر كانت عيناها الطاهرتان، وأول من قبِل الابن متجسداً للخلاص كانت هى، وأول من احتضنته وحملته على ذراعيها كانت الأم القديسة فى كل شئ، ومنها صار فى متناول كل من يطلبه ويدعوه باسمه، وكل من أراد أن يأخذه ويحتضنه أخذه من يدها الطاهرة.

طوبى للأجيال التى تطوبها.. بل ستطوبها جميع الأجيال إلى مجئ الرب.

صلاة زكريا الكاهن

«مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ لأَنَّهُ افْتَقَدَ وَصَنَعَ فِدَاءً لِشَعْبِهِ، وَأَقَامَ لَنَا قَرْنَ خَلاَصٍ فِي بَيْتِ دَاوُدَ فَتَاهُ... خَلاَصٍ مِنْ أَعْدَائِنَا...» (لو ١ : ٦٨ – ٧٩). هذا التسبيح النبوى من فم زكريا الكاهن، الذى انفتح فاه بعد أن بقى صامتاً أكثر من تسعة أشهر، هذا التسبيح العالى نستطيع أن نشتم فيه رائحة العذراء القديسة وروحها.. لقد سبحت العذراء تسبحتها فى بيت زكريا الكاهن عندما دخلت وسلمت على أليصابات.. كان يوحنا المعمدان جنيناً ابن ستة أشهر فى بطن أمه، حين رقص أمام تابوت العهد الجديد بابتهاج، فى هيكل الكهنوت القديم أى أحشاء اليصابات العاقر.. وقد تعزى الكاهن الشيخ وهو يستمع إلى أم الله تقول تسبحتها، وعندما نطق لسانه من بعد البكم كان صدى تسبيح العذراء مازال يرن ويحرك أوتار روحه، فجاءت لغته فى التسبيح وقد انطبع عليها نبرات صوت الأم والهيكل الجديد.

فهو يتكلم عن الخلاص، ويتكلم عن رحمة الله، وعهد الله المقدس والقسم الذى حلفه لإبراهيم.. أليس هذا روح تسبحة العذراء.

زكريا يستلهم أيضاً آخر ضوء من العهد القديم بفم ملاخى «وَلَكُمْ أَيُّهَا الْمُتَّقُونَ اسْمِي تُشْرِقُ شَمْسُ الْبِرِّ» (٤ : ٢) فيقول: «افْتَقَدَنَا الْمُشْرَقُ مِنَ الْعَلاَءِ لِيُضِيءَ عَلَى الْجَالِسِينَ فِي الظُّلْمَةِ وَظِلاَلِ الْمَوْتِ» الذى هو أيضاً قول إشعياء: «اَلشَّعْبُ السَّالِكُ فِي الظُّلْمَةِ أَبْصَرَ نُورًا عَظِيمًا. الْجَالِسُونَ فِي أَرْضِ ظِلاَلِ الْمَوْتِ أَشْرَقَ عَلَيْهِمْ نُورٌ» (إش ٩ : ٢).

كل هذا وشمس البر لم يكن قد أشرق جسدياً من العذراء، إذ أن هذا حدث فى بيت لحم بعد ستة أشهر.

زكريا الكاهن أيضاً تنبأ بالروح عن يوحنا كيف أنه يعطى الشعب معرفة الخلاص بمغفرة الخطايا.. وهو عمل الكرازة والمناداة بالتوبة وإعلان المسيح وتقديمه للعالم.

+ طوباك أيها الكاهن الشيخ الذى استحق أن يكون أباً لأعظم مواليد النساء.. طوباك يا من حفظت أمانة الكهنوت فى جيل ملتو ومعوج، وفى وسط الفريسيين المرائين والناموسيين والكهنة ورؤساء الكهنة، الذين سدوا آذانهم عن الحق بل وقفوا ضد الحق، بل صادروا تعليم المعلم الإلهى الحقيقى، بل رفضوا مشورة الله من جهة أنفسهم، بل صلبوه وقبلوا أن يصير دمه عليهم وعلى أولادهم.. أما أنت يا

كاهن الله العلى فقد صرت شاهداً أميناً، كما شهد عنك الروح أنك وزوجتك الشيخة الوقورة أنكما كنتما باريْن أمام الله سالكيْن فى جميع أحكام ووصايا الرب بلا لوم.

صلاة سمعان الكاهن

«الآنَ تُطْلِقُ عَبْدَكَ يَا سَيِّدُ حَسَبَ قَوْلِكَ بِسَلاَمٍ، لأَنَّ عَيْنَيَّ قَدْ أَبْصَرَتَا خَلاَصَكَ، الَّذِي أَعْدَدْتَهُ قُدَّامَ وَجْهِ جَمِيعِ الشُّعُوبِ. نُورَ إِعْلاَنٍ لِلأُمَمِ، وَمَجْدًا لِشَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ». (لو ٢ : ٢٩ – ٣٢).

«كَانَ قَدْ أُوحِيَ إِلَيْهِ ... أَنَّهُ سيَرَى مَسِيحَ الرَّبِّ».. طوباه. فظل محبوساً فى الجسد منتظراً بالرجاء تحقيق الوعد الإلهى.. فلما نظر المسيح الإله المتجسد محمولاً على مركبة الشاروبيم الجديدة، تحمله العذراء على ذراعيها.. انفتحت عيناه الكليلتان.. فبنور الرب أبصر النور.

ولكن هل يستطيع أحد أن يرى الطفل الإلهى ولا ينجذب إليه ؟ حاشا.. أيستطيع سمعان الشيخ أن ينظره فقط ولا يحمله على ذراعيه؟ هل يكفيه مجرد الرؤيا؟ هل تشبع النفس الذى طال انتظارها قائلة كلّت عيناى من انتظار أقوالك؟ هل يشبعها مجرد الرؤيا؟

لقد حمله سمعان على ذراعيه من يدى العذراء الأم.. خلاص المسيح ليس للمتفرجين أو الناظرين من بعد.. المسيح جاء فى الجسد لكى نراه، بل ونلمسه، بل ونحتضنه، بل ونأكله أكلاً.. إننا ننجذب إليه بقوة لا تقاوم.. «لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُقْبِلَ إِلَيَّ إِنْ لَمْ يَجْتَذِبْهُ الآبُ» (يو ٦ : ٤٤).. «وَأَنَا إِنِ ارْتَفَعْتُ عَنِ الأَرْضِ أَجْذِبُ إِلَيَّ الْجَمِيعَ» (يو ١٢ : ٣٢).

+ فلما احتضنه واستنشق رائحة الحياة الأبدية فيه، فتح فاه بتسبحته التى صارت جزءاً ختامياً للتسبحة اليومية فى الكنيسة. بل أن الكاهن يحمل البشارة (كلمة الله) على ذراعيه ويطوف حول المذبح قبل قراءة الإنجيل ويقول نفس الصلاة: الآن تطلق... .

سمعان الشيخ رأى المسيح متجسداً وقال: «عَيْنَيَّ قَدْ أَبْصَرَتَا خَلاَصَكَ»، فهو إذن رأى الخلاص.. رأى الصليب، بل رآه علامة تُقاوم.. رأى علامة ابن الإنسان.

طوباك يا سمعان الشيخ، الكاهن الإنجيلى المؤتمن والأمين فى ترجمة كل كلمة، بل وكل حرف.. طوبى لعينيك اللتان أبصرتا الخلاص وامتلأتا من النور الحقيقى. وطوباك يا من اشتهيت أن تنطلق من سجن الجسد، فى زمان كان الجسد فيه هو كل رأس مال الناس.

قصة سوسنة ابنة حلقيا

تختم الكنيسة قصص الخلاص والطلبات التى حظت بالقبول لدى الله على مدى الأزمنة، والتى كانت عربوناً للتمتع ببركات الخلاص الأبدى الذى صنعه المسيح بصليبه. تختم هذه كلها بقصة عربون القيامة من الموت التى حصلت عليها سوسنة العفيفة، التى عاشت فى خوف الله وأُسلِمت نفسها للموت ظلماً، وفضلت أن تموت هكذا بالظلم وشهادة الزور على أن تسلم نفسها للهوان فى الخطايا.

سوسنة لم تخضع لسلطان الظلمة ولا إلى لحظة واحدة.. شيخان من قضاة الشعب بحسب الظاهر موّقران ومكرّمان جداً مُعلما الناموس، تبدو ظواهرهما مثل الصديقين. هما أقرب ما يكون للفريسيين فى أيام الرب، بل وللكهنة ورؤساء الكهنة. لبسوا ثياب التقوى، وكل رأس مالهم هو مجد الناس.. أما من داخل فكانا مملوئين عظام أموات وكل نجاسة!! والناس للأسف تحكم بظواهر الأمور.. فقد كان الحق مخفياً عن الأعين.

والشيخان – كل على حدة – كانا يمثلان ليس فقط على الناس، بل كل واحد على الآخر، كانت نيران شهوات وخطايا نجسة تلعب برأسهما. فى ذات الوقت إذ أسلما نفسيهما للشيطان، فالذى لا يتاجر فى الروحيات هو بالضرورة تاجر فى الجسدانيات. فلم يكن هذان الشيخان من الروح فى شئ، لقد حملوا مظهر رجال الله أما هما فكانا خادمين للشيطان.

فليرحم الرب كنيسته من أمثال هؤلاء..

+ عندما انقلبا راجعين وتقابلا، إذ كشفا أفكارهما لبعضهما – لم يقودهما هذا التصرف للخزى والتوبة، أو للحزن على الخطايا المستترة.. لم يكن الأمر هكذا.. بل كانا كتاجرين يتجران فى ذات السلعة، فقد استثمرا الشر بالأكثر فازداد رصيده لدى كل منهما.. بل جمعا عقليهما لتدبير خطط الشر، لقد تحالفا مع الشيطان.

كشف الخطايا إذا نبع من قلب نادم يحول الإنسان قديساً. أما عندما يكشف الأشرار أفكارهم بعضهم لبعض، فإن نار الخطايا تزداد اشتعالاً فيزدادون شراً على شر. فليُجنبّ الله أولاده مصائب الجلوس فى مجالس الأشرار، وليحفظ أولاده من مشوراتهم.

+ بينما كان الشيخان ينسجان حبائل الشر ويحكمان الفخ لسقوط الفريسة، كانت سوسنة العفيفة خالية الذهن، فصارت مثل العصفور فى فخ الصيادين. الشرير يتفكر على الصديق بالشر، ولسان حال سوسنة يقول: «أنا مثل خروف راضٍ يساق إلى الذبح».

على غير توقع وجدت نفسها فى فخ الشيطان.. هما شيخان مُصَدِّقان من الكل ولا يمكن أن تفلت من أيديهما.. أطبقت الظلمة حولها بلا مقدمات. ولكنها لا تملك شيئاً.. بل هى تملك كل شئ «رفعت عينيها إلى السماء وصرخت».. نظرت نحو السماء، وهو ناظر إلى كل شئ.. عيناه تخترقان أستار الظلام، هو ينظر شقاء المساكين وتنهد البائسين ويقول: «مِنْ أَجْل شَقَاءِ المسَاكِين وتَنهُّدِ البَائِسينَ الآنَ أَقُومُ، يقُولُ الرَّبُّ، أَصْنَعُ الَخَلاصَ عَلانيةً» (مز ١١).

+ يتجبّر سلطان الظلمة، ويُداس الحق.. بل قد يُساق الحق إلى الموت ويُحكم على البرئ. قال ربنا يسوع المسيح: «هذِهِ سَاعَتُكُمْ وَسُلْطَانُ الظُّلْمَةِ» (لو ٢٢ : ٥٣). فإن كان سلطان الظلمة إلى ساعة، فسلطان النور والحق إلى قيام الساعة.. فالنور يضئ فى الظلمة فيبددها. هكذا سيقت سوسنة إلى الموت ظلماً.. وغطى الحزن جميع من حولها.

+ ولكن نبَّه روح الرب شاب اسمه دانيال.. هذه هى قيامة بحد ذاتها.. بينما ترزح نفوس الشيوخ تحت الظلام، وقد أظلمت قلوبهم وعقولهم وأسلموا ذواتهم بالكمال لروح الظلمة.. قامت روح دانيال متقوية بالرب ومتشبثة ومنتصبة للحق!! ولكن هل يقوى هذا الحدث الشاب على فطاحل الظلمة وشيوخ الظلام؟ هذا ما حدث بالفعل.. فضح كذبهما بالحكمة التى فيه.

+ فرح الجميع بالقيامة، تبدل الحزن إلى فرح.. نجت سوسنة من الموت، إنها قيامة حقيقية. أخذتها سوسنة من يد الرب عربون لحياة لا يعتريها الفساد. لم يكن فى سوسنة عيب الخطية هذه.. فاستحقت أن تتمتع بهذه القيامة المفرحة مع المسيح القائم من الأموات.

تسبحة موسى عبد الرب (الهوس الأول)

هى تسبحة العبور بالدم، تسبحة الخلاص التى سبحها شعب المفديين بعد عبور البحر الأحمر، وتُسبِّحها الكنيسة فى كل أجيالها على الأرض وهى تسبحة الكنيسة فى السماء كما رآها القديس يوحنا فى رؤياه.

فى ليلة سبت الفرح حينما نُسبِّح بهذه التسبحة، يكشف الروح النقاب عن سر الخلاص المصور فى أعجوبة عبور البحر الأحمر، كيف عبر المسيح إله موسى بشعبه وكنيسته فى ليلة الفصح، بدمه الذى صار علامة لا على كل بيت بل على كل نفس وقلب، وبعصاه أى بصليبه شق بحر الجحيم وعبَّر أولاده إلى أرض الموعد السماوى، وغرق ليس فرعون ومركبات مادية وفرسان بل كل قوى الشيطان وجبروته وكل طغيانه، سحقه المسيح بالصليب – سحق الشيطان، بالموت داس الموت وعبر بنا إلى جدة الحياة، وحررنا من عبودية إبليس ومحا الصك الذى كان علينا.

انتهت إلى الأبد أيام السخرة، والعمل فى طين الجسد واللبن ومذلة العبودية. أنهاه المسيح وحررنا بالحق.

لذلك كما أخذت مريم الدف بيدها والنسوة حولها يغنين بفرح تلقائى لما أبصروا فرعون يغرق وسلطانه يتبدد ويزول – حينئذ سبح موسى وجماعة بنى إسرائيل بهذه التسبحة قائلين:

تعالوا نسبح الرب لأنه بالمجد تمجد

يمينك يا رب معتزة بالقوة

يمينك يا رب حطمت العدو

من يشبهك فى الآلهة يا رب من مثلك

بذات الكلمات تسبح الكنيسة فاديها الحبيب فى مطلع تسابيح الخلاص فى هذه الليلة. ما أجمل اللحن الذى يقول: بالقطع انقطع ماء البحر والأعماق السحيقة صارت مسلكاً. فعلاً تهتز له أوتار الروح بطرب ونشوة روحية فيها نصرة إلهية بقوة وسلطان فوق سلطان.

أذكر أننا كنا نسبح بذات التسبحة ونحن داخل سجن المرج فى شهر كيهك (ديسمبر سنة ١٩٨١) وكان بيننا طبيب جاوز الخمسين من عمره ولم يكن له معرفة كثيرة بطقس الكنيسة وألحانها. فما أن سمع صوت التسبيح حتى جذب انتباهه فاقترب إلينا، وفجأة وجدناه يربط وسطه ويرقص فى وسط العنبر. لقد تجاوزت روح الرجل – إذ هزتها أنغام التسبيح – تجاوزت كبر السن والمركز، وتجاوز آلام السجن وأتعاب

النفس وسرى الفرح فيه حتى رقص دون أن يدرى، كما رقص داود النبى أمام تابوت العهد بكل قوته وكما أخذت مريم أخت هارون الدف بيديها وصارت تغنى مع النسوة بفرح الخلاص وتسبيح الغلبة.

إن الفرح الروحى الحقيقى قوة تسرى فى الكيان، وفرح لا ينطق به، فإن كان بنو إسرائيل قد لمسوه بحسب كيانهم الجسدانى وما هو مرئى وملموس، فطربت له أجسادهم وراحوا يرقصون بدفوف وغناء، فكم وكم يكون الفرح الروحانى المنبعث من الخلاص الحقيقى الذى صار فينا ولنا بالمسيح يسوع ربنا يبعث فينا سروراً ونعيماً وشبعاً واكتفاء ولذة لا تُدانيها لذة جسدية على الإطلاق.

التسبحة الثانية لموسى عبد الرب «صلاة النشيد»

فى هذه التسبحة توجد كل مواعيد الله من جهة الخلاص، يذكر موسى إحسانات الله التى تغطى كل عصيان الإنسان، من جهة الإنسان، فهم جيل معوج وملتوى، وشعب جاهل وغير حكيم. جازوه بدل الخير شراً. أما من جهة الله فهو إله أمانة وعدل وحق.

يعدد فى هذه التسبحة توالى إحسانات الله التى لا حصر لها فى رحلة الخلاص مدة الأربعين سنة. أما نهاية هذه التسبحة فهى:

أجازى بالحكم أعدائى..
والسبى على رؤوس الأعداء
افرحى به أيتها السموات
ولتسجد له جميع ملائكة الله
لأنه ينتقم لدم بنيه ويكافئ بالنقمة الأعداء والمبغضين
يجازى ويطهر الرب أرض شعبه.

لقد انتقم الرب لدم بنيه، عندما سفك دمه الطاهر، وكافأ بالنقمة أعداءه، فى يوم النقمة، يوم الصليب، إذ سحق الشيطان وفرحت السماوات وسجدت له جميع الملائكة إذ جلس على عرش ملكه «ملك على خشبة» مالكاً على قلوب الذين قبلوه.

صلاة حنة أم صموئيل (صلاة الإيمان)

كانت حنة أم صموئيل عاقراً، أى ميتة، بحسب طبيعة جسدها الذى لا يستطيع أن ينجب. ولكنها حصلت على حياة وأخذت قدرة على إنشاء نسل، وأُعتبر لها هذا عربون قيامة، وبالإيمان بكلمة قالها رئيس الكهنة، سُمع لها واستجاب الإله القادر على الإقامة من الأموات أيضاً. ولكن حنة نالت هذه النعمة بالصلاة والتضرع وسكب النفس بمرارة قدام الله فتحول حزنها إلى فرح.

هذه عينة للنفوس التى نالت عربون القيامة، وسجل الروح تسبحتها كنموذج حى لقوة الإيمان وثقة الرجاء بالله.

صلاة حبقوق النبى (صلاة الانتظار)

بدأ حبقوق النبى نبوته ورؤياه بسؤاله الشهير الذى كان لسان حال كل إنسان فى العهد القديم بسبب الخطية الحاجزة، وبسبب سقوط الإنسان وانحجاب وجه الله.. هذه الخصومة التى طالما عذَّبت أنفس الصديقين فى أجيال العهد القديم، لذلك بدأ حبقوق بلسان الجميع يقول فى مطلع نبوته: «حَتَّى مَتَى يَا رَبُّ أَدْعُو وَأَنْتَ لاَ تَسْمَعُ؟ أَصْرُخُ إِلَيْكَ مِنَ الظُّلْمِ وَأَنْتَ لاَ تُخَلِّصُ؟».

ولكنه كنبى القدير، صاحب عين ورؤيا، وبصيرة روحية يقول: «عَلَى مَرْصَدِي أَقِفُ، وَعَلَى الْحِصْنِ أَنْتَصِبُ، وَأُرَاقِبُ لأَرَى مَاذَا يَقُولُ لِي، وَمَاذَا أُجِيبُ عَنْ شَكْوَايَ» (٢ : ١). فيعلن له أن البار بالإيمان يحيا (ص٢) وأن الأرض ستمتلئ من معرفة مجد الرب (ص ٢). فيرتفع قلبه بتسبيح الصلاة والرجاء بقيامة الرب وقوة محبته المخلصة.

وبمثل هذه الصلاة يقال فى هذه الليلة إأن الرب سمع وأصغى واستجاب. وعندما أتى الزمان أكمل الرب قوله وأحيا عمله فى وسط السنين.

صلاة يونان النبى (صلاة النجاة)

«كَمَا كَانَ يُونَانُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَال، هكَذَا يَكُونُ ابْنُ الإِنْسَانِ فِي قَلْب الأَرْضِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَال» (مت ١٢ : ٤٠).

وقصة يونان هى قصة الموت والقيامة. وكرازة يونان المُخلَّصة التى خلصت مدينة نينوى من الموت والهلاك، كانت كرازة من قام من الأموات. وصلاة يونان هى صلاة البشرية كلها وهى فى قبضة الموت. ولكنها صلاة كلها رجاء فى الحياة والخلاص، ونظر هيكل قدس الله.

صرخات يونان فى بطن الحوت أيضاً هى بعينها صرخات النفوس المقبوض عليها فى الجحيم «فلتصعد من الفساد حياتي أيها الرب إلهي».

صلاة حزقيا الملك (صلاة الشفاء)

مرض حزقيا للموت، وأرسل الرب إليه إشعياء النبى يقول له: «هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ أَوْصِ بَيْتَكَ لأَنَّكَ تَمُوتُ وَلاَ تَعِيشُ» (إش ٣٨ : ١). فحوّل وجهه إلى الحائط وبكى متوسلاً بهذه الصلاة متضعاً إلى التراب. فعاد الرب وأرسل إليه النبى ليبشره بأنه أضاف إلى عمره ١٥ سنة.

فهى قصة شفاء من ظل الموت.. وزيادة العمر. المسيح أضاف إلى أعمارنا الزمنية.. أبديته الخالدة، حُسب إحسان من الله أن يُضاف إلى عمره ١٥ سنة، ماذا نقارن هنا بما صنعه المسيح إذ أعطانا حياة أبدية، بل أعطانا حياته الأبدية!

هى أيضاً قصة قيامة، وعربون الحياة ناله حزقيا الملك بالصلاة والدموع والتضرع والاتضاع فسمع له وحُسب مع زمرة المُخلَّصين.

صلاة منسى الملك (صلاة التوبة والرجوع)

مقدمة:

منسى الملك هو ابن حزقيا الملك الذى أرضى الرب فى حياته وأعاد إسرائيل إلى الرب إلهه وعمل الفصح كما لم يُعمل من أيام سليمان بن داود، وأرجع لبيت الرب والكهنة واللاويين مركزهم فى قلب أورشليم وشعب الله.

أما منسى فلما ملك على يهوذا، عمل الشر فى عينى الرب وأرجع إسرائيل عن الرب إلهه، وبنى المرتفعات وعبد الأوثان وجند السماء، وعمل تماثيل الأوثان فى بيت الرب. وتفاءل وعاف واستخدم الجان وأصحاب التوابع، وكل ما هو غير مستقيم سار فيه. وانحرف الشعب فى أيامه أكثر من الأمم الوثنيين (أخبار الأيام الثانى ص ٣٣).

فغضب عليه الرب وأرسل إليه رؤساء جيش ملك آشور، فأخذوا منسى بخزامة وقيدوه بسلاسل نحاس وذهبوا به إلى بابل، ولما تضايق طلب وجه الرب إلهه وتواضع جداً أمام إله آبائه. وصلى إليه فاستجاب له وسمع تضرعه ورده إلى أورشليم إلى مملكته، فعلم منسى أن الرب هو الله.

لقد أبرز منسى الملك فى صلاته قوة التوبة والرجوع إلى الله كأنها فعلاً قيامة من الأموات. وقد اقترب بالصلاة لمعرفة طبيعة الله الحنون، طويل الروح، كثير الرحمة، متأسف على شر البشر.

ثم أدرك صلاح الله وكثرة رحمته. وكيف أعطى الله التوبة للخلاص والرحمة فى الرجوع. ثم ما أجمل ما نطق بفم هذا الملك البار، أن باب التوبة والرجوع جُعل خصيصاً من أجل الخطاة وليس من أجل الأبرار. أى أنه يُظهر حاجة الخطاة للمسيح أكثر من الصديق، كقول الرب يسوع نفسه «لاَ يَحْتَاجُ الأَصِحَّاءُ إِلَى طَبِيبٍ بَلِ الْمَرْضَى. لَمْ آتِ لأَدْعُوَ أَبْرَارًا بَلْ خُطَاةً إِلَى التَّوْبَةِ» (مر ٢ : ١٧).

وفى اتضاع عجيب يضع نفسه أول الخطاة، كمثل باقى القديسين الذين رأوا أنفسهم فى نور الحق الإلهى، واكتشفوا عوزهم وحاجتهم إلى الخلاص أكثر من كل أحد.

وتعبيرات الصلاة ولو أنها قيلت فى العهد القديم إلا أنها إنجيلية، كلها نور واستعلان وقوة ورجاء. يكفى أن نتأمل القول: «أنت إله التائبين». حقاً قال المرنم: «الرب يقيم الساقطين، الرب يحل المقيدين».

هذه عينة أخرى عجيبة، نالت بالرجاء، قوة القيامة. ولها من المسيح الإله ذراعه ليقيمها إذ قد لصقت بالتراب بالتوبة والانكسار والاتضاع القلبى. فردّه مرة أخرى من السبى إلى المملكة.

وفى هذه الليلة هى تمتع مثل هذه النفوس فى المسيح إذ تنال قوة القيامة فى مخلصنا الصالح رجاء الدهور كلها.

تسابيح إشعياء النبى (تسبحة الرجاء)

إشعياء نبى الرجاء – النبى الإنجيلى – صاحب البصيرة الثاقبة، سبق أن رأى بعين النبوة تدابير الخلاص وكتب بالروح أشهى النبوات وأدقها، فكلمات إشعياء عن المسيح المتألم بأوصاف غاية فى العمق، والتعبير عن الآلام وصمت المسيح مثل شاه تساق إلى الذبح، وجراحات المسيح التى بها شُفينا وتأديب سلامنا الذى صار عليه، يقصها إشعياء كمن عاصر الصليب وتبع المخلص المصلوب فى أصحاح ٥٣ من نبوات وزمن المسيا. وينابيع مياه الخلاص والفرح الأبدى ونهر سلام ينابيع الروح القدس، ومواعيد المسيح المبارك لكنيسته المجيدة، وعهد وسلامه الذى لا يتزعزع بل تتزعزع دونه الجبال والآكام.. وأشياء يعسر حصرها.. كلها لقنّها الروح القدس الناطق فى الأنبياء، لقنها لإشعياء النبى فنطق بها ودوّنها بالروح من أجل خلاصنا.

وقد اختارت الكنيسة فى هذه الليلة ثلاث عينات من رفع القلب بالصلاة التى صلاّها إشعياء، معبِّرة عن الرجاء فى شخص المخلص وشوق الأرواح القديسة لأزمنة الخلاص، كمن يترجى إشراق الصباح.

صلاة إشعياء النبى الأولى:

من الليل روحى تبكر إليك يا الله.. أوامرك نور على الأرض

أيها الرب إلهنا أعطنا سلامك لأنك أعطيتنا كل شئ

أيها الرب إلهنا اقتننا يارب وباسمك نُسمَّى

ذات الكلمات التى نطق بها المرنم، هى أرواح الصديقين التى لم تخضع لروح الظلمة، بل كانت تشتهى أن يشرق لها النور الحقيقى الذى هو المسيح يسوع ربنا. وهو يتوسل إلى الله من أجل السلام (الذى صنعه المسيح بالصليب قاتلاً العداوة به).

ما أعجب القول الذى يقوله إشعياء: «اقتننا لك».. لقد بيعت البشرية، كلها ساقطة تحت سلطان الظلمة، والآن عندما غلب المسيح: اشترانا، رد سبينا، اقتنانا، صرنا ملكاً له.

أما من جهة الاحتياج للخلاص، فما أبدع ما عبّر به الروح فى أحشاء إشعيا فنطق بإحكام واصفاً حال بنى البشر وعجزهم المطلق عن عمل الخلاص «حبلنا، طلقنا وولدنا ريحاً». فمهما عصرت البشرية نفسها وعانت حتى آلام مخاض لعلها تنجو، ولكن هيهات، فلا خلاص ولا نجاة إلا بشخص المسيح مخلص العالم.

لذلك يعود النبى إشعياء فى صلاته فيقول: إن بشرى الخلاص والكرازة بالمسيح هى هى القيامة من الأموات «تقوم الأموات ويقوم من فى القبور ويفزع الذين على الأرض لأن **الفداء الذى من قبلك** هو شفاء لهم».

تسبحة إشعياء النبى الثانية:

هذه تسبحة أرواح الصديقين المظلومين والمحبوسين، والمترجين الخلاص.

«أيها الرب أمجدك وأسبح اسمك لأنك صنعت أموراً عجيبة، هدمت ارتفاع المتكبر، سحقت الشيطان، ووضعت تشامخ الخطية، كسرت شوكتها، دُست مملكة الموت. لك المجد يا ملك الحياة. لأجل ذلك يباركك الشعب المسكين، ومدن الناس المظلومين تباركك.. أرواح البشر المظلومة تباركك».

أما ما يفوق العقل، فهو قول إشعياء: «ابتلع الموت» وهو أيضاً ما ردده هوشع النبى: «ابتلع الموت إلى غلبة.. أين شوكتك يا موت» وأيضاً «ينزع الله كل دمعة من كل وجه». لقد هرب الحزن ووجع القلب وحوَّل المسيح (بموته ونزوله إلى الجحيم ليفدى نفوس عبيده، وبقيامته المجيدة) حوَّل حزننا إلى فرح، ويأسنا إلى رجاء لا يُخزى، ومسح كل دمعة من على كل وجه.

وهذه التسبحة تدور حول هدم أسوار الخطية، وأسوار ارتفاع وكبرياء الشيطان وتجبره وسيادته ومملكة الظلم والظلمة.

تسبحة إشعياء النبى الثالثة (صلاة الاعتزاز بالخلاص):

هى فى الواقع تكملة للتسبحة الثانية، أو الوجه الإيجابى لعمل المسيح. فإن كانت التسبحة السابقة يتغنى فيها إشعياء بهدم حصون الشيطان وسحقه إلى التراب وإذلاله وزوال سلطانه، فهنا يترنم أشعياء بالمدينة الحصينة، أورشليم الجديدة، مسكن الخلاص والسلام، أى كنيسة الله وملكوته التى اقتناها بدمه.

فى ذلك اليوم يسبحون هذا التسبيح قائلين: «لنا مدينة حصينة».. أسوارها هى خلاص المسيح، أحاطها كحدقة العين، على أسوارك يا أورشليم أقمت حراساً لا يسكتون كل النهار ولا كل الليل.. أسوارها تسابيح الخلاص مصنوعة بدم الحمل الذى قطّر على أبواب الشعب فى القديم فعبر المهلك لما رآها. فنفوس الأبرار تتحصن فى حصن الكنيسة كما فى حضن الآب لا يجسر أحد أن يقترب إليها. أما مملكة الشيطان المنهدمة فتدوسها أرجل الودعاء والمساكين بالروح.. بسلطان المسيح «هَا أَنَا أُعْطِيكُمْ سُلْطَانًا لِتَدُوسُوا الْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبَ وَكُلَّ قُوَّةِ الْعَدُوِّ» (لو ١٠ : ١٩).

إلى اسمك وإلى ذكرك شهوة النفس.. اسم الخلاص، اسم يسوع المسيح هو مشتهى الأجيال وغاية نفوس الأبرار والصديقين فى كل جيل.

تسبحة إرميا النبى (صلاة الدموع)

لقد حمل إرميا النبى أوجاع الشعب المنهوب فى العهد القديم، وتوجع بها حتى إلى أعماق نفسه، حتى قال: «قَلْبِي ، قَلْبِي! تُوجِعُنِي جُدْرَانُ قَلْبِي. يَئِنُّ فِيَّ قَلْبِي» (٤ : ١٩). وبكى إرميا بدموع غزيرة قتلى الخطية وتمنى لو كانت رأسه ماء وعيناه ينبوع دموع ليبكى ليلاً ونهاراً «قَتْلَى بِنْتِ شَعْبِي». وهكذا صار إرميا النبى باكياً عوضاً عن الباكين ومتألماً بدلاً من المتألمين، الذين ما بكوا وما تألموا ولكن كمن لهم عيون لا يبصرون ولهم آذان ولا يسمعون ولا يفهمون.

ولكن فى كل هذه الأيام والدموع كان إرميا نبى للرجاء ناظراً ومتوقعاً وباحثاً عن وقت الخلاص الذى كان يزكيه الروح كلما زادت الآلام ويظهره فى الضمير كلما حبكت الظلمة الخارجية، كبزوغ الفجر بعد حلكة الظلام. فهو بتوسل الباكى ودالة الدموع فى عينيه يقول لله: «هَلْ كُلَّ الرَّفْضِ رَفَضْتَنَا؟» (٥ : ٢٢)، والجواب التلقائى ببرهان الروح فى القلب يقول: حاشا، بل فإنه أمين فى مواعيده صادق فى كلمته وأن مجيئه أكيد وخلاصه سيستعلن فى حينه. بل فى عتاب الأخصاء يقول لماذا تنسانا إلى الأبد وتتركنا طول الأيام، أليس هذا هو صوت الذين كانوا فى انتظار المخلص وهم فى رباط الظلمة؟ أليس هذا هو عينه كلام صلاة المرتل «إلى متى يا رب تنسانى إلى الانفضاء؟ حتى متى تصرف وجهك عنى إلى الدهر؟ إلى متى أردد هذه الأوجاع فى قلبى النهار كله.. قم يا رب خلصنى يا إلهى».

نرى أن الروح واحد وأن الصراخ فى كل أجيال الدهور واحد وأن الشوق إلى الخلاص والحنين إليه صنعه الروح الواحد فى كل أبرار جيل فجيل. وها الرب يفدى نفوس عبيده بقدرة صليبه وقوة قيامته منقذاً كل الذين صار لهم هذا الرجاء الذى لا يُخزى.

تسبحة باروخ النبى (صلاة التوسل للرجوع من السبى)

الآية التى صنعها الرب للخلاص فى أيام موسى هى آية الدهور كلها حتى فى السماء فإن جموع المفديين يترنمون بتسبحة موسى عبد الرب التى سبح بها فى يوم الخلاص المشهور. فالأنبياء عاشوا يجترون بفرح صنيع الرب ويتوقعون خلاصه كما فى القديم. فإشعياء يستعطف الرب قائلاً: «اِسْتَيْقِظِي، اسْتَيْقِظِي! الْبَسِي قُوَّةً يَا ذِرَاعَ الرَّبِّ! أَلَسْتِ أَنْتِ هِيَ الْمُنَشِّفَةَ الْبَحْرَ» (٥١ : ٩ ، ١٠). هى هى بعينها، بذات القوة والجبروت، يسوع المسيح هو هو أمس واليوم وإلى الأبد.

وها باروخ النبى فى تسبحته وكأن نفسه فى هذه الليلة ترفع ذات الصلاة التى للخلاص متوجهة نحو المسيح القادر، إله إسرائيل الذى أخرج شعبه من أرض مصر بيد قوية بآيات وعجائب وقوة عظيمة وذراع رفيعة.

فمن جهتنا أخطأنا وعملنا نفاقاً وظلمنا.. من نحونا فنحن التراب، كما كان وهكذا كائن.. الإنسان الساقط هو هو بذات الضعف والعجز ساقط تحت نير الخطايا «لَيْسَ مَنْ يَعْمَلُ صَلاَحًا لَيْسَ وَلاَ وَاحِدٌ» (رو ٣ : ١٢). فماذا يتوقع من طبيعة ساقطة، ماذا تستطيع أن تقدم لله سوى ثمر المرارة.

أما من جهة الله فهو المخلص بيد قوية وذراع رفيعة كما فى أيام موسى، كما فى أيام القدم، كذلك بالأكثر الآن.

وصلاة باروخ زمنياً كانت من أجل نجاة المسبيين، ولكنها فى بُعدها النبوى كانت من أجل أسرى الرجاء المسبيين، ليس فى بابل بل فى سجن الجحيم الذين كانوا ينتظرون المسيا بصبر ويتوقعون خلاصه بسكوت.

تسبحة إيليا النبى (صلاة الغيرة النارية وصلاة الذبيحة والتوبة)

إيليا.. هذا النبى الغيور النارى، لم تفارق النار المتأججة حياته بل رافقت مسيرته كل الطرق، وهى نار الله، نار الروح القدس.. إلهنا نار آكلة، فهى من جهة تحرق الشر وتبيد الأشرار (كما أكلت قائدى الخمسين وجنودهما الذين أرادوا الشر بإيليا وتقدموا إليه بكبرياء). ومن جهة أخرى هى نار القبول والرضى عندما حلت على الذبيحة التى بالماء. وأخيراً صعد إيليا فى مركبات النار إلى السماء.

وتسبحة إيليا وصلاته عند إصعاد الذبيحة هى صلاة قصيرة ولكنها نارية جداً، من عمق القلب، فى موقف حرج جداً، وقاطع جداً. فنار الغيرة الإلهية المتأججة فى قلب إيليا دفعته أن يقف موقف الشهادة لله ضد فساد الجيل كله، وانحراف الملك وراء إيزابل الشريرة، وأنبياء البعل كثيرى العدد (٨٥٠).

والموقف كله لحساب الله، ليعلم الجميع أن الرب هو الإله الحقيقى وحده. والموقف أيضاً لحساب الإنسان الزائغ لأنها ساعة رجوع إلى الله وتوبة «حَوَّلْتَ قُلُوبَهُمْ رُجُوعًا» (١مل ١٨ : ٣٧).

وهذه الصلاة التى استجابها الرب على الفور وقبول الذبيحة الطاهرة بنزول النار من السماء. كل هذا كمل فى المسيح يسوع حمل الله، الذبيحة الحقيقية التى رفعت الغضب، واحتمل العار مستهيناً بالخزى. وحالما نزلت النار على الذبيحة، علامة القبول والرضى، وانهزمت قوات الشر وقُتل أنبياء البعل عابدى الوثن، انتهت للحال أيام الغضب وسنين الجفاف وأزمنة الجوع.. بذبيحة المسيح انقضى زمان الغضب والجفاف والجوع الروحى، وهطلت أمطار النعمة من السماء غزيرة كسكب الروح القدس الذى يغنى ويروى، يُشبع ويُخصب.

فلما رأى الشعب سقطوا على وجوههم وقالوا: «الرَّبُّ هُوَ اللهُ! الرَّبُّ هُوَ اللهُ!». ما أروعك أيتها الصلاة الحارة، وما أسعدنا نحن المؤمنين بذبيحة الصليب وغنى النعمة المذخرة لنا فيه.

لا رجوع إلى الله إلا بصليب ربنا يسوع المسيح.. ولا استحقاق للنعمة إلا بالمسيح يسوع ربنا.

صلاة داود النبى (صلاة التقدمة والعطاء)

حياة داود النبى كلها صلاة «أَمَّا أَنَا فَصَلاَةٌ» (مز ١٠٩ : ٤)، «سَبْعَ مَرَّاتٍ فِي النَّهَارِ سَبَّحْتُكَ عَلَى أَحْكَامِ عَدْلِكَ» (مز ١١٤ : ١٦٤)، «فِي مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ أَقُومُ لأَحْمَدَكَ عَلَى أَحْكَامِ بِرِّكَ (نهضت لأشكرك)» (مز ١١٩ : ٦٢)، «لَوْ لَمْ تَكُنْ شَرِيعَتُكَ لَذَّتِي، لَهَلَكْتُ حِينَئِذٍ فِي مَذَلَّتِي» (مز ١١٩ : ٩٢).

ولكن الكنيسة فى هذه الليلة اختارت جزء من الصلاة التى صلاّها داود النبى فى نهاية حياته عندما جلس أمام الله يشكره ويعدد أعمال الله العظيمة معه ويقدم لله تقدمة شعبه لبناء الهيكل. وهذه الصلاة نموذج عالى للشكر والتسبيح، وهى المنهج الروحانى لصلاة تقديم العطايا لله وتقريب قربان السرور.

فداود النبى الملك، جلس أمام الله فى اتضاع عجيب يعترف أمام الله بمجده وإحساناته، ويعترف بضعفه وأن الرب اختاره من وراء مربض الغنم. وأن الخير كله هو مصدره. وإن كان يعطى أو يقدم أو ينتدب، «...لأَنَّ مِنْكَ الْجَمِيعَ وَمِنْ يَدِكَ أَعْطَيْنَاكَ... لَكَ كُلَّ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ... وَالْغِنَى وَالْكَرَامَةُ مِنْ لَدُنْكَ» (١أخ ٢٩ : ١٧).

فالكنيسة توجه النظر الآن.. نحو طلبة التقدمة كيف تكون مقبولة وكيف تحوز رضى الله ويقبل من أيدينا عندما نقدم. هى عينة من الطلبات التى سرَّت الله فى العهد القديم وسجلها الروح كصلاة نالت اعتباراً عالياً أمام القدير وقَبِل أن يبُنى البيت من هذه التقدمات التى هى رمز للمسكن الحقيقى الذى نصبه الرب لا إنسان، لأن الهيكل الجديد الذى أقامه المسيح هو جسده، وهو مهيأ لا من عطايا مادية أو مواد بناء بل من حجارة حية روحية مبنية على أساس الرسل والأنبياء ويسوع نفسه حجر الزاوية. وعندما نقدم هذه الحجارة للبناء، نقدمها لله فى يوم العماد ونصلى قائلين: «الذين قدموا لك بنيهم اقبلهم إليك على مذبحك الناطق السمائى» فيقبل الرب ويستجيب لمجد اسمه وبنيان كنيسته المقدسة.

صلاة الملك سليمان (صلاة التكريس)

هذه الصلاة المستجابة التى دخلت مقادس القدير، حينما وقف سليمان وبسط يديه على مثال الصليب، لتدشين الهيكل الذى بناه بحسب التدبير الإلهى بتفاصيل ألهمها الروح القدس لداود بسر لا ينطق به. عبَّر عنه داود النبى حينما سلم مثال الهيكل ورسومه وتفاصيل مبانيه وأوانى الخدمة، وقال لسليمان: «قَدْ أَفْهَمَنِي الرَّبُّ كُلَّ ذلِكَ بِالْكِتَابَةِ بِيَدِهِ عَلَيَّ، أَيْ كُلَّ أَشْغَالِ الْمِثَالِ» (١ أخ ٢٨ : ١٩). الهيكل روحانى فى كل شئ، وبه تكمن كل تفاصيل الكنيسة تحت الشكل المادى الرمز والمثال وأشباه السماويات وظلها.

الحق فى الهيكل الجديد، هو جسد المسيح، والكنيسة عمود الحق وقاعدته.

صلاة التكريس هذه هى بمثابة تخصيص هذا الهيكل لله. هى دخول فى عهد بين الإنسان والله، إن الله يسكن مجده فى البيت الذى دُعى باسمه. وأن الإنسان يستمد خيرات كثيرة إذا التجأ إلى الرب إلهه ناظراً إلى هذا البيت.

إن البيت بيت صلاة، بخور وذبائح، مواسم وأعياد، كلها مقدمة لله، هو مكان الفرح الدائم والمحرقة الدائمة والبخور الدائم صباحاً ومساءاً، والخبز الجديد كل يوم، خبز الوجوه. ولكن شرط واحد وُضع تجاه الإنسان، هو عهد قطعه الرب مع داود بقسم، أقسم الرب «إِنْ كَانَ بَنُوكَ إِنَّمَا يَحْفَظُونَ طُرُقَهُمْ حَتَّى يَسِيرُوا أَمَامِي كَمَا سِرْتَ أَنْتَ أَمَامِي» (١م ٨ : ٢٥).. حفظ الوصايا، وحفظ طريق الرب مستقيماً.

والصلاة فيها اتضاع كثير، وإدراك عجيب لله المنزّه عن السكنى فى مصنوعات الأيادى. وهى تلقى ضوءاً على اتضاع القدير كيف يتنازل حتى إلى حقارتنا، بل أن نصير نحن مسكنه، بل اتحد بمسكننا الترابى وجعله واحداً مع لاهوته. استجابة الصلاة كانت تأكيداً من نحو الله أنه يُسرّ بأن يسكن فينا، ويحل بيننا، ونصير نحن بالحقيقة هيكله.

لقد استجاب المسيح المصلوب والنازل إلى الجحيم والقائم من الأموات.. استجاب صلاة سليمان التى يصليها فى هذه الليلة. فدشن هيكله بسكب دمه، وأقام الحجارة المتفرقة، لتصير بقيامته حجارة حية، فى هيكله السماوى، والرسل الأطهار صاروا أعمدة الإيمان، والقديسة الطاهرة مريم كشفت ألغاز قدس الأقداس المصنوع بيد. وكل الذبائح التى قدمها سليمان للتدشين وجدت تحقيقها وكمال معناها وقوتها فى

ذبيحة المسيح. ورش الدم للتقديس، البيت والأوانى والكتب أيضاً، والثياب، صار رش دم يسوع الذى يتكلم أفضل من دم هابيل.

كانت الاستجابة المؤقتة – قديماً – بنزول نار لقبول الذبيحة، ثم امتلأ البيت دخاناً حتى لم يستطع الكهنة أن يكملوا الخدمة. وها كمال التحقيق نعيشه فى الكنيسة اليوم، لأن فصحنا ذُبح عنا، وقبِل نار وأوجاع الصليب، وأما مجد قيامته فلم يحصل فى دخان أو سحاب، بل بنور حياة أبدية وإشراق فجر القيامة الذى لا يغرب.

صلاة دانيال النبى (صلاة الاعتراف والتضرع)

«سَهِرَ ٱلرَّبُّ عَلَى ٱلشَّرِّ وَجَلَبَهُ عَلَيْنَا، لِأَنَّ ٱلرَّبَّ إِلَهَنَا بَارٌّ فِي كُلِّ أَعْمَالِهِ ٱلَّتِي عَمِلَهَا إِذْ لَمْ نَسْمَعْ صَوْتَهُ. وَٱلْآنَ أَيُّهَا ٱلسَّيِّدُ إِلَهُنَا، ٱلَّذِي أَخْرَجْتَ شَعْبَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِيَدٍ قَوِيَّةٍ، وَجَعَلْتَ لِنَفْسِكَ ٱسْمًا كَمَا هُوَ هَذَا ٱلْيَوْمَ، قَدْ أَخْطَأْنَا، عَمِلْنَا شَرًّا. يَا سَيِّدُ، حَسَبَ كُلِّ رَحْمَتِكَ ٱصْرِفْ سَخَطَكَ وَغَضَبَكَ عَنْ مَدِينَتِكَ أُورُشَلِيمَ جَبَلِ قُدْسِكَ، إِذْ لِخَطَايَانَا وَلِآثَامِ آبَائِنَا صَارَتْ أُورُشَلِيمُ وَشَعْبُكَ عَارًا عِنْدَ جَمِيعِ ٱلَّذِينَ حَوْلَنَا. فَٱسْمَعِ ٱلْآنَ يَا إِلَهَنَا صَلَاةَ عَبْدِكَ وَتَضَرُّعَاتِهِ، وَأَضِئْ بِوَجْهِكَ عَلَى مَقْدِسِكَ ٱلْخَرِبِ مِنْ أَجْلِ ٱلسَّيِّدِ. أَمِلْ أُذُنَكَ يَا إِلَهِي وَٱسْمَعْ. اِفْتَحْ عَيْنَيْكَ وَٱنْظُرْ خِرَبَنَا وَٱلْمَدِينَةَ ٱلَّتِي دُعِيَ ٱسْمُكَ عَلَيْهَا، لِأَنَّهُ لَا لِأَجْلِ بِرِّنَا نَطْرَحُ تَضَرُّعَاتِنَا أَمَامَ وَجْهِكَ، بَلْ لِأَجْلِ مَرَاحِمِكَ ٱلْعَظِيمَةِ. يَا سَيِّدُ ٱسْمَعْ. يَا سَيِّدُ ٱغْفِرْ. يَا سَيِّدُ أَصْغِ وَٱصْنَعْ. لَا تُؤَخِّرْ مِنْ أَجْلِ نَفْسِكَ يَا إِلَهِي، لِأَنَّ ٱسْمَكَ دُعِيَ عَلَى مَدِينَتِكَ وَعَلَى شَعْبِكَ» (دا ٩ : ١٤ – ١٩).

«أَيُّهَا الرَّبُّ الإِلهُ الْعَظِيمُ الْمَهُوبُ، حَافِظَ الْعَهْدِ وَالرَّحْمَةِ لِمُحِبِّيهِ وَحَافِظِي وَصَايَاهُ. أَخْطَأْنَا وَأَثِمْنَا وَعَمِلْنَا الشَّرَّ، وَتَمَرَّدْنَا وَحِدْنَا عَنْ وَصَايَاكَ وَعَنْ أَحْكَامِكَ. لَكَ يَا سَيِّدُ الْبِرُّ، أَمَّا لَنَا فَخِزْيُ الْوُجُوهِ»

هذا دانيال النبى، نبى أرض السبى، الذى لم تخضع روحه للسبى ولا إلى لحظة. بل كان فى أرض السبى بجسده بينما روحه تحلق نحو أورشليم ناظرة إليها بعين الإيمان خلال كوه عُليّة. وبالصلاة الحارة، خلال ساعات النهار والليل.

هذا دانيال الذى احتواه جُب الأسود، ولكن لم تكن للأسود قوة للضرر والإيذاء.

نحو أسرة أرثوذكسية مقدسة

لنبدأ بفصل الإنجيل الطاهر الذى تقرأه الكنيسة فى صلوات الإكليل المقدس لتقديس الزواج، لأن كل شئ يتقدس بكلمة الله (الإنجيل) والصلاة (رفع البخور وطلب حلول الروح القدس).

«وَجَاءَ إِلَيْهِ الْفَرِّيسِيُّونَ لِيُجَرِّبُوهُ قَائِلِينَ لَهُ هَلْ يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يُطَلِّقَ امْرَأَتَهُ لِكُلِّ سَبَبٍ. فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ أَمَا قَرَأْتُمْ أَنَّ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْبَدْءِ خَلَقَهُمَا ذَكَرًا وَأُنْثَى. وَقَالَ مِنْ أَجْلِ هذَا يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ، وَيَكُونُ الاثْنَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. إِذًا لَيْسَا بَعْدُ اثْنَيْنِ بَلْ جَسَدٌ وَاحِدٌ. فَالَّذِي جَمَعَهُ اللهُ لاَ يُفَرِّقُهُ إِنْسَانٌ» (مت ١٩ : ٣ – ٦).

فالرب يسوع يعود بنا راجعاً إلى البدء.. إلى الأصل.

حينما خُلق الإنسان على صورة الله فى البر والقداسة، هذا هو البدء.

وحينما صنع الله لآدم معينة نظيره وقال أبونا آدم «هذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي» (تك ٢ : ٢٣). هذا هو البدء.

أما ما صار بعد ذلك من قصة السقوط المريرة ودخول الموت إلى العالم وسلطان الخطية وسيادة روح الظلمة.. فقد شّوه الأيقونة الجميلة التى هى الإنسان المخلوق على صورة الله.

قساوة القلب:

قال الرب لجماعة الفريسيين حينما سألوه مجربين إياه «فَلِمَاذَا أَوْصَى مُوسَى أَنْ يُعْطَى كِتَابُ طَلاَق فَتُطَلَّقُ؟ قَالَ لَهُمْ الرب «إِنَّ مُوسَى مِنْ أَجْلِ قَسَاوَةِ قُلُوبِكُمْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تُطَلِّقُوا نِسَاءَكُمْ» (مت ١٩ : ٧ ، ٨).

فالأمر يرجع إلى القساوة التى أصابت القلوب، فصار القلب قاسياً متحجراً، حتى صار يبغض ولا يصفح ولا يطيق العيش مع لحمه وعظامه كما كان منذ البدء.

وإن أردنا أن نتعمق المعنى بالأكثر نجد أن من يطلق امرأته يكون قد أبغضها أولاً، وهو حينما تصل به البغضة إلى هذا الحد، يكون قد كسر أول الوصايا وأعظمها التى هى المحبة «تُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ... وَقَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ».

فالموضوع أصلاً هو القساوة والعداوة.. التى قد تصل بالإنسان إلى القتل والإيذاء. فلما تعامل الناموس مع الإنسان المتردى فى هذه القساوة بسبب ملكوت الظلمة، أذن الناموس للرجل أن يطلق امرأته تفادياً لما هو أسوأ وأكثر شراً.

نعمة الخلاص:

تنبأ حزقيال النبى عن زمن المسيا قائلاً: «أَنْزِعُ قَلْبَ الْحَجَرِ مِنْ لَحْمِكُمْ وَأُعْطِيكُمْ قَلْبَ لَحْمٍ» (حز ٣٦ : ٢٦). المسيح رد آدم وبنيه إلى الفردوس، وأعاد خلقتنا من جديد «إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ» (٢كو ٥ : ١٧). فنحن مخلوقون فى المسيح يسوع، و«مَوْلُودِينَ ثَانِيَةً، لاَ مِنْ زَرْعٍ يَفْنَى، بَلْ مِمَّا لاَ يَفْنَى» (١بط ١: ٢٣). وقد اتحدنا بالمسيح كما كان منذ البدء..

لقد صارت الكنيسة – عروس المسيح – «أَعْضَاءُ جِسْمِهِ، مِنْ لَحْمِهِ وَمِنْ عِظَامِهِ» (أف ٥ : ٣٠) بحسب تعبير أبينا آدم، إذ صار المسيح آدم الثانى الذى اقتنى كنيسته واشتراها بدمه.. فى المسيح يسوع صارت لنا أحشاء مراحم ورأفات بدل القلب الحجرى.

فكل من يحيا فى المسيح يسوع لا يستطيع أن يبغض أو يعادى.. كل من هو مولود من الله يحيا فى المحبة.. محبة الله ومحبة القريب «وَكُلُّ مَنْ يُحِبُّ الْوَالِدَ يُحِبُّ الْمَوْلُودَ مِنْهُ أَيْضًا» (١يو ٥ : ١) فلا «يُخْطِئَ وَلاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُخْطِئَ لأَنَّ زَرْعَهُ يَثْبُتُ فِيهِ» (١يو ٣ : ٩). وزرع الله لا توجد فيه بغضة ولا كراهية ولا عداوة.

الانحراف أصاب الخليقة الأولى بسبب الخطية التى دخلت إلى العالم بحسد إبليس، والناموس قد زيد بسبب التعديات وكثرة الخطايا.. والناموس هو قانون للعقوبات على التعديات، وليس له قدرة على الخلاص.

أما نعمة الخلاص فهى فى المسيح يسوع الذى فدانا من لعنة الناموس.

الناموس أَذِنَ بالطلاق للإنسان العتيق الساقط تحت عبودية الموت. أما النعمة فهى تعمل للاتحاد والحب الأبدى، وهى تتناسب مع الإنسان الجديد المتجدد والمخلوق والمولود ثانية لملكوت الله.

+ فإن كان واقعنا اليوم – بكل أسف – يشكو من كثرة حالات الشقاق والنزاع الأسرى، والانفصال، والتمزيق والطلاق أيضاً. فماذا نحن عاملون؟

– هل صارت قلوبنا إلى القساوة القديمة والقلوب المتحجرة؟

– هل فقدت خلقتنا الجديدة وصورتنا الجديدة وإنساننا الجديد قوتها وفاعليتها؟

– والسؤال الأكثر ضرورة: وأين السرّ المقدس؟

– وأين عمل الروح القدس الذى يوّحد ويجمع؟

– وأين قول الرب «ما جَمَعَهُ (أزوجه) اللهُ لاَ يُفَرِّقُهُ إِنْسَانٌ» (مت ١٩ : ٦)؟

– هل ملكت الخطية ثانية عوض البر الذى فى المسيح؟

والأعذار كثيرة، والبحث عن كسر وصية المسيح جوهرياً والابقاء على الشكل حادث، والتحايل فى التفسير والتأويل صار مطلباً كريهاً..

ولكن كل هذا لن يعفى الإنسان المسيحى من الوقوف أمام كرسى المسيح. والمطلوب اليوم لا أن نبحث مشاكل الأسرة على أنها مشاكل اجتماعية، بل لنرجع إلى البدء، فهى فى الأصل أسرة مسيحية مبنية على أساس المسيح، وعلى مثال اتحاد المسيح بالكنيسة وكون المسيح رأس الكنيسة ومخلص الجسد. فإن تعمق هذا المفهوم الروحى فى الأسرة وعشناه بوعى وإدراك، لم يبق موضع للمشاكل «فَإِنَّهُ لَمْ يُبْغِضْ أَحَدٌ جَسَدَهُ قَطُّ، بَلْ يَقُوتُهُ وَيُرَبِّيهِ، كَمَا الرَّبُّ أَيْضًا لِلْكَنِيسَةِ» (أف ٥ : ٢٩).

فإن كان ربنا يسوع المسيح قد رد الإنسان إلى رتبته الأولى، ومركزه الأول، وصورته التى خلقه عليها فى البر والقداسة، وإن كان الخلاص الذى صنعه بصليبه هو بعينه إعادة خلقة الإنسان «إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ: الأَشْيَاءُ الْعَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ، هُوَذَا الْكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيدًا. »٢(كو ٥ : ١٧). لذاك الإنسان الجديد والخليقة الجديدة صارت لها. تراجع على ما نُشر على Facebook

الحاجة ماسة اليوم للعمل الجاد لإرجاع صورة الأسرة المسيحية إلى أصلها، بأعمال التوبة والرجوع بالصوم والصلاة. التوبة لها قدرة على ولادة الإنسان كمعمودية ثانية، عندما أهملنا المناداة بالتوبة الحقيقية تفاقمت المشاكل، لأن الشيطان يبذر بذور الزوان والناس نيام.

حلول مشاكل الأسرة تبدأ بالتوبة والرجوع إلى الله، وهذا هو عمل الكنيسة الرئيسى والأوحد، حينما تدخل كل بيت وتنادى مناداة الإنجيل التى كانت من البدء وتقول: «تُوبُوا، لأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّماوَاتِ (ملكوت الله)» (مت ٣ : ٢). فالكاهن يجب أن يكون تائباً يقود الناس إلى التوبة.. فعمل الكاهن يختلف جذرياً عن العمل الاجتماعى والطب النفسى و Marriage Counseling فأصل الداء هو الخطية التى يغفلها الجميع إلا الكاهن.. وسبب البلايا هو أن الزوجين لا يعيشان حياة توبة حقيقية، ولا حياة المحبة والاتضاع وإنكار الذات.. بل يتمسكان بعناد شديد بالكرامة والتعلق بالماديات وملذات الدنيا وكل ما هو متعارف عليه عند أهل العالم.

الكاهن بسلطان الروح يستطيع أن يجدد بالتوبة الذين يكرز لهم، كما كان الرسل الأطهار يغيرون الأمم الوثنيين، فيرجعون عن الطبع الوحشى والعادات الرديئة وحياة الجسد «فيتَغَيَّرُوا عَنْ شَكْلِهِمْ بِتَجْدِيدِ

أَذْهَانِهِمْ» (رو ١٢ : ٢). الكاهن يقود نفوس أولاده إلى التوبة والاعتراف المتواتر وتذوق نعمة الله بالأسرار، فتثمر الأسرة ثمر الروح وحياة التقوى.

ثمر الأسرة المقدسة:

الشهداء والقديسون والنساك والعُبّاد والبطاركة القديسون ومعلمو البيعة ومقدمو الشعب والمعتبرون فى السماء وعلى الأرض.. كل هؤلاء نشأوا فى أسرة مقدسة. كل منهم يقال عنه إنه ولد من أبوين بارين تقيين فربياه فى خوف الله.

+ ويكفى أن نتذكر أن الأسرة الأرثوذكسية المقدسة كم قدمت للمسيح!! فجميع الشهداء الأبرار كانوا ثمرة زواج مقدس ونشأوا فى بيوت تقوى. وجميع الآباء القديسين مثال أنطونيوس ومكاريوس وآباء الرهبنة ونساك العالم المسيحى تربوا فى بيوت مقدسة. وجميع الآباء البطاركة والأساقفة ومعلمى البيعة قدمهم للكنيسة أب وأم مسيحيان عائشان فى مخافة الله.

هذه كلها هى ثمار زواج طاهر وأسرة تقية عابدة بالروح. والعكس صحيح، فانهيار الأسرة أو انحرافها يخلف وراءه جيلاً من الحطام، والأولاد العادمى المبادئ والقيم، والذين يصيرون حزناً للكنيسة كلها. فبذار القداسة والمحبة الأخوية والاتضاع وإنكار الذات والتعفف وكل أنواع الفضائل، هذه البذار الحية التى يزرعها الوالدان فى الصغار، بحسب وصايا الكنيسة للأشابين بعد المعمودية المقدسة: «ازرعوا فيهم الخصال الجميلة. ازرعوا فيهم البر والتسبيح. ازرعوا فيهم الطهارة. ازرعوا فيهم الطاعة والمحبة والقداسة. ازرعوا فيهم الرحمة والصدق والعدل. ازرعوا فيهم التقوى والصبر والصلاح».

وهذه البذار تنتشر طبيعياً من الحياة اليومية.. فالبذار تستخرج من الثمر الكامل النضوج.. فإن عاش الوالدان الحياة المسيحية وأنضجوا ثمرها، فإن بذار المسيحية تقع فى الأرض الجيدة التى هى قلوب الصغار، فتنمو نمواً طبيعياً إلى أن تأتى بثمر الروح فى الأولاد.

فالتعليم للصغار ليس هو تلقين المعلومات والمحفوظات فحسب، بل هو بالأكثر قدوة الحياة. والمواقف فى الضيقات تُظهر الوالدين على حقيقتهما، فقد تكشف عن عمق الإيمان والاتكال على الله، وقد تكشف تزييف الحياة وتمثيل الفريسيين.

العقبات والتحديات:

يقف الشيطان يحارب وبلا هوادة كيان الأسرة المبنية على أساس المسيح، كما يحارب الكنيسة ويحارب كل نفس تتعلق بملكوت الله.. هو «كَانَ قَتَّالاً لِلنَّاسِ مِنَ الْبَدْءِ» (يو ٨ : ٤٤) وهو «كَأَسَدٍ زَائِرٍ، يَجُولُ مُلْتَمِسًا مَنْ يَبْتَلِعُهُ هُوَ. فَقَاوِمُوهُ، رَاسِخِينَ فِي الإِيمَانِ» (١بط ٥ : ٨، ٩). هذه وصية الإنجيل.

ويستغل عدو الخير الظروف التى تمر بها الأسرة المسيحية والتحديات التى تواجهها، فمثلاً الظروف المعيشية والاقتصادية، فإن كانت الأسرة فى ضيق الحال وتمر بظروف ضيقة صعبة فإنه يستغل هذا ليخلق جواً مكفهراً، من الضيق النفسى والحسرة والتذمر والشكوى وعدم الرضى والتطلع إلى الآخرين الذين فى سعة العيش.. وهذا يثير فى النفس القلق، ثم يتحول هذا إلى ضجر من الآخر وعدم الاحتمال، ثم إلى العراك وكثرة الجدل حول الأمور المادية.. شئ مهول لا يمكن حصره.

ولكن كما قلنا سابقاً.. فالأسرة المسيحية رصيدها الإيمان بالمسيح والاتكال عليه وحده، وهذا يجعل القلب فى سلام يتغنى بكلمات المسيح ووعوده.. إنه يعول «طُيُورِ السَّمَاءِ التى لاَ تَزْرَعُ وَلاَ تَحْصُدُ وَلَيس لها مَخَازِنَ»، ويلبس الزنابق التى فى الحقل أفضل من لبس سليمان فى مجده (مت ٦ : ٢٦ – ٣١).. أفلا يعتنى بنا.. ألسنا أولاده الأحباء وألسنا أفضل من طيور السماء وزنابق الحقل فى نظره؟

وهذا يجعل الشكر والفرح حتى مع أقل القليل..

ألم يقل الكتاب.. «إِنْ كَانَ لَنَا قُوتٌ وَكِسْوَةٌ، فَلْنَكْتَفِ بِهِمَا» (١تى ٨ : ٦).

ألم يقل «لاَ تَهْتَمُّوا لِلْغَدِ» (مت ٦ : ٣٤).

ألم يقل إنه «أَبُونَا وَنَحْنُ لَهُ» (١كو ٨ : ٦، ٢تس ٢ : ١٦) وحتى «شُعُورُ رُؤُوسِكُمْ أَيْضًا جَمِيعُهَا مُحْصَاةٌ» (لو ١٢ : ٧).

هذا هو رصيد الأسرة التى جعلت اتكالها على الله الحى.. حائزة على الغنى الحقيقى الداخلى وكنز الروح فِي الْعَدِيمَةِ الْفَسَادِ (١بط ٣ : ٤).

الرؤى والأحلام

غلالة الجسد كثيفة تصعب الرؤيا من خلالها حتى لأعاظم القديسين.. كقول الرسول: «نَحْنُ وَاثِقُونَ كُلَّ حِينٍ وَعَالِمُونَ أَنَّنَا – وطالما – وَنَحْنُ مُسْتَوْطِنُونَ فِي الْجَسَدِ، فَنَحْنُ مُتَغَرِّبُونَ عَنِ الرَّبِّ... نُسَرُّ بِالأَوْلَى أَنْ نَتَغَرَّبَ عَنِ الْجَسَدِ وَنَسْتَوْطِنَ عِنْدَ الرَّبِّ» (٢كو ٥ : ٦ – ٨)، فالآن نحن ننظر إلى الأمور السماوية كما فى مرآه كما فى لغز، «فَإِنَّنَا نَنْظُرُ الآنَ فِي مِرْآةٍ، فِي لُغْزٍ» ١كو ١٣ : ١٢). ولكننا نتوقع بالصبر والرجاء استعلان مجد بنوتنا لله.. لأننا الآن نحن أبناء الله ولم يظهر بعد ما سنكون، لأن بنوتنا لله سرية مستورة بغطاء الجسد الذى نلبسه، الذى ورثناه من آدم الجسدى أبو جنسنا.

أما ما ورثناه من طبيعة جديدة وخليقة جديدة فى المسيح يسوع، آدم الثانى، فسيُستعلن فى حينه ويظهر فى مجد مجيئه لأننا «سنَكُونُ مِثْلَهُ، لأَنَّنَا سَنَرَاهُ كَمَا هُوَ» (١يو ٣ : ٢).

التعلق للسماويات يجذب روح الإنسان بأشواق لا يُعبّر عنها.. فيظل الإنسان طوال أيامه منجذباً بانتظار العبور إلى أرض ميعاده، حيث فرح اللقيا مع الحبيب، وحيث يكون الكنز هناك يكون القلب. لقد كان حنين القديسين إلى السماء حقيقياً، وشوقهم كان يعذبهم كل يوم وهم منجذبون نحو الوطن، حيث مجد القديسين الذين سبقوهم إلى هناك، وهم فى حال انتظار الوصول.

فلما قربت أيام غربتهم من النهاية وكانت أجسادهم تنحل.. انفتحت لهم السماء ونظروا بالرؤيا من خلال الجسد الذى بدا يتمزق كغلالة كثيفة، تستطيع أن ترى منها شيئاً فى حال تفتق أنسجتها، فتمتعوا فى تلك الأحوال بالنظر إلى ما لا يمكن أن تراه العين.. ونالوا العربون كمقدمة لكمال التنعم وكتعزية عما يعانيه الإنسان وهو يحتضر فى ساعاته الأخيرة.. فتسمح النعمة أن تفتح أمامهم طاقات السماء فيروا المجد الأسنى والفرح الذى لا يسوغ لإنسان أن يصفه أو يتحدث عنه.

فكثير من القديسين سمع أصوات التسبيح السمائى ونغم الملائكة بأذانهم البشرية، وكثير منهم عاين المجد والنور الذى لا يُدنى منه. فكان وهم قد وصلوا إلى حافة الميناء.. وحدود كورة الأحياء أن روائح أرض الميعاد ونسيم المرسى السمائى هب عليهم، لينعموا بما وصلوا إليه بجهادات الصلاة والسهر والصبر والانتظار، وحفظ النفس والجسد والروح فى القداسة والثقة بمواعيد الله.. هذا هو ميراث القديسين.

أرواح الأبرار تسبق بالرؤيا قبل انحلال الجسد لتعاين مواضع القديسين فى السماء، كاستطلاع روحى لما سيكون، لأجل العزاء فى ترك الأحباء والارتباطات الروحية التى تستوجب وجود الإنسان بين من ارتبط بهم فى المسيح.

قال القديس بولس الرسول: «أَنْ أَبْقَى فِي الْجَسَدِ أَلْزَمُ مِنْ أَجْلِكُمْ»، من أجل ذلك قال: «أنا مَحْصُورٌ مِنْ الاثْنَيْنِ» (فى ١ : ٢٣ ، ٢٤) ولكن شهوة انطلاقه كانت تتأجج فى قلبه كل يوم.

مؤازرة أمنا السيدة العذراء:

العذراء أمنا الشفيعة الأمينة لجنسنا، الناظرة إلينا من المساكن العلوية كأم تنتظر كمال خلاصنا ووصولنا بسلام إلى ميناء الخلاص. مؤازرتها وشفاعتها تسندنا عند كمال مشوارنا كما تعلمنا الكنيسة المقدسة. نقول فى صلاة الغروب: «عند مفارقة نفسى من جسدى احضرى عندى ولمؤامرة الأعداء اهزمى ولأبواب الجحيم اغلقى».

فائق عن الوصف هذا الأمر، أن تؤازر العذراء والأم الجهاد الأخير لخروج النفس من ضيقة هذا العالم، وتجاهد عنا قوات الظلمة التى تحاول جاهدة أن تكسب جولة أخيرة، وتخيِّب رجاء النفس فى الخلاص الذى صنعه لنا ابنها وإلهها. وشفاعتها دائماً مقبولة ودالتها من يستطيع أن يصفها.

كان أبونا بيشوى كامل فى أيام مرضه يضع أمامه أيقونتها ينظر إليها كل حين، حتى حين كان يعتصره الألم فلا يستطيع الصلاة، كان يكتفى بأن يركز نظره عليها يستشفع بذات الشفاعات، معدن الطهر والجود والبركات. إلى أن استودع روحه الطاهرة فى يد الرب الذى أحبه، مستنداً على صدر الأم الحنون التى تعزّى بعاطفة الأمومة الفائقة كل من صار لها ابناً بالحق وبالتصاقه بابنها الذى هو الحق والحياة.

أرواح الأبـــرار:

على ما سجل التاريخ من مؤازرة أرواح الصديقين للأبرار الذين يأتى وقت انطلاقهم من العالم شئ لا يُحصى، فالقديس العظيم أنبا أنطونيوس والقديس مقاريوس الكبير وآباء الرهبنة العظام كانوا خير سند لخلفائهم فى وقت انطلاقهم، فرأوهم يحيطون بفراشهم ويزفون موكب انطلاقهم حينما تحمل الملائكة أرواحهم الطاهرة ليصعدوا بها إلى السماء. والشهداء الأبرار مار جرجس وأبو سيفين ومار مينا وغيرهم من الأبطال وُجدوا مؤازرين لرفقائهم فى الشهادة فسندوا جهادهم بقوة إلهية حتى أكملوا شهادتهم.

بل أن رئيس الملائكة ميخائيل له باع كبير فى صراع الشيطان، الذى يحاول جاهداً فى اللحظات الأخيرة أن يزرع شكوكه ويكثف حربه، مظهراً الخطايا والضعفات ومذكراً الإنسان بجهل الصبا وخطايا الشباب وكل ما كان مخفياً.. ورغم أعمال التوبة والحصول على الغفران بدم المسيح وغسل الضمير بدموع

التوبة وصدق مواعيد الله. ولكنه الكذاب إذ يُظهر أمام النفس الديون التى كانت عليها، والصكوك التى كانت ضدها، ولو أنها مدفوعة تماماً، ولو أن المسيح يكون قد محاها بدم صليبه. ولكن الشيطان كذاب وأبو الكذاب. فلذلك تشدد الآباء والأبرار برؤى القديسين واطمأنوا بحماية رئيس الملائكة الجليل وغلبوا العدو.

تسليم الروح بيد الرب:

إن التعبير الذى استلمته الكنيسة من فم الرب يسوع عندما أسلم الروح على الصليب غفراناً لكل العالم. قال للآب: «يَا أَبَتَاهُ، فِي يَدَيْكَ أَسْتَوْدِعُ رُوحِي» (لو ٢٣ : ٤٦). وقد صار هذا القول العجيب فى فم الأبرار وهم يرقدون فى المسيح غير منفصلين عنه. فإن كنا «بِهِ نَحْيَا وَنَتَحَرَّكُ وَنُوجَدُ» (أع ١٧ : ٢٨)، كذلك أيضاً «لَيْسَ أَحَدٌ مِنَّا يَعِيشُ لِذَاتِهِ، وَلاَ أَحَدٌ يَمُوتُ لِذَاتِهِ. لأَنَّنَا إِنْ عِشْنَا فَلِلرَّبِّ نَعِيشُ، وَإِنْ مُتْنَا فَلِلرَّبِّ نَمُوتُ. فَإِنْ عِشْنَا وَإِنْ مُتْنَا فَلِلرَّبِّ نَحْنُ» (رو ١٤ : ٧ ، ٨). فإن كانت الحياة فى الجسد محسوبة جملة وتفصيلاً، إنها للرب، فحتى موت الجسد يُحسب لحساب المسيح. لذلك فإن موت الأبرار فيه من العزاء ما يغلب سطوة الموت وخوف الموت ورعبته، لأنهم فى الواقع يستودعون أرواحهم فى يد أبيهم، كطفل يريد أن ينام فيضع رأسه على كتف أبيه فى قمة السلام والطمأنينة وراحة القلب، لذلك أيضاً يُحسب أن الأبرار يدخلون إلى الراحة.

«سأترك العالم غير آسف عليه» هكذا قال لى أبونا متى المسكين، نيّح الله نفسه، الذى كان بنعمة المسيح قد تحرر من كل ما يربطه بالأرض وتراب الأرض والناس ومجد الناس. وقال لى: «إنه لا يلزمنى شئ منه، ولا اشتهى أن آخذ شئًا ولا يوجد ما يربطنى به أى نوع من الرباطات».

هكذا تحقق رغم فارق القرون من الأزمان قول القديس أغسطينوس الذى قال: «وضعت قدمى على قمة هذا العالم حينما أصبحت لا أخاف شيئاً ولا اشتهى شيئاً مما فيه». يقول المرنم: «حَلَلْتَ (قطعت) قُيُودِي. فَلَكَ أَذْبَحُ ذَبِيحَةَ حَمْدٍ (التسبيح)» (مز ١١٦ : ١٦ ، ١٧).

إن الخروج من الجسد يعد بالنسبة لأولاد الله آخر القيود التى تنقطع، لتنال كمال حرية مجد أولاد الله. يعيش الإنسان فى المسيح فى اختبار الحرية التى حررنا المسيح بها ويجاهد ألا يرتبك بنير عبودية مدى الحياة، لأن طبيعة الإنسان الضعيفة مستهدفة دائماً للعبودية بسبب السقوط الأول.. فما أسهل أن يسقط الإنسان مثلاً فى الادمان والعبودية ولأشياء لا حصر لها. ولكن المجاهد المسيحى حريص على

التمسك بحريته فى المسيح حتى لحظة خروجه من هذا العالم.. عالماً أن العبد ليس له نصيب فى ميراث البنين، الذى هو الملكوت الأبدى.

الانطلاق:

«الآنَ تُطْلِقُ عَبْدَكَ يَا سَيِّدُ حَسَبَ قَوْلِكَ بِسَلاَمٍ، لأَنَّ عَيْنَيَّ قَدْ أَبْصَرَتَا خَلاَصَكَ» (لو ٢ : ٢٩). هذه صلاة سمعان الشيخ الكاهن الذى عاين خلاص الله فى وجه يسوع، عندما حمله على ذراعيه، وهو قد أقبل بالروح إلى الهيكل بعد سنوات انتظار، كانت قد طالت عليه جداً. وقد أحس باحساس روحى عميق أنه ظل فى الجسد، كل هذه السنين، كمن حُكم عليه مسجوناً فيه. فصارت طلبته الأولى من المخلص أن يطلقه بسلام من سجن الجسد ليطير كما بجناحي حمامة ويأتى إلى الله كقول المرنم.

وقد ورثت الكنيسة هذه الصلاة النقية والطلبة الطاهرة واستودعتها كذخيرة لكل المؤمنين يتلونها فى الصلاة مساء كل نهار قبل أن يستودعوا أجسادهم للنوم، الذى هو بمثابة الموت الصغير حيث يرتخى الجسد بشبه الموت وتصير جميع أعضاؤه وغرائزه فى سبات.

ما أجمل تدبير الكنيسة هذا حينما تضع الغاية أمام الإنسان كل يوم! لكى يسعى جاهداً للبلوغ إليها، غير واضع آماله فى زوال الدنيا، وغير مؤمل فى شئ زمنى، مادام الزمن يأتى إلى النهاية كمثل ما يحيا كل يوم.. فالصباح مشرق يعقبه الليل المظلم، وهكذا يدرك أنه غريب كسائر آبائه، لذلك يطلب أن يبلغ إلى الوطن السمائى.

«لِيَكُنِ الزِّوَاجُ مُكَرَّمًا عِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ، وَالْمَضْجَعُ غَيْرَ نَجِسٍ» (عب ١٣ : ٤).

الزواج فى إيماننا الأرثوذكسى.. مقدس بكل المقاييس والمعايير، إذ هو سر من أسرار البيعة وهو عمل الله.

ليس من حق أى أحد أن يحتقر الزواج.. لقد قام أناس مبتدعون فى القرن الأول يحقّرون من شأن الزواج ويحرّمونه ويمنعونه. فعقدت ضدهم المجامع وحرمهم الآباء ومن يقول بقولهم.

فى كنيستنا المقدسة يوجد المتبتلون والرهبانK ويوجد المتزوجونK وجميعهم أعضاء فى جسد الكنيسة الواحدة، والمتبتلون لا يحتقرون الزواج، بل كوصية الرسول يكرمونه، والآباء الأساقفة يباركون ويقدسون سر الزيجة وهم رهبان بتوليون.

فى الكنيسة الواحدة توجد المواهب المختلفةK تخدم الروح الواحد والمسيح الواحد بإيمان واحد لبناء ملكوت الله.. «لاَ يَزْدَرِ مَنْ يَأْكُلُ بِمَنْ لاَ يَأْكُلُ» (رو ١٤ : ٣). هذا قانون عاشت به الكنيسة كل أجيالها.

فراش الزيجة مقدس طاهر،لا يوجد فيه ظل للخطية أو شبه الدنس. أفكار أهل العالم الجسدانيين بعيدة كل البعد عن حياة أولاد الله.. فى صلوات الإكليل نقول: «هكذا اتخذ سائر الآباء المؤمنون امرأة واحدة بطهر ونقاوة لطلب الذرية وإيجاد الخلف».. فمنذ البدء تحوط النقاوة والطهر حياة الآباء القديسين، وبكل وضوح تصلى الكنيسة قائلة: «أُحرس مضجعهما نقياً».

سيرة أهل العالم وطرقهم وأفكارهم ولغتهم شئ مزرى، تجزع منه النفس ويشمئز منه كل من يحيا بالروح، أما سيرة الآباء القديسين الذين عاشوا فى الزيجة المقدسة، فيشتمّ الإنسان منها رائحة النقاوة والطهارة والتعفف، وثمرهم كان مباركاً وزرعهم كان نسلاً باركه الرب.

لغة الروح:

يوصى القديس بولس الرسول – من جهة العلاقات الزوجية – رداً على ما كتبه أهل كورنثوس إليه يستوضحون هذا الأمر كيف يكون قائلاً: «لِيُوفِ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ حَقَّهَا الْوَاجِبَ، وَكَذلِكَ الْمَرْأَةُ أَيْضًا الرَّجُلَ. لَيْسَ لِلْمَرْأَةِ تَسَلُّطٌ عَلَى جَسَدِهَا، بَلْ لِلرَّجُلِ. وَكَذلِكَ الرَّجُلُ أَيْضًا لَيْسَ لَهُ تَسَلُّطٌ عَلَى جَسَدِهِ، بَلْ لِلْمَرْأَةِ. لاَ يَسْلُبْ أَحَدُكُمُ الآخَرَ، إِلاَّ أَنْ يَكُونَ عَلَى مُوافَقَةٍ، إِلَى حِينٍ، لِكَيْ تَتَفَرَّغُوا لِلصَّوْمِ وَالصَّلاَةِ، ثُمَّ تَجْتَمِعُوا أَيْضًا مَعًا لِكَيْ لاَ يُجَرِّبَكُمُ الشَّيْطَانُ لِسَبَبِ عَدَمِ نَزَاهَتِكُمْ. وَلكِنْ أَقُولُ هذَا عَلَى سَبِيلِ الإِذْنِ لاَ عَلَى سَبِيلِ الأَمْرِ» (١كو ٧ : ١ – ٦).

فالوحى الإلهى حينما يتعرض لهذا الأمر، يتكلم كلام التعفف ولغة الطهارة، وشتان بين كلام الروح وكلام أهل العالم. فالروح يضع إطار الحشمة والوقار على كل كلمة، وهكذا يتعلم أولاد الله أن يكون فكرهم ولغتهم متمشية مع الروح، كمتعلمين من الروح «أما كَلاَمُ السَّفَاهَةِ، وَالْهَزْلُ وَالْقَبَاحَةُ ،الَّتِي لاَ تَلِيقُ، فَلاَ يُسَمَّ بَيْنَكُمْ كَمَا يَلِيقُ بِقِدِّيسِينَ» (أف ٥ : ٣ ، ٤) هكذا يوصى الرسول بولس.

فمن جهة العلاقات الزوجية أسماها الوحى «إيفاء حق واجب» وكأنّ الواحد مديون للآخر، انظر كيف يحول الروح الإنسان عن ذاته لكى يكون للآخر؟ ومن جهة أنه حق واجب السداد فلا مكان للأنانية ولا للذاتية.

ثم يوصى الرسول ألا يكون هناك سلب عن غير إرادة أو موافقة، لئلا يسقط الإنسان فى غواية وابتزاز واشباع نزوات، كأهل العالم المغتصبين والمتجبرين، ولئلا يفقد احترامه للآخر حين يسلبه، أو كأنّه يهينه إذ لم يعد شريكه، بل كأنه أداة أو آلة لتكميل الشهوات الجسدية.

وقد أوصى الرسول أيضاً فى إطار الروح أن يكون الاجتماع إلى حين، ليتفرغوا للصوم والصلاة، وكأنّ القصد والهدف من الحياة هو الصوم والصلاة. وإن يكن هذا الأمر أساسياً فى حياة الأزواج، ولكن ليكن بلياقة أى إلى حين، ثم يتفرغون للصوم ناظرين إلى ما هو للروح، ومهتمين اهتماماً سماوياً لكى يحيوا فى ملء خوف الله، وضبط الجسد والفكر واللسان وكل الحواس، متقوين بالصلاة والصوم على هدم كل حصون العدو الشرير.

وهكذا يحصل الإنسان الروحى فى حياته على الإفراز والاتزان، لأنه إن اختلت الموازين من جهة الجسد، وصار الإفراط وعدم النزاهة، يُجرب الإنسان من الشيطان كقول الرسول: «يُجَرِّبَكُمُ الشَّيْطَانُ لِسَبَبِ عَدَمِ نَزَاهَتِكُمْ» وهذا معناه أن العدو الشيطان متى وجد الإنسان عديم النزاهة ومترديا فى الافراط فى شهوات الجسد، فإنه يجربه بالأكثر بأوجاع وحيل وتجاوزات تحدر النفس إلى مستنقع من وحل الخطايا، بحسب ما هو حاصل فى حياة أهل العالم الجسدانيين.

فالضابط إذن هو الصوم والصلاة.

صلاة سر الإكليل المقدس

الزواج بحسب إيماننا الأرثوذكسى هو سرّ من أسرار الكنيسة، كسرّ المعمودية التى هى الولادة الثانية، وسر الأفخارستيا (الشكر) الذى هو شركة جسد المسيح، وباقى الأسرار التى تتم بفعل الروح القدس، وتتقدس بكلمة الله والصلاة.

فى سر الزيجة يحل الروح القدس فيوحّد ويؤلّف ويخلق من الاثنين واحداً، فيحصل الاثنان على نعمة اتحاد فائق للإدراك البشرى. ويكمل قول المسيح فيهم «ما جمعه (أزوجه) الله».

التركيز فى صلاة الإكليل على حضور المسيح له المجد فى عرس قانا الجليل، والطلبة أن يحل المسيح، وكما بارك فى ذلك العرس وحول الماء خمراً حقيقياً بسلطان لاهوته، يحل ويبارك هذا الزواج ويحول بقدرته مادة السر (الرجل والمرأة) ويخلقهما كياناً واحداً نفساً وجسداً وروحاً.

وكما يُستمد القداس الإلهى من عمل المسيح فى يوم الخميس الكبير، حينما شكر وبارك وكسر وأعطى.. فيقول الكاهن كما باركت فى ذلك الزمان الآن أيضاً بارك. فالسر ممتد والروح حالّ وفاعل، وجسد المسيح الواحد المكسور عن العالم كله، يصير حاضراً معنا على المائدة المقدسة.

كذلك بالتمام يصير حضور المسيح فى عرس قانا الجليل بالنسبة لكل إكليل. فالمسيح (العريس الحقيقى) حاضر وفاعل بقوته الإلهية وهو متمم السر. فليس الكاهن إلا أداة يعمل المسيح بها عمله العجيب.

والمتأمل فى عمق الصلاة وإبداع الطقس الكنسى الإلهى يستطيع أن يدرك ما وراء الحركات المنظورة من نعم غير منظورة:

(١) يدخل بالعريس إلى الكنيسة – خورس الشمامسة – وهم يقولون بلحن الفرح «إب أورو.. يا ملك السلام أعطنا سلامك». وهذا اللحن يقال وهم يدخلون بالحمل إلى الكنيسة.. وهو يُعبّر عن حضور المسيح فى كنيسته، إذ هو ملك السلام ورئيس السلام واسمه عمانوئيل إلهنا فى وسطنا يباركنا كلنا.

فالكنيسة ترى فى كل عريس شخص المسيح العريس الحقيقى. فإن أدرك العريس وضعه كإنسان حى بالمسيح، وكحاصل على نعمة تمثيل المسيح كعريس ورأس للجسد وكمسيح للأسرة، وباذل نفسه حتى الموت لكى يقتنى ويخلص.. لو أدرك العريس الداخل إلى العرس مدى النعمة التى يحصل عليها، لعاش حياة المسيح، واقتنى سر المسيح بدراية وإدراك، وصار منزله حقاً كنيسة مقدسة مسكناً لله مع الناس!!

(٢) بعد إتمام الإكليل يخرج الشمامسة وهم يزفون العروسين ويقولون لحن «افرحى يا مريم الملكة..» فكما تمجد الكنيسة عريسها الختن الحقيقى الرب يسوع إذ تراه فى كل عريس كائن كمصدر للفرح.. هكذا تمجد العروس الحقيقية غير الدنسة الهادئة والدة الإله القديسة مريم، إذ تستمد كل عروس روحية رونقها وجمالها من جمال الملكة الحقيقية والدة الإله، التى صارت خدراً سمائياً حل فيها ملك الملوك ورب الأرباب.

فالأصل فى الفرح هو المسيح بحضوره كعريس، واختياره لجنس البشر ككنيسة وعروس مهيأة ومزينة بالفضائل مكملة له وفيه وبه قائمة عن يمينه فى السموات.

(٣) الجزء الأول من الصلاة يدعى «عقد الأملاك» وهو تمليك الرجل للمرأة والمرأة للرجل، إذ بعد ذلك لن يعود للرجل سلطان على جسده بل للمرأة ولا المرأة سلطان على جسدها بل للرجل، صار كل منهما ملكاً للآخر كمن باع نفسه وإرادته وجسده لكى لا يعيش بعد لذاته، بل للآخر.

كانت هذه الصلوات تقام عند بداية الاتفاق بين الخطيبين، وكانت تعرف بنصف الإكليل. فإن حدث خلاف أو عدم رضا ما كانوا يفكون هذا العقد وكانوا يقولون «فك الناموس حرام» فكانت هذه الصلوات كأنها رباط ارتبط به الخطيبان يستحيل معه التفريق، وكان الارتباط الكامل يتم بالاتحاد الزيجى بصلاة الإكليل.

وصلوات عقد الأملاك تشبه إلى حد كبير صلوات الإكليل، فهى تبدأ بالرشومات ثم بصلاة الشكر ورفع البخور، والبولس من كورنثوس يتكلم عن الاتفاق فى الرأى والفكر و«أَنْ تَقُولُوا جَمِيعُكُمْ قَوْلاً وَاحِدًا، وَلاَ يَكُونَ بَيْنَكُمُ انْشِقَاقَاتٌ... » (١كو ١٠ : ١)، ثم فصل الإنجيل «فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ.. » (يوحنا ١). فالمسيح هو البدء والبداية وهو رأس العمل وصانع السلام.

ثم بعد ذلك الطلبات.. ثم صلوات على الثياب التى يلبسها العريس وعلى الحلى التى تلبسها العروس، ثم صلاة شكر لله من أجل عمله.

فلما زادت الحالات التى يحدث فيها خلافات ويضطرون إلى عمل الإكليل على غير وفاق كامل خوفاً من كسر الناموس.. وكانت نتيجة لذلك تتم زيجات غير سعيدة، فقد رأى الآباء أن يضموا صلوات عقد الأملاك إلى صلوات الإكليل المقدس، ويصلوها معاً فى وقت الإكليل.. وذلك تفادياً لما كان يحدث من قبل، واستعاضوا بعمل صلاة لإعلان الخطبة وهى ما يعرف ب ⲭⲉⲡⲉⲛⲓⲱⲧ چى بين يوت أى «أبانا الذى» وهى مجرد صلاة شكر، ويقال أبانا الذى كبداية للاتفاق وإعلان أمام الناس.. ولا توجد غضاضة فى فسخ الخطبة إن لم يحدث الاتفاق.

(٤) أثناء صلوات الإكليل، يلبس العريس برنس الكهنوت، ويُشدّ بزنار، ويوضع على رأسه إكليل، ويُمسح بالزيت.

والطقس هنا يضع على العريس ملامح المسيح، كملك متوج وممسوح بالزيت كمختار الله ومسيح الرب، وككاهن يقدم ذبيحة نفسه، وكمشدود بزنار قرمزى مثل منتصر فى الحرب، وكمن بذل نفسه لاقتناء الكنيسة. والعريس إذ يتحد بامرأته كمثال المسيح والكنيسة، يجب أن يكون فيه صورة المسيح. فإن كان قد لبس الإكليل فليعلم أن ملكوت المسيح يختلف جذرياً عن ملكوت الناس، فالمسيح ملك بالحب لا بالحرب، وملك بالصليب أى بالبذل وملك باتضاع عجيب، وقال: «مَمْلَكَتِي لَيْسَتْ مِنْ هذَا الْعَالَمِ» (يو ١٨ : ٣٦).

فإن قلنا إن الرجل رأس المرأة فهذا حق، ولكن على مقياس أن المسيح رأس الكنيسة، وإن قلنا إن العريس هو ملك البيت ورب البيت، ولكن على قياس ملكوت المسيح والصليب، وإن قلنا إن العروس تخضع لعريسها لكن على مقياس خضوع الكنيسة للذى فداها. وإن كان العريس يلبس بدلة الكهنوت فكهنوت المسيح ليس إلا ذبيحة نفسه فهو الكاهن والذبيحة معاً.

فإن وعى أحد هذا السر فقد تقدس فكره وتكرست حياته، لتكميل عمل الله وإظهار نموذج عمل الاتحاد الإلهى لمجد المسيح والكنيسة.

(٥) فى ذات الوقت تلبس العروس إكليلها.. فهى قائمة عن يمين عريسها بثياب بيضاء مُكللة بالمجد والكرامة.. «فالْمَرْأَةُ لَيستْ مِنْ دُونِ الرَّجُلِ فِي الرَّبِّ ، فكَمَا أَحَبَّ الْمَسِيحُ أَيْضًا الْكَنِيسَةَ يُحِبُّ الرجل امْرَأَتَهُ كنَفْسَهُ» (١كو ١١ : ١١، أف ٥ : ٢٥ ، ٢٨)، فإن صار العريس بالإكليل ملكاً فى بيته ككنيسة صغيرة، فإن العروس المكللة هى ملكة مكرمة ككرامة كنيسة المسيح فى السماء. فالمساواة قائمة على أساس الجسد الواحد والروح الواحد والكيان الواحد. ولكن كمثل الرأس فى الجسد الواحد يكون العريس، ومثل الجسد للرأس تكون العروس، وليس بين أعضاء الجسد الواحد انشقاق بل امتزاج كامل وإن اختلفت وظائف الأعضاء ولكن الروح الذى يحيى هو واحد.

(٦) الوحدانية التى يعملها الروح فى سر الإكليل تحتاج إلى ممارسة وفهم روحى، والذى يضمن دوام الوحدانية هو الروح القدس الذى قدّس ووحّد الاثنين بحلوله، دوام الخضوع للروح القدس وجعل الحياة فى قيادته، يضمن تأصل الاتحاد وتعميق الامتزاج وكماله، والعكس صحيح فإن عاش الزوج والزوجة بمفاهيم عالمية جسدانية فكيف تقوم الوحدانية بينهما وعلى أى أساس؟

لذلك توصى الكنيسة كل عريس وعروسة أن يحيوا بالروح، فى الصلاة المتواترة والأصوام وممارسة الفضائل وحفظ وصايا المسيح.

فإن كانت الوصايا للعريس فهى تختص بعمل الرأس، وأن يكون بنية خالصة وقلب سليم يجتهد فيما يعود لصالحها، ويسر قلبها، ويكون حنوناً عليها. وتذكّره الكنيسة بمسئوليته عن جسده (عروسه) بعد والديها.

ومن جهة العروس فهى فى موضع المعين والمفرح القلب والخضوع ووداعة الحكمة و«زِينَةَ الرُّوحِ الْوَدِيعِ الْهَادِئِ، الَّذِي هُوَ قُدَّامَ اللهِ كَثِيرُ الثَّمَنِ» (١بط ٣ : ٤).

فإن تعمقت هذه الوصايا تجدها تجسيداً لحياة روحية سواء من جهة الرجل أو المرأة.. فثمر الحياة بالروح يكون أكثر من هذه الوصايا بما لا يُقاس.

فصل البولس:

«أَيُّهَا النِّسَاءُ اخْضَعْنَ لِرِجَالِكُنَّ كَمَا لِلرَّبِّ... لِكَيْ يَكُونَ لَكُمْ خَيْرٌ، وَتَكُونُوا طِوَالَ الأَعْمَارِ عَلَى الأَرْضِ» (أف ٥: ٢٢الخ، ٦ : ١ – ٣).

المثال الكامل الذى يُبنى عليه سر الاتحاد الزيجى كما يبدو فى هذا الفصل هو اتحاد المسيح بالكنيسة – فالمسيح هو رأس الكنيسة ومخلصها..

هو أحبها وأسلم نفسه لأجلها..

هو يقوتها ويربيها..

هو طهّرها بغسل الماء بالكلمة..

هو أحبها أولاً ومات لأجلها واقتناها بدمه الطاهر..

وفى المقابل كنتيجة لعمله الإلهى الفائق خضعت له بعبادة وشكر وطاعة وتقديس.. وإذ سكب عليها من حبه، أحبته من كل القلب ومن كل الفكر كمستحق وعادل.

لأنه ليس آخر أحبها هكذا.. إذ أحبها إلى المنتهى..

هذا هو الكمال فى الإنسان المسيحى وهو نموذج المسيح والكنيسة..

المسيح هو الرأس والكنيسة هى جسده الطاهر.

«الرَّجُلَ هُوَ رَأْسُ الْمَرْأَةِ كَمَا أَنَّ الْمَسِيحَ أَيْضًا رَأْسُ الْكَنِيسَةِ، وَهُوَ مُخَلِّصُ الْجَسَدِ» (أف ٥ : ٢٣). اقتناها بدمه بغسل الماء بالكلمة أى بذل ذاته عنها ليقتنيها.

فسلطانه على الكنيسة ليس تسلّطاً، ولكن عمل فدائه ودم صليبه يشهد أنه مستحق العبادة، وهى مقدسة فيه وبه ولا تشيخ ولا تفتر.

فعندما يُقرأ فصل البولس لتقديس العروسين، يجب أن يرتقى الإدراك إلى سر المسيح والكنيسة، ويجب أن يكون الإيمان على مستوى الوعى، ولينظر كل واحد إلى الأساس الذى يُبنى عليه.

هذا الإدراك الروحى يفرح به الإنسان وهو فى بداية مشوار الحياة الزوجية. فإن كان الرجل كمثال المسيح يصير رأس المرأة باستحقاق، إذ هو يتبع خطوات سيده فى الحب اللانهائى والعطاء السخى وبذل الذات من أجل امرأته.

فإن صارت فيه ملامح المسيح بالحقيقة وعاش وسلك بالروح، فماذا يكون من الزوجة سوى الخضوع على صورة الكنيسة عروس المسيح.

وهنا تنتفى كل السلبيات فى الفهم من الخضوع والقهر والمذلة والهوان والتسلط من جهة الرجل والتجبر والقسوة.. كل هذه المفاهيم وما ينتج عنها من مصائب. حاصلة من عدم الفهم الروحى وعدم الحياة بحسب الإنجيل.

فصل الإنجيل:

«يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ»

عن الاتحاد الإلهى من جهة المسيح والكنيسة قال الرب: «مَنْ تَرَكَ أَبًا أَوْ أُمًّا» (مت ١٥ : ٢٩). فالشرط بالترك قائم بل هو أساس الاتحاد.

«مَنْ أَحَبَّ أَبًا أَوْ أُمًّا أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي» (مت ١٠ : ٣٧)

«وَمَنْ لاَ يُبْغِضُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ» (لو ١٤ : ٢٦).

كل هذا معناه أن من التصق بالرب صار روحاً واحداً.. أى تخلى عن الكل لكى يلتصق بالمسيح ويصير واحداً معه وفيه ويقول: «لِيَ الْحَيَاةَ هِيَ الْمَسِيحُ» (فى ١ : ٢١). هنا على هذا المثال يحدث أن يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته كقول الرب. وهنا يجدر أن يُدرك الإنسان نوع طبيعة هذا الاتحاد الزيجى أنه على مثال الكمال.. «وَيَكُونُ (يصير) الاثْنَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. إِذًا لَيْسَا بَعْدُ اثْنَيْنِ بَلْ جَسَدٌ وَاحِدٌ» (مت ١٩ : ٥ ، ٦).

وتقديس الزواج بهذه الكلمات الإلهية يعنى:

+ أن الرجل وامرأته صارا واحداً.. جسداً ونفساً.. ككيان جديد مخلوق بكلمة الإنجيل والصلاة وحلول روح الله.

+ ما كان الرجل يوماً.. واحداً مع أبيه وأمه – لم ولن يحدث – فالعلاقة بالأب والأم بكل ما فيها من حب وعمق لا يوصف ورباط اللحم والدم تختلف تماماً عن اتحاد الرجل بامرأته، كشريعة الزواج المسيحى الذى يجعل منهما وحدة واحدة وكيان واحد.

+ فحب الأب والأم شئ.. وحب الزوجة شئ آخر.. لا يتعارضان بل يختلفان فى النوع، فإن أدرك الزوج هذا الأمر سلك بلا ارتباك.

لقد صارت الزوجة جسده الخاص.. أخذها من يد الرب واقترن بها باتحاد لا يوصف.

+ الحب الزيجى الذى يسكبه الروح من جهة الاتحاد والتحول الذى يحدث بالسر الإلهى هو حقيقى إلهى، لا يدركه سوى كل من يحيا بالروح.

السر الإلهى كباقى الأسرار.. العمل والتحول والتغيير جوهرى لا يُدرك بحواس الجسد.. فيبقى الشكل الخارجى لمادة السر كما هو بينما يكون التغيير قد حدث جوهرياً. كمثل الصلاة فى قداس الأفخارستيا.. لتحويل الخبز والخمر إلى جسد الرب ودمه.

فإن أُخذ الإنجيل مأخذ الجد للحياة، وأخضع الإنسان نفسه للوصايا الإلهية كواجبة النفاذ ومستحقة لكل قبول، فإنها تصير لكل واحد كنور يهدى الإنسان إلى الحياة الأفضل، ليس فى يوم الإكليل فقط بل وحتى آخر يوم فى الحياة.

فوصية الإنجيل للرجل: «أَيُّهَا الرِّجَالُ، أَحِبُّوا نِسَاءَكُمْ كَمَا أَحَبَّ الْمَسِيحُ أَيْضًا الْكَنِيسَةَ وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِهَا» (أف ٥ : ٢٥).

تصير كمرآه لقلب الرجل يقيس نفسه عليها وتكشف له كل يوم تقصيره.

وهل بلغ مبلغ الحب الإلهى فى حياته العملية؟

وهل بلغ مبلغ البذل لاقتناء زوجته؟

أما إذا غاب هذا الإنجيل عن الرجل فإنه يتوه فى متاهات مدح الذات وتأليهها، حاسباً نفسه أنه قد بلغ الكمال وهو دائماً صاحب الحق والمجنى عليه. وفى تبريرات الذات تغيب الرؤيا الحقيقية ويلتمس الإنسان لنفسه الأعذار ولا يرى فى غيره إلا العيوب.

وهكذا الوصية بالنسبة للمرأة: «أَيُّهَا النِّسَاءُ اخْضَعْنَ لِرِجَالِكُنَّ كَمَا لِلرَّبِّ» (أف ٥ : ٢٢). فإن أشرقت هذه الوصية على ذهن المرأة وقلبها، فإنها فى نور الوصية ترى ذاتها فى تقصير شديد فى عدم إكمال الوصية فى خضوع الروح، وفى الوداعة، والاتضاع الذى هو الزينة الحقيقية التى هى قدام الله كثيرة الثمن. فكم بالحرى أمام الناس!

فإن غابت الوصية عن الذهن والقلب، فإن الذات تدفع إلى الاعتداد والنفور من أى أعمال الاتضاع، وتطالب بالمتعارف عليه من أهل العالم، وينسى الإنسان كيانه الروحى ويسلك كمثل الجسدانيين.

إذن الإنجيل هو ضابط السلوك ومنير الطريق وضمين النجاح فى حياة الرجل والمرأة على حد سواء.

القراءات فى عقد الأملاك:

فصل البولس فى عقد الأملاك: «أَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ، بِاسْمِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، أَنْ تَقُولُوا جَمِيعُكُمْ قَوْلاً وَاحِدًا، وَلاَ يَكُونَ بَيْنَكُمُ انْشِقَاقَاتٌ» (١كو١: ١٠).

هذه الوصية الرسولية تستودعها الكنيسة مسامع العروسين لكى يتمسكا بها فى اتفاق الرأى ووحدانية الروح. لأن من لهم إيمان واحد ومعمودية واحدة ورب واحد والتصقوا به فيجب أن يكون لهم رأى واحد وقول واحد.

أما فصل الإنجيل فى عقد الأملاك (يو ١ : ١ – ١٧) فهو بدء إنجيل القديس يوحنا: «فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ... »

فهو بداية كل بداية وهو قبل كل بداية. فإن كان الزوجان يقفان أمام هيكل رب الصباؤوت ومذبحه المقدس فإن ابن الله، الكلمة، هو بدء ارتباطهما فى الجسد والروح معاً.

وما أجملها بداية وما أقدسه رباط فى المسيح! وهذا إن انفتح له الوعى الروحى للعروسين فإن الذى بدأ فيهم عملاً صالحاً يقدر أن يكمل..

لإنه إن كان المسيح هو الباكورة لهذه الحياة الوليدة، فثمر صليب المسيح وقيامته هو المتحصل فى الحياة كلها.

هو إذن حجر زاوية البيت، وهو بدء كل نهار وبدء كل عمل وبدء كل خطوة وحركة.. هو الكل فى الكل.

فهرست

١- لست أريد أن تجهلوا

٢- لا تهتموا للغد

٣- أدرِّب نفسى

٤- مثل حبة الخردل

٥- مثل البذار

٦- مثل وكيل الظلم

٧- مثل الغنى ولعازر

٨- مثل عرس ابن الملك

٩- مهمة رئيس الملائكة ميخائيل

١٠- المعطى فبسخاء

١١- شفاعة السيدة العذراء والقديسين

١٢- إنجيل المرأة الخاطئة

١٣- الضمير المسيحى

١٤- يوم الخمسين وعمل الروح القدس

١٥- ما أشبه اليوم بالأمس

١٦- النساء والزينة

١٧- العلاقات الإنسانية فى حياة القديس بولس الرسول

١٨- سبت الفرح

١٩- نزل إلى الجحيم

٢٠- الهوس الثالث (تسبحة الثلاثة فتية القديسين)

٢١- تسبحة العذراء مريم

٢٢- صلاة زكريا الكاهن

٢٣- صلاة سمعان الكاهن

٢٤- قصة سوسنة ابنة حلقيا

٢٥- تسبحة موسى عبد الرب (الهوس الأول)

٢٦- التسبحة الثانية لموسى عبد الرب «صلاة النشيد»

٢٧- صلاة حنة أم صموئيل (صلاة الإيمان)

٢٨- صلاة حبقوق النبى (صلاة الانتظار)

٢٩- صلاة يونان النبى (صلاة النجاة)

٣٠- صلاة حزقيا الملك (صلاة الشفاء)

٣١- صلاة منسى الملك (صلاة التوبة والرجوع)

٣٢- تسابيح إشعياء النبى (تسبحة الرجاء)

٣٣- تسبحة إرميا النبى (صلاة الدموع)

٣٤- تسبحة باروخ النبى (صلاة التوسل للرجوع من السبى)

٣٥- تسبحة إيليا النبى (صلاة الغيرة النارية وصلاة الذبيحة والتوبة)

٣٦- صلاة داود النبى (صلاة التقدمة والعطاء)

٣٧- صلاة الملك سليمان (صلاة التكريس)

٣٨- صلاة دانيال النبى (صلاة الاعتراف والتضرع)

٣٩- نحو أسرة أرثوذكسية مقدسة

٤٠- الرؤى والأحلام

٤١- كرامة الزواج المسيحى

٤٢- صلاة سر الإكليل المقدس

٤٣- من صلوات الإكليل